
انتشار الإسلام
في شرقي أفريقية ومناهضة الغرب له
تأليف
الدكتور محمد عبدالله النقيرة
دار المريخ



الدكتور محمد عبدالله النُقيرة
الأستاذ المساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

انتشار الإسلام في شرقي أفريقية ومناهضة الغرب له



الرياض - ص.ب ١٠٧٢٠

طبعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ الرياض

دار المريخ للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونستعينه ونستهديه

المحتويات

صفحة

الباب الثاني

صفحة

الباب الثالث

صفحة

الباب الرابع

المناطق التي انتشر فيها الاسلام في شرقي إفريقية ١٧٣ ـ ٢٤٢

صفحة

الباب الخامس

حضارة الإسلام في شرقي إفريقية ٢٤٣ ـ ٢٨٥

صفحة

الباب السادس

مقـدّمة

يتناول هذا الكتاب دراسة انتشـار الإسلام في شـرقي أفريقيـة، والدول التي كونها المسلمون هناك ومظاهر حضارتها الإسلامية - برجاء أن تساعد هذه الدراسة على إظهار عمق ومدى انتشار الإسلام - ، والجهود التي بذلتها أمم الغـرب المسيحية لمنـاهضة الإسـلام والمسلمين في تلك الأرجاء، وما أسفـرت عنه من نتـائج؛ وقـد نلت بهذا البحث درجـة الماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - بتقدير (ممتاز).

واصطلاح شرقي أفريقية في هذه الدراسة يعني المناطـق التي تضـم الوحدات السياسية الحالية: الحبشـة والأرتريـة، والسومـالات، وكينيا، وأوغندة، وتانزانيا، وموزمبيق والجزر المواجهة لسـواحل تلك المنـاطق؛ لارتباطها تاريخياً وجغرافياً. وقد دُرِسَتْ معاً؛ لأن الإسلام قد انتشر فيها بطرق متشابهة، وتعرض وجوده فيها لظروف متشابهة هي مناهضة الغرب له.

وكـان هـذا المـوضـوع جـديـراً بـالـدراسـة؛ لأن تلك المنـاطق الإسلامية - بالرغم من أهميتها وخطورة ما حل بها من محـن لم تنل - في علمي - عناية المؤرخين المسلمين القدامى ولا المحدثين؛ فلم يؤرخ القدامى

لانتشار الإسلام هناك ولا للدول التي كونها المسلمون، وجاء حديث بعض المتأخرين منهم عن دولة إسلامية ما موجزاً غير دقيق يهتم بجانب ويغفل جوانب أهم.

وإذا كانت حملات أمم الغرب الصليبية على الشرق الأوسط الإسلامي قد ملأت كتب من عاصرها من المؤرخين القدامى ثم المحدثين، فإن أحداً من أولئك أو هؤلاء لم يهتم بحملات الغرب الصليبية على مسلمي شرقي أفريقية بالرغم من أنها كانت أقسى ونتائجها كانت ولا تزال أخطر. من أجل ذلك كله كان هذا الموضوع جديراً بالبحث.

وقد اقتضت خطة البحث أن قسم إلى مقدمة وخاتمة وستة أبواب تشمل أحد عشر فصلاً.

تناولت المقدمة عنوان البحث، وأسباب اختياره، والدراسات الرائدة حوله، وخطته ومحتوياته، والمصادر التي استقى منها مادته، والمنهج الذي التزم به.

وكان طبيعياً أن يمهد للموضوع بالتعريف بالمنطقة، والعوامل التي جذبت العرب إليها، وصلاتهم بها، وأن يدرس سكانها وحضاراتهم قبل الإسلام ليعرف أثر الإسلام فيهم بعد اعتناقهم له. وهو ما خصص له الباب الأول.

وعالج الباب الثاني: صلات المسلمين بشرقي أفريقية، في فصلين تناول الفصل الأول صلات المسلمين التجارية بشرقي أفريقية عموماً، فلم ينقطع وفود التجار المسلمين على شرقي أفريقية بعد عودة الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة بل زاد تدفقهم على الحبشة بخاصة وعلى شرقي أفريقية بعامة، واختلطوا بالافريقيين، واستقر كثيرون بينهم وتصاهروا معهم.

وناقش هذا الفصل مسألتين، هما: تاريخ وصول المسلمين إلى سفالة وبداية دخول المسلمين جزيرة مدغشقر.

ودرس الفصل الثاني: هجرات المسلمين واستقرارهم بشرقي أفريقية منذ القرن الأول الهجري. فقد أدت المنازعات السياسية والخلافات المذهبية والأزمات التي حلت بالعالم الإسلامي منذ ذلك القرن إلى هجرة جماعات من المسلمين من العرب والفرس والهنود إلى شرقي أفريقية بعيداً عن خصومهم أو تفريجاً لكربتهم واختلطوا بالأفريقيين، وتصاهروا معهم. بل أن جيش الخلافة ـ في عهد عبد الملك بن مروان ـ قد احتل أرخبيل الدهلك المواجه لميناء مصوع سنة ٨٣ هـ (٧٠٢ م). وصار رأس الجسر الذي عبر عليه المسلمون إلى الحبشة. كما فتح الجيش الإسلامي بلاد الْبَـجَّة للمسلمين منذ سنة ٣١ هـ.

واختص الباب الثالث بدراسة كيفية انتشار الإسلام في شرقي أفريقية ودرس الوسائل التي نشرته والعوامل التي ساعدت على نشره، ولذا قسم فصلين:

أثبت الفصل الأول أن الإسلام قد انتشر هناك بالدعوة وحدها وأن هناك عوامل ساعدت على نشره درسنا كلا منها على حدة. وهي بساطة الإسلام وسمو مبادئه وتشريعاته، وموقفه من الرق وتمسك مسلمي شرقي أفريقية الأُوَل بالإسلام وهي عوامل حببت الإسلام للأفريقيين وهيأت لانتشاره بينهم، وغموض المسيحية واتخاذ الاستعمار دعاتها أعواناً له، وهو عامل بغض المسيحية ودعاتها للأفريقيين وهناك عوامل أخرى فرعية كالتفرقة العنصرية، واستعمار الغرب المسيحي لبلاد الأفريقيين وقسوته معهم وقد تناولتها مع حديثي عن العوامل الأساسية السالفة.

وتناول الفصل الثاني: الوسائل التي نشرت الإسلام في شرقي

أفريقية، وهي: التجار والمهاجرون المسلمون، والدعاة والمعلمون، والطرق الصوفية، وتحرك القبائل الأفريقية وهجراتها، وقد ناقش هذا الفصل دور كل وسيلة منها في نشر الإسلام.

وجاء الباب الرابع: ليظهر المدى الذي وصل إليه الإسلام في انتشاره في شرقي أفريقية، فتتبع المسلمون هناك، وتحدث عن ممالكهم التي كونوها وأرخ لها منذ نشأتها اجمالاً إلى أن دهمها الخطر البرتغالي في مستهل القرن العاشر الهجري. وذلك في الفصل الأول منه. كما نوقش في نهاية ذلك الفصل آراء بعض الباحثين حول المدى الذي وصل إليه الإسلام في انتشاره حينذاك.

أما الفصل الثاني: فتناول انتشار الإسلام في ظل ممالك المسلمين هناك وتوسع الإسلام في الحبشة بخاصة وفي شرقي أفريقية بعامة بعد احتلال البرتغاليين وغيرهم من أمم الغرب المسيحي لتلك الانحاء ومناهضتهم للإسلام وللمسلمين.

ودرس الباب الخامس: الحضارة الإسلامية في شرقي أفريقية ليظهر أثر الإسلام فيهم وذلك في فصلين:

اختص الفصل الأول: بدراسة التغيير الذي أحدثه الإسلام في ديانات المجتمعات الأفريقية وأنظمتها، فالإسلام دين له عباداته ونظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية، نوقش كل منها في موضوع مستقل وظهر مدى أثرها في المجتمعات الأفريقية المسلمة.

واختص الفصل الثاني: بدراسة التغيير الذي أحدثه الإسلام في حياة الأفريقيين الثقافية، فناقش دور الإسلام ولغته العربية في ثقافة الأفريقيين بعامة وفي لغاتهم وآدابهم وعلومهم وفنونهم بخاصة.

وأما الباب السادس: فدرس مناهضة أمم الغرب المسيحية للإسلام

وللمسلمين في شرقي أفريقية في فصلين:

ناقش الفصل الأول: مناهضة أمم الغرب المسيحية للمسلمين باستعمار بلادهم ونهب ثرواتهم وتأخيرهم وابعادهم عن دينهم، وكيف حالفت الأمم الغربية الحبشة المسيحية في ذلك، فقد دهم مسلمي شرقي أفريقية حملاتٌ صليبية لا تقل جسارة عما حل بإخوانهم في الشرق الأوسط الإسلامي انتهت باستعمار بلادهم واستعبادهم بدأها البرتغاليون وتبعهم الانجليز والفرنسيون والألمان والطليان، واستمر ذلك أكثر من أربعة قرون قاسى فيها المسلمون الأهوال.

وناقش الفصل الثاني: جهود أمم الغرب المسيحية في مناهضة الإسلام نفسه، بتجنيد جيوش من المبشرين لنشر المسيحية بين المسلمين وغيرهم والعمل على وقف انتشار الإسلام، وحماية هؤلاء المبشرين بالمال والسلاح، وتشجيع النشاط الصهيوني والقادياني والاسماعيلي في تشويه حقيقة الإسلام وتشكيك المسلمين فيه، وتحريف كتابه.

وجاءت الخاتمة بنتائج البحث، فتناولت النتائج التي أسفرت عن مناهضة أمم الغرب للإسلام وللمسلمين، وأوردت إحصائية عددهم في الوقت الحاضر ونسبة عددهم إلى عدد السكان، وذكرت ما تتوقعه لهم وللإسلام من مستقبل.

بعد ذلك ألمع إلى المنهج الذي التزمت به في البحث، فقد اعتمدت على المصادر الأساسية في المقام الأول مستخلصاً مواد البحث منها بعد التحقيق والموازنة والوقوف على الدليل، إذ ان هذا ـ بدون شك ـ هو أسلم منهج تاريخي. وكان من نتائج استخدامي هذا المنهج أن تبينت ما في كتب المبشرين ومن تابعهم من المسلمين ـ دون تدقيق ـ وبيانات الحكومات المسيحية من أخطاء ومغالطات سواء فيما يتعلق بانتشار الاسلام أو تاريخ

دوله هناك وحضارتها أو تعداد المسلمين فيها الآن وأحوالهم.

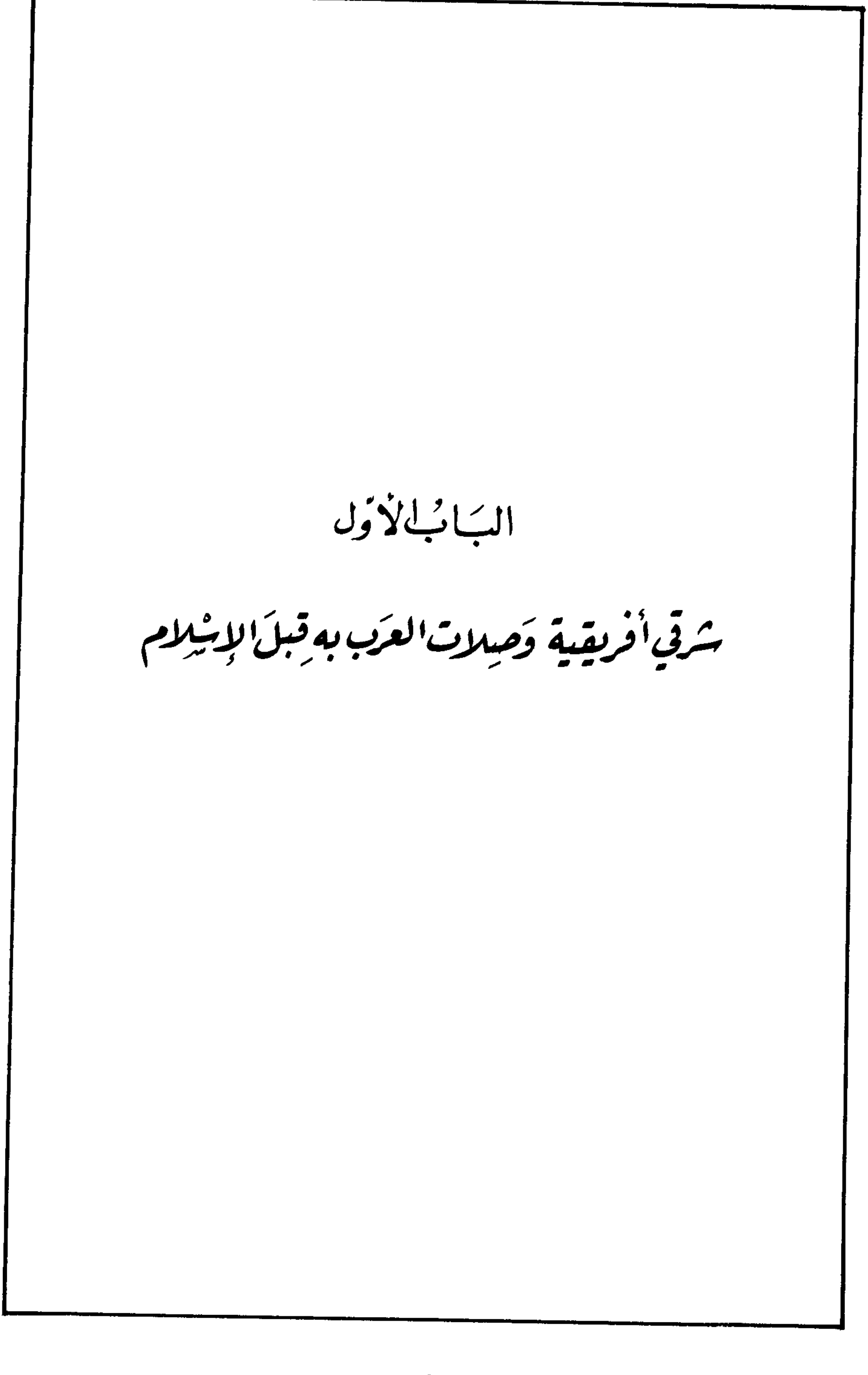
وقد ناقشت ذلك في مواضعه من البحث.

وبعد، آمل أن يكون البحث قد نجح في تحقيق بعض أهدافه في التأريخ للإسلام ودوله في مناطق الدراسة ومناهضة الدول الغربية المسيحية للإسلام وللمسلمين هناك وما تمخضت عنه من نتائج تمس حاضر الإسلام والمسلمين ومستقبلهما هناك.

مع اليقين بأن البحث هو جهد المبتدىء الملتمس للصواب وأن آراءه ليست قاطعة وتطمح للكمال.

ونحمد الله تعالى على ما وفق وأعان.

الدكتور محمد عبدالله النقيرة



البَابُ الأوّل

شرقي أفريقية وَصِلات العَرَب بهِ قبلَ الإسْلام



حدود المنطقة :

تتناول هذه الدراسة المنطقة التي تمتد من الحدود الشمالية لأرترية (Eritrea) حتى الحدود الجنوبية لمستعمرة موزمبيق (Mozambique) (الحالية)، والتي تتاخم سواحل البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، وتمتد في داخل القارة غرباً حتى الحدود الغربية الحالية للحبشة (Habyssinia) وأوغندة (Uganda) وكينيا (Kenya) وتانزانيا (Tanzania) ومستعمرة موزمبيق البرتغالية. بالاضافة إلى شمول الدراسة للجزر المواجهة لتلك السواحل، سواء القريبة منها التي جعلها الكتاب العرب ـ كالمسعودي[١] والادريسي[٢] ـ جزءاً من الساحل مثل جزر منبسي (Mombasa) وكلوة (Kilwa) وموزمبيق التي لا تبعد أقصاها عن الساحل أكثر من أربعة كيلومترات، أو البعيدة نسبياً بمسافة تتراوح بين ٤٠ و ٦٠ كيلومتراً كجزر بمبة (Pemba) وزنجبار (Zanzibar) ومافيه (Mafia) أو الأبعد من ذلك مثل جزر القمر (Comor Islands) وجزيرة مدغشقر[٣] (Madagascar).

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر: جـ٢ ص١٨ ـ ١٩ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط١٩٦٤م).
(٢) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٧٤) (بلدان تيمور) (المجلد الأول) متفرقات.
(٣) هيام عبد الرحمن، شرق أفريقية عند الكتاب العرب (رسالة ماجستير لم تنشر، بكلية بنات عين شمس) ص ٤٨ و ١٨٧.

وقد حددت المنطقة هكذا؛ لأن لها ظروفاً تاريخية وجغرافية متشابهة، إذ تعرضت لهجرات العرب والمسلمين واستيطانهم وتأثيرهم في سكانها جنسياً وحضارياً وتحويل الكثيرين منهم إلى الإسلام، وتوليهم في كثير من الأحيان مقاليد الحياة السياسية والاقتصادية، وصبغهم البلاد بالطابع العربي وبلون الحضارة الإسلامية التى لا تزال باقية حتى اليوم؛ ولأن سكان هذه المنطقة المسلمين قد تعرضوا لحملات صليبية متواصلة ولجهود استمرت ولا تزال لاضطهادهم أو لتحويلهم عن الإسلام.

وقد تعرضت لتلك الجزر في دراستي لارتباطها بالساحل الشرقي لافريقية تاريخياً وجغرافياً، إذ تعتبر من الناحية الجغرافية جزءاً من الساحل وامتداداً طبيعياً له إلى جهة الشرق. كما يقترن تاريخها بتاريخ الساحل وبالهجرات التي نزلت به؛ ولذا كان الكتاب العرب يشيرون إليها باستمرار عند حديثهم عن الساحل على أنها جزء متمم له.

طبيعة شبه جزيرة العرب وصلاتهم بشرقي أفريقية قبل الإسلام:

كانت شبه جزيرة العرب ـ كما ذكر علماء الأجناس ـ مستودعاً بشرياً عظيمًا، ظل يفيض بهجرات بشرية على مدى العصور والأجيال؛ إذ كانت من قبل غزيرة المطر، ميسورة وسائل الرزق، ثم اعتراها الجفاف بعد انتهاء العصر المطير منذ عشرة آلاف سنة[1]، فاضطر كثيرون من العرب إلى الهجرة إلى شرقي أفريقية حيث لم يكن باب المندب عائقاً كبيراً بين الشاطئين.

وعاش العرب في شبه جزيرتهم الصحراوية القاحلة حياة تنقل

---

(١) محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الأفريقية: ص١١ (ط أولى) وأميل لودفيغ: النيل (تعريب عادل زعيتر) ط سنة ١٩٥١ ص٣٠٩ وما بعدها.

وارتحال سعياً وراء الماء القليل، والتماساً لمراعي العشب، أو بحثاً عن أماكن أكثر أمناً على أرواحهم وما يمتلكون من خطر القبائل المجاورة، والتي فرضت عليها طبيعة الحياة البدوية حياة السلب والغارة، وجعلت الحرب سجالاً بينها من أجل الحصول على الماء والمراعي.

ولبداوة الحياة وعدم توافر أسبابها لدى كل قبيلة على حدة، اتجهت القبائل للتكامل من بعضها البعض أو من أناس آخرين وأماكن قربت أو بعدت فنشأت بينهم وبين الآخرين علاقات اقتصادية بدائية أولاً ثم تطورت بمضي الزمن.

وقد اتجه العرب إلى البحار التي تحيط بهم من ثلاث جهات، من الشرق والجنوب والغرب، بحثاً عن مصادر أخرى للرزق أو عن أماكن أخرى وراءها أكثر أمناً وأهنأ حياة، فبنوا سفن المجداف ثم الشراع صغيرة أولاً ثم كبرت بمضي الزمن، وجابوا البحار والخلجان المحيطة بهم. وقد حدث هذا قبل التاريخ[1].

وكان سكان السواحل - بخاصة اليمنيين والحضارمة وعرب الخليج العربي - أول هؤلاء وأكثرهم سعياً لتحقيق ذلك الهدف، فاهتدوا إلى ساحل أفريقية الشرقي لقربه الشديد من ساحلهم - بخاصة عند باب المندب - ولإحاطة القرن الأفريقي بجزيرتهم. وساعدهم هدوء البحر الأحمر ويسر الملاحة فيه، فأبحر العرب بحذاء الساحل الأفريقي شمالاً وجنوباً، واتصلوا بالجماعات البشرية التي تقيم عليه وتعاملوا معها، وكانوا

---

(1) المسعودي: مروج الذهب جـ1 وجـ2: أماكن متفرقة، ورحلة السيرافي أماكن متفرقة، والإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (مخطوط مصور بدار الكتب، رقم ١٧٤ بلدان تيمور) المجلد الأول ص٤٨ وجورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الحديثة (مترجم) ص ٢٣ - ٢٤.

بذلك أول أمم الأرض اتصالاً بها وتعاملاً معها واستقر بعضهم بها منذ عصور موغلة في القدم[1].

ويبدو ـ كما ذكر جيان[2] ـ: «أن بلاد العرب كانت مركز التجارة بين المشرق والمغرب، وأن العرب هم الذين استكشفوا، لأول مرة، تلك البلاد الكائنة جنوبي بوغاز المندب أو لغاية سفالة على الأقل. ثم ان باقي الأمم لم تصل إلى هذه البقاع إلا بعدهم وبواسطتهم» كما أن حلول غيرهم كان مؤقتاً، أما العرب فقد تواصل وجودهم بها، كما وصلوا شواطىء جنوبي وشرقي آسيا، واتجروا مع سكانها واستقر بعضهم في أماكن عرفت كمراكز تجارية مشهورة، حيث ثبت وجود عدة مستعمرات عربية على سواحل الهند والصين[3]، واتسعت بذلك آفاقهم التجارية، وكثرت مصادر مواد التجارة، فكثر ترددهم على تلك الأسواق، بل نظموا إليها الرحلات، وتطورت صناعة السفن عندهم وكبرت أحجامها حتى تستطيع عبور المحيط الهندي، وليمكنها استيعاب تلك السلع التجارية المتنوعة[4]. وأضحت سفنهم تمخر عباب المحيط الهندي إلى شواطىء آسيا، لتعود محملة بالتوابل من الهند والجواهر من سيلان، والقرنفل وخشب الصندل من الهند الصينية، والفلفل من ملبار، والنحاس من كلبانا، والمسك والكشمير من السند، والحرير الخام والصيني من الصين فيأخذون من كل ذلك حاجتهم في جنوب شبه جزيرة العرب، وتذهب سفنهم بالباقي إلى

(١) المصدر السابق.

(٢) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية: ص٢٦ (نقله إلى اللغة العربية الأمير يوسف كمال ط سنة ١٩٢٧م).

(٣) أبو زيد السيرافي: رحلة السيرافي (تحقيق علي البصري) ص ١٠٢ ـ ١٠٣، والمسعودي: مروج الذهب: متفرقات.

(٤) نفس المصدر، وزيلع، مقال للدكتور زاهر رياض، بمجلة نهضة أفريقية (السنة الأولى العدد ١١ سبتمبر سنة ١٩٥٨م).
وحوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي: ص ٨٢ و٨٥ ـ ٨٦ و١٢٣ ـ ١٢٧.

أسواق شرقي أفريقية، لاستبداله باللبان والبخور وسن الفيل والبن من أثيوبيا والعاج والرقيق وتراب الذهب من شرقي أفريقية(١).

وقد اشتغل العرب منذ قبل الميلاد بالوساطة التجارية بين سكان تلك الأنحاء وبين الأمم المتحضرة، فحملوا مواد التجارة إلى عوالم البحر الأبيض المتوسط المتحضرة والتي كانت تلح في طلبها، وقايضوا عليها بالرقيق والخشب والأقمشة من أوروبا، والمنسوجات الحريرية والمخرمات، والأقمشة الموشاة بالذهب والأواني الذهبية من القسطنطينية(٢).

ولم يقتصر العرب في معاملاتهم التجارية على مقايضة سلعة بأخرى، بل اشتروا تلك السلع بالخرز الذي كانوا يحصلون عليه من الهند(٣).

وكان في شرقي أفريقية ما أغرى العرب بالتردد عليه للتجارة أو للاستيطان من كثرة الخيرات ووفرة مواد التجارة المتنوعـة، والتي كانت الدول القديمة تلح في طلبها ومن يسر الحياة واعتدال ا'ناخ، بالنسبة لمناخ بلادهم(٤). كما كان في مواجهة الساحل الشرقي لأفربقـة كثير من الجزر القريبة منه والبعيدة عنه نسبياً، وتحيط بها المياه من كل جانب، فكانت كمرافىء، طبيعة لسفنهم، وأقاموا عليها مراكزهم التجارية، ليكونوا بمأمن من غارات القبائل الأفريقية التي كانت تغير على الساحل فلا تُبقي ولا تذر؛ إذ ان العرب وهم من البحارة يمكنهم الدفاع عن أنفسهم. على أن العرب سرعان ما اختلطوا بهم وتزوجوا منهم، ونشأ عن هذا التزاوج الشعب السواحلي(٥).

ومجموعة جزر الدهلك، المواجهة لمصوع، أصبحت مركزاً لتجارة

---

(١) المصدر السابق نفس المكان.

(٢،٣) صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم: زنجبار ص٥، ونفس المصدر السابق.

(٤) صلاح العقاد: المرجع السابق: ص٥، وزيلع، مقال زاهر رياض: المرجع السابق نفس المكان.

(٥) Encyc c. De L'Islam, Vol.IV, P. 1284 (1934).

مـزدهرة سـرعان مـا ازدادت ازدهاراً، وأصبـح لها أسـطول عربي[١]. واشتهرت عدل أو عدول كميناء تجاري هام بالساحل الحبشي[٢].

ومكان زيلع الحالية يغري بالاقامة والاستقرار، فهو لسان يمتد إلى البحر تحوطه المياه من ثلاث جهات متصلاً بالساحل، وإلى الغرب منه قليلاً مصب لخور يبدأ من السفوح الجنوبية الشرقية لهضبة أثيوبيا حيث يوجد سهل متسع من أخصب سهول الهضبة هو سهل هرر. ويحمل هذا الخور إلى منطقة زيلع بعض ما يسقط على أطراف الهضبـة من أمطار موسمية؛ فنزل العرب بهذا المكان واستوطنوه واشتغلوا بالتجارة وبغيرها، فحملوا من الداخل البن والفاكهة والخشب واللبان والبخور - إلى السفن في البحر الأحمر وخليج العرب حيث كـانت تحملها إلى الأسـواق العالميـة المشهورة آنذاك، والتي كانت تتلهف عليها[٣].

واستطونت إحدى الجاليات العربية في هرر، وهاجر بعض العرب إلى اقليم جوراج وعلموا لغتهم لقبائل السيـداما الحاميين الذين استقروا بينهم[٤]. وصعدت جماعات عربية أخرى فـوق الهضبة الحبشيـة نفسها وانتشـرت عليها، واستقـر المهاجـرون العـرب بتلك الجهـات واشتغلوا بالزراعة وبغيرها من وسائل العيش، واختلطوا بالكوشيين وصاهروهم، وذلك قبل الميلاد بألفي سنة أو أكثر[٥].

وبلغت هذه الهجرات أقصاها ما بين عامي ١٥٠٠ و٥٠٠ (ق.م)

---

(١) زيلع، مقال الدكتور زاهر رياض.

(٢) بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، بحث للدكتور سعيد عاشور (بالمجلة التاريخية المصرية العدد ١٤ السنة ١٩٦٦/ ١٩٦٧) ص٣.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك: جـ٢ ص٣٢٨، وزيلع: مقال الدكتور زاهر ريـاض السابق.

(٤) Trimingham: Islam in Ethiopia, P.7.

(٥) Mac Macheal, H: A History of the Arabs in the Sudan, Vol 1, PP. 3-4 (London 1922).

في عهد دولتي معين وسبأ[١]. فجاءت أفواج عربية من الجنوب تحمل مظاهر الحضارة السبئية الزاهرة وعلموا الوطنيين استعمال المعادن وأنظمة متقدمة في الري والزراعة وانماطاً جديدة للنظام الجماعي وفن الكتابة، كما أدخلوا زراعة نباتات جديدة، وأحضروا حيوانات مستأنسة معهم، وهكذا أصبحت تلك المرتفعات مركزاً لنشر تلك الحضارة العربية الراقية. وفرض العرب لغتهم وثقافتهم على السكان الذين نزلـوا بينهم واختلطوا بهم، فغيروهم تغييراً كلياً. وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة في البحـر الأحمر وتوغلوا في أفريقية غرباً حتى وصلوا وادي النيل[٢].

وسيطر العرب المهاجرون على نواحي النشـاط المختلفة، بخـاصة التجارة، وأخذ نفوذهم التجاري يزدهر في الوقت الذي أخذ فيه نفوذ المصريين القدامى في الاضمحلال، ولا زال كثير من المواقع القريبة من مصوع يحمل من الأسماء ما يؤيد تغلغل المهاجرين والتجار العرب، بل اكتشفت نقوش حميرية تؤرخ من القرن السابع إلى القرن الخامس قبل الميلاد[٣].

ولقد عاش العرب الرعاة على السهول بينما استقر المزارعون على الهضبة، وسيطروا على النشاط الاقتصادي كله، وأصبحت لغة القبائل المسيطرة هي اللغة السامية، وأثر الساميون في حياة الكوشيين والزنوج تأثيراً عميقاً[٤].

وهاجرت القبائل العربية التي كانت تنضوي تحت لواء مملكة عزان بجنوب شبه جزيرة العرب - إلى شرقي افريقية واستقرت، وقامت بنشاط

---

(١) Ibid, PP. 3 - 4.

(٢) Mac Macheal, Ibid, P.4 and Budge: A History of Ethiopia Vol. 1 P. 130 and Trimingham, op. Cit, P. 33.

(٣، ٤) Budge: OP. Cit; Vol. 1. P. 130 and Mac Micheal: OP. Cit. Vol. 1, P. 4.

جم في التجارة وغيرها من الحرف، حتى عرف ساحلا كينيا وتنجانيقا بساحل عزان. وهاجرت جماعات عربية من تلك القبائل إلى جزر كلوة وبمبة وزنجبار ومـافيه ومدغشقر، فقد عثر المنقبون في جزيرة مدغشقر على عملة من العملات التي استعملت في عهد قسطنطين الأول في مطالع القرن الرابع الميلادي[1].

وشيـد هؤلاء المهاجـرون العرب مـراكزهم التجـارية عـلى امتداد الساحل وجزره على غرار مدنهم التي أتوا منها، فقد عثر (جارفس ماثيوز) سنة ١٩٥٠م، في الجزر الكثيرة التي نقب فيها قريباً من ساحل تانزانيا الجنوبي ـ على كثير من الآثار التي تؤكد استيطان العرب في تلك الأنحاء قبل الإسلام بعصور بعيدة، من ذلك ما وجده في جزيرة (سنجي ياكاتي) بالقرب من كلوة، من «منازل صغيرة مستطيلة الشكل من الحجر المتقن الرصف، تجمعت كلها منزلاً جنب منزل حول قلعة ما زالت جدرانها ترتفع ستة عشر قدماً فوق الأرض، وهي أقدم منزلة تجارية في تلك الجزر عثر عليها حتى الآن»[2].

ولقد نمت تلك المراكز التجارية العربية وازدهرت، بنمـو التجارة وازدهارها وبازدياد الوافدين عليها للتجارة أو للاستيطان، وأصبح الأمراء العرب يحكمون في السومال وما وراءه قبل الميـلاد، كما كـانت زنجبار خاضعة لسلطان عربي[3]. ودخل المهاجرون والتجار العرب مع الأفريقيين في صلات اقتصادية واجتماعية، فتزوجوا منهم، وتوطدت هذه العلاقات

---

(١) استقرار العرب في ساحل شرق أفريقية، بحث للدكتور جمال قاسم، بحوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر ص ٢٨٠).
وبازل دافدسن: افريقيا تحت أضواء جديدة (مترجم) ص٢٤٢ وما بعدها.

(٢) بازل دافدسن: افريقيا تحت أضواء جديدة: ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٣) Periplus Maris Erythreai (Trans. W. Schoff) With Adress «The Periplus of Erythrean Sea» London 1921 PP. 26 - 28.

ونمت، مما أدى إلى ازدهار التجارة ورواجها، ومزاولة العرب لشتى ضروب النشاط الانساني الذي كان سائداً هناك. ولما كـان العرب أكـثر منهم حضارة ورقياً نظر إليهم الأفريقيون نظرة إعجاب وتقدير، ورحبوا بالدخول معهم في علاقات اجتماعية، وتطلعوا إلى تعلم لغتهم ليتحدثوا بها، لما تتيح لهم من آفاق واسعة في التجارة والتعامل التجاري[1].

وكان لكل سوق أو مدينة زعيم عربي، وبعض زعـماء السـاحـل مستقلون وبعضهم يدين بالطاعة والولاء لأمراء حمير وجنوب شبه جزيرة العرب. وكان السلطان في الساحل الأفريقي لعاهـل من ملوك العرب يمارس حقاً من الحقوق القديمة يخول له وراثه. وكانت «موزا» في حمير- آنئذ - هي اليد العليا الحاكمة، وكان تجار موزا يبعثون سفناً كبيرة، يقودها عرب يعرفون الأهلين ويتزاوجون معهم، ويعرفون لغاتهم[2].

ونشطت حركة التجار العرب زمن الرومان والبطالسة. وفي القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميريين باب المندب، واستقروا في الحبشة، وسار بعضهم نحو وادي النيل وبلاد النوبة عن طريق النيـل الأزرق والعطبرة[3].

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن الحميريين قد قاموا بحملات عسكرية في القرن الأول قبل الميلاد، في وادي النيل الأوسط وشمـالي أفريقية، تركت جماعات استقرت بأرض البجة وبلاد النوبة[4].

ولقد تعاونت القبائل الأفريقية مع العرب في التجارة، وشاركوا في ازدهارها بنصيب، فكان الرؤساء وزعماء القبائل يأتون إلى المراكز التجارية

---

(١) Ibid, PP. 26 - 28.

(٢) Ibid, PP. 28-9.

(٣، ٤) الطبري: جـ٢ ص٣٢٨، وابن خلدون: العبر: جـ١ ص١٧٦،
Mac Micheal, A History of the Arabs, Vol, 1, PP. 7-8.

التي أنشأها العرب على الساحل، ومعهم الرقيق والعاج والذهب، حيث يقايضون التجار العرب بما يحملونه مع بضائع أو بالخرز الذي كان العرب يحصلون عليه من الهند[١].

ونشطت تجارة العرب مع شرقي أفريقية وازدهرت، وأضحت مراكزهم التجارية التي شيدوها على الساحل الأفريقي تموج بالحركة والحياة، وترسو بمرافئها الأساطيل التجارية العربية المنتظرة دورها في الشحن، أو ريثما يحين موعد هبوب الرياح[٢].

وبقيت هذه المدن الساحلية وأسواقها الكثيرة على هذه الحال قروناً عديدة وظل الاتصال التجاري بين الشاطئين ينمو ويتسع خلال تلك القرون. وهاجر كثير من عرب اليمن إلى شرقي أفريقية عقب انهيار سد مأرب سنة ١٢٢م[٣]، واتسعت منازل العرب هناك وعظم نفوذهم. وذلك قبل الإسلام بوقت طويل[٤] واستمر الوضع على ذلك حتى جاء الإسلام.

وظلت للعرب هناك الهيبة والنفوذ حتى قال أبو زيد السيرافي[٥] ثم الادريسي[٦]: وللعرب في قلوب الزنج رعب عظيم ومهابة، فلذلك متى عاينوا رجلاً من العرب تاجرا أو مسافرا سجدوا له وعظموا شأنه. وقالوا له بكلامهم هنيئاً لكم يا أهل بلاد التمر.

(١، ٢) استقرار العرب بشرق افريقية (حوليات آداب عين شمس، (المجلد العاشر) ص ٢٨٣ - ٢٨٤، Coupland: East Africa P. 16.

(٣) اختلفت الروايات في تحديد الوقت الذي انهار فيه سد مأرب، فذكر أنه كان سنة ١٢٢م، وذكر انه سنة ٥٤٢م.

(٤) استقرار العرب بشرق أفريقية (حوليات آداب عين شمس المجلد العاشر) ص ٢٨٠، ودافدسن: افريقيا تحت أضواء جديدة: ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٥) رحلة السيرافي: ص١٠١.

(٦) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (المجلد الأول) ص٤٨.

العوامل التي ساعدت العرب على الاتصال بشرقي أفريقية:

وساعد التجار والمهاجرين العرب في رحلاتهم إلى شرقي أفريقية وشواطىء جنوبي وشرقي آسيا، معرفتُهم بأسرار الرياح الموسمية واستغلالهم لها؛ إذ «لكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها في أوقات تكون منها مهابُّها قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها ابان هيجانه وأحوال ركوده وثورانه»[1].

ذلك أن الرياح الموسمية تهب في شهر ابريل من كل عام متجهة نحو الجنوب الغربي، وتستمر في هبوبها إلى شهر سبتمبر من نفس العام. وتهب في شهر ديسمبر متجهة نحو الشمال الشرقي، وتستمر حتى شهر فبراير وبذلك تمكن تلك الرياح السفن الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود، ففي فصل الخريف تدفعها الرياح في اتجاه جنوبي غربي فتخرج من سواحل جنوب آسيا مارة بخليج عُمان وجنوب الجزيرة العربية إلى المحيط الهندي ثم تسير بمحاذاة الساحل الأفريقي الذي ينحني في اتجاه جنوبي غربي، كما تدفع السفن من الشاطىء العربي للبحر الأحمر إلى الشاطىء الأفريقي، عبر مياه البحر الأحمر الهادئة، وفي فصل الربيع تدفعها الرياح الموسمية في اتجاه شمالي شرقي يمكِّن هذه السفن من العودة إلى قواعدها في شبه جزيرة العرب، أو الاستمرار في الرحلة إلى شواطىء جنوب آسيا، أو الاتجاه في البحر الأحمر شمالاً إلى عيذاب، حيث تنقل المتاجر إلى عوالم البحر الأبيض براً عبر الأراضي المصرية. وكان العرب بذلك أول الناس معرفة بأسرار الرياح واستغلالاً لها، قبل الاغريق والرومان بنحو مائتي عام تقريباً. وبذلك قام العرب بدور الوساطة

---

(١) المسعودي: مروج الذهب: جـ١ ص١١٢ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط سنة ١٩٦٤م).

التجارية بين شرق أفريقية والشرق الأقصى، وبينهما وبين دول العالم القديم المتحضر آنذاك[1]. كما ساعدهم أيضاً معرفتهم بالفلك وتحديد الاتجاهات بالشمس والقمر والكواكب الأخرى وارتباط حياتهم بالملاحة ونبوغهم فيها، وتمتعهم بحكم موقع بلادهم الجغرافي بالإشراف على طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب[2].

بعد أن تبينا أن العرب رحلوا إلى شرقي أفريقية واستقر بعضهم فيها وأصبحوا من سكانها منذ قبل الإسلام آن لنا أن نتحدث عن السكان بعامة وحضارتهم قبل الإسلام في النقطة التالية.

---

(١) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص ٤١، ٣٧٨ - ٧٩، وجمال زكريا: دولة بو سعيد ص: ١٢. وجيان: الوثائق: ص٢٧.
(٢) السيد رجب حراز: أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي: ص ٢ - ٣.

السكان وحضارتهم قبل الإسلام:

تمهيد:

عاش في شرقي أفريقية شعوب مختلفة سلالياً وحضارياً ولغوياً، وهو ما يتفق مع تاريخها وطبيعتها ومناخها، بخاصة المنطقة الشمالية، وهي التي كان يطلق على سكانها الحبش، كدليل على الاختلاط والتنوع لهذه الشعوب[١]، والتي تعتبر من أكثر مناطق العالم تعرضاً للهجرات الجماعية التي وفدت عليها خلال تاريخها الطويل، فأصبحت خليطاً من أجناس متباينة في الشكل والعادات والمستوى الحضاري. وكان وفود تلك العناصر في أحقاب متعددة؛ ولذا ظل جانب من كل عنصر منعزلاً ومحتفظاً بلغته وعقائده، واختلطت فروع أخرى من تلك العناصر بعضها مع البعض ولكنها لم تنصهر انصهاراً تاماً إلا في القليل النادر؛ ولذا بقيت تتحكم فيها النزعات القبلية والروابط العنصرية، وتتعدد فيها اللغات واللهجات المحلية. وقيل: سمِّيت الحبشة بهذا الاسم نسبة للقبيلة العربية الرئيسية «حبشت» التي هاجرت إليها حوالى القرن السابع قبل الميلاد[٢].

---

(١) Trimingham: Islam in Ethiopia, P.5. and The influence of Islam upon Africa, P. 26.

(٢) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ: ص ١٩ (ط أولى) Loc. Cit, note, 2

أصل السكان:

ولا يعرف شيء عن أصل سكان شرقي أفريقية في عصور ما قبل التاريخ على وجه اليقين، ولكن يبدو أن أقدم السكان الذين عرفوا فيما بعد، قد عاشوا في المنخفضات تاركين السهول غير المأهولة، وبقية هؤلاء هم طوائف الصيادين المشتتين في أنحاء المنطقة[1].

والمسعودي يرجع أصل سكان تلك الانحاء جميعها، بما فيها منطقة الدراسة، إلى أبناء كوش بن كنعان بن نوح عليه السلام، حيث يقول: «ولما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر، ثم افترقوا: فسارت منهم طائفة بين المشرق والمغرب، وهم النوبة والبجة والزنج...

ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب، فصارت الزنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج»[2].

ثم يقول في موضع آخر: «وقطعت الزنـج دون سائـر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب إلى بحر الزنج (نهر جوبا) فسكنت الزنج في ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة وهي أقاصي بلاد الزنج»[3] وذلك قبل الميلاد.

والأحباش أنفسهم يدَّعون أنهم من نسل كوش بن حام[*] بن نوح عليه السلام[4]. ويحتمل أن يكون زنوج أفريقية الذين يقيمون في الربع

---

(١) Sir Wallis Budge; A History of Ethiopia, Vol. 1. P. 129. (1928).

(٢) مروج الذهب: جـ٢: ص٤.

(٣) المرجع السابق: جـ٢: ص٦.

(*) وهذا ما ذكره Budge، ولكن المسعودي ذكر أنهم ينسبون إلى كوش بن كنعان، وهو الأقرب للصواب.

(٤) Budge: A History of Ethiopia Vol. 1, PP. 129, 142.

الشمالي الغربي استوطنوا الربع الشمالي الشرقي عندما وفدت عليهم هجرات حامية قوقازية عن طريق شبه جزيرة العرب(١).

وسوف أعرض لأهم عناصر السكان وحضارتهم قبل الإسلام.

الأحباش الأوائل «الحاميون: Hamites»

تدل الشواهد على أن المهاجرين الأول إلى تلك المنطقة كانوا من الحاميين الذين نزحوا إليها في موجات متتابعة، عن طريق باب المندب وسيناء، في حقب غير معروفة (ق.م) وطردوا الزنوج إلى الداخل وإلى الجنوب، وامتزج بعضهم بهم. وعرف هؤلاء الحاميون باسم «الكوشيين: Kushites» وقد شكلوا طبقة ارستقراطية بين الشعوب التي سيطروا عليها. والذين احتفظوا منهم بنقائهم الجنسي هم: البجة في الشمال، والبيلين في منطقة الكيرين في أرترية، والأجاو في قلب المرتفعات، وقبائل سيداما الجنوبية الغربية المختلفة(٢).

واحتل الحاميون الغزاة المرتفعات الحبشية المعتدلة، وتأثروا تأثراً كبيراً بالساميين الذين امتزجوا بهم عندما وفدوا فيما بعد(٣). إلا أنهم لكثرتهم وقلة عدد الساميين الوافدين لا زال الدم الحامي يتغلب بين سكان التيجري والأمهرا وجوجام وشوا بنسبة ٨٠٪(*). وهذه المناطق هي التي تتركز فيها المسيحية في الوقت الحاضر(٤).

---

(١) Loc . Cit.

(٢) Budge: A History of Ethiopia. Vol. 1 PP. 129-130.

(٣) Ibid: PP. 129 - 130.

(*) وقد ذكر الدكتور محمد عوض في كتابه (الشعوب والسلالات الأفريقية) ص٢٤٢ أن نسبة الدم الحامي في هذه المقاطعات ٧٥٪، والدم الزنجي ١٥٪، والباقي دماء سامية وهي أخطرها أثراً (ط سنة ١٩٦٥م).

(٤) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ: ص ٢٠ - ٢١، Trimingham: Op. Cit. P. 6.

واختلط الأجاو بقبائل الشمال المطعمين بالدم السامي إلا أنهم كانوا أكثر حفاظاً على عنصرهم ولغاتهم وعاداتهم ومعتقداتهم، ويغلب الدم الزنجي كلما انحدرنا نحو الجنوب الغربي حتى أعالي النيل[١]، ويعيش هؤلاء الزنوج ولا يـزالون حيـاة غايـة في البداوة والتـأخر حفـاة عراة واعتمادهم في معيشتهم على الصيد أو الرعي والقتـال. ولم يكن لهؤلاء الحاميين حضارة، قبل مجيء الساميين، بل عاشوا حياة بدائية، في أكواخ ولم يعرفوا شيئاً عن صناعة المعادن، وكـانت معرفتهم بـطرق الزراعـة بدائية[٢].

السامیون: «Semites»

ثم هاجر الساميون إلى تلك المنطقة من شبه جزيرة العرب ـ التي شبهها علماء تاريخ الأجناس البشرية بمستودع بشري ضخم ظل يفيض بهجرات بشرية على مدى التاريخ ـ هاجروا منها على أثر الجفاف بعد انتهاء العصر المطير، وذلك منذ عشرة آلاف سنة.

الجالا والصومال: (Galla and Somali)

وهم مهاجرون حاميون، عبروا بوغاز باب المندب وخليج عدن في عصور قديمة واستقروا في البداية في بلاد السومال بين وادي نهر ويبي وخليج عدن، وأخذوا أثناء امتدادهم يختلطون بالزنوج ويتزاوجون معهم، وانقسموا ثلاثة أقسام كبيرة:

الأول: الذين هاجروا شمالاً إلى سهل الدناكل والمناطق الساحلية

---

(١) Budge: OP. Cit: Vol.1P 130.

(٢) اميل لودفيغ: النيل (ترجمة عادل زعيتر) ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٥١م ص ١٥٥ وما بعدها.

على البحر الأحمر، ويعرفون باسم (عفر ساهو Afar-Saho). وهم قبائل رعوية تعيش على السلب والغارة(١).

والثاني: الذين بقوا في أماكنهم، وانتشروا انتشاراً طبيعياً فيما حولهم حتى وصلوا المجرى الأسفل لنهر تانا على الدرجة الثانية من درجات العرض الجنوبي في كينيا (الحالية) إذ يعيش بعضهم فيها، وفي جنوبي شرق أثيوبيا الحالية في منطقة (أوجادين) وما يجاورها وانتشروا حتى غمروا مناطق السومالات الحالية، ودفعوا الجالا إلى الجنوب الغربي، والبانتو إلى الجنوب، وامتصوا بعض عناصر كلا المجموعتين في نظامهم القبلي. ويعرف هؤلاء باسم (السوماليين :Somali) وهم قبائل رعوية(٢). وأطلق عليهم الكتاب العرب(٣) لفظ البرابر أو البربر وفرضت عليهم طبيعة الحياة السلب والغارة والحروب من أجل الكلأ.

والثالث: قبائل الجالا (Galla) وهم أكثرهم عدداً، وقد هاجروا شمالاً وجنوباً وغرباً بل زحفوا على الحبشة زحفاً، فملأوا جنوبها، ومناطق العروسي وهرر في الشرق ووصلوا إلى نهر (ديديسا:Didessa) في الغرب، وصعدوا فوق الهضبة المنيعة في مقاطعات شوة (Shoa) والوللو وتولاما وجدرو ومانشا. وصادفوا أراض خصبة فتحول معظمهم عن الرعي إلى الزراعة لاختلاطهم بالساميين(٤). وبالرغم من اختلاطهم بالساميين وتأثرهم بهم ظلوا محافظين على كثير من عاداتهم ومعتقداتهم الوثنية، ونظمهم الاجتماعية، إلا أنهم تأثروا في نواح حضارية أخرى، كاستقرار

---

(١) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ: ص ٢٥ ـ ٢٦. Trimingham: Op. Cit: P. 8.

(٢) محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الأفريقية: ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨ وفتحي غيث المرجع السابق والصفحة، Trimingham: Op. Cit: P. 209.

(٣) المسعودي : مروج الذهب: جـ٢ ص٤، وابن بطوطة: ص٢٥٢.

(٤) محمد عوض: المرجع السابق: ص ٢٣٩، Trimingham: Ibid, PP. 189-190.

غالبيتهم واشتغالهم بالزراعة ما عدا قبائل (بورانا: Borana) الذين ظلوا بدوا يرتحلون بماشيتهم من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ، وقد نقل الجالا عن الساميين بناء المساكن من الحجر[1] كما عرفت قبائل الجالا النظام الملكي البدائي. وخاضوا في هجراتهم معارك كثيرة مع القبائل الأخرى. ولهم طابع خاص في ملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم[2]. وكثر عددهم حتى أصبحوا يشكلون نصف سكان الحبشة حالياً[3].

هذه الأقسام الثلاثة: السومال وعفر ساهو ثم الجالا هي التي انتشر الإسلام بينها ثم تبنت الدعوة إليه ونشرته حيث حلت وإلى حيث ارتحلت فيما بعد.

البجاة أو البجة: Beja

وينقسم البجاة إلى قبائل. وقد عاشوا في المنطقة التي تمتد بين البحر الأحمر شرقاً ونهر النيل وعطبرة غرباً، ومن المنحدرات الشمالية لهضبة الحبشة في الجنوب إلى شمال إقليم اسوان في مصر. وقد ضاقت المنطقة التي ينزلون فيها الآن عما كانت عليه من قبل. ويعنيني منهم من كان يقيم بمنطقة الدراسة وهم قبائل بني عامر حيث تمتد مساكنهم من طوكر شمالاً إلى داخل حدود أرترية في الجنوب[4].

وأصل البجة تلك القبائل الحامية التي هاجرت في عصور سحيقة

---

(١) محمد عوض محمد: المرجع السابق: ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩، Budge: Op. Cit. P. 131.
(٢) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية في شرق أفريقية: ص٧ (رسالة دكتوراه لم تنشر بجامعة القاهرة رقم ٦٢٣).
(٣) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ: ص٢٧.
(٤) محمد عوض: المرجع السابق ص ٢٤٦ و٢٤٩ ـ ٢٥٠.

جداً من شبه جزيرة العرب، ويحتمل أن يكونوا أول من نزل بمنطقتهم تلك، ثم اتصلوا بالمصريين القدماء. ولطبيعة المنطقة التي نزلوا فيها غلبت عليهم الحياة البدوية، فعاشوا حياة التنقل والارتحال التماساً لمواطن الماء والعشب ليرعوا ماشيتهم، ولذا كانت الحرب بين القبائل سجالاً من أجلها.

وبالرغم من اتصال البجة بمصر والنوبة والحبشة اللاتي اعتنقن المسيحية منذ عهودها الأولى، فلم يدخل البجة في المسيحية، وظلوا على وثنيتهم قروناً طويلة. ثم بدأ الذين يجاورون تلك الدول ويتعاملون مع سكانها يتحولون إلى المسيحية منذ القرن السادس الميلادي. ولما بدأ البجاة يختلطون بالقبائل وبالتجار المسلمين الذين رحلوا إليهم وعاشوا بينهم منذ القرن السابع الميلادي بدأوا يتحولون إلى الإسلام إلى أن اعتنقوه جميعاً[١].

ويتكلم البجاة لغتهم الحامية وتسمى «التبداوي» أو «بداويت» باستثناء عشائر الجنوب من بني عامر ومن يجاورهم فإنهم يتكلمون اللغة التجرية، وهي لغة سامية منتشرة في أرترية وشمال بلاد الحبشة، وبعضهم يتكلم لغة «التبداوي».

ويعرف أكثر البجاة اللغة العربية بعد أن اختلطوا بالعرب ودخلوا في الإسلام بجانب لغتهم الأصلية التي تسرب إليها كثير من الصيغ والأساليب العربية[٢].

الزنوج: Zanj

وهم الذين يقيمون في المنطقة الجنوبية والجزر المواجهة لها ويرجع

---

(١) فتحي غيث: المرجع السابق: ص ٢٣ ـ ٢٥، محمد عوض: المرجع السابق: ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٢) محمد عوض: المرجع السابق: ص ٢٥٠ وص٢٥٨ ـ ٢٦٠.

المسعودي أصلهم إلى أبناء كوش بن كنعان بن نوح عليه السلام[1].

ولقد اختلط معظم هؤلاء الزنوج بالقوقازيين من الحاميين والساميين، وتزاوجوا معهم على امتداد التاريخ، ويطلق على نتاج هذا التزاوج اسم «البانتو الشرقيين Bantu Eastern» وبالرغم من تعدد قبائلهم واختلافها في العادات والتقاليد نوعاً ما، فإنهم يتشابهون سلالياً ولغوياً وحضارياً، فلغاتهم تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة[2]، ويفضل باومن (Baumain) تسميتهم بـ «البانتو الحاميين»[3].

وقسم المسعودي بلادهم ثلاثة أقسام، «بلاد الزنج وسفالة الزنج والواق واق، وهذه الأخيرة أقصاها جنوباً، واتخذها الزنج دار مملكة، وملكوا عليهم ملكاً سموه «وقليمي أو وقليمن» وهي سمة لسائر ملوكهم في سائر الأعصار، ويركب وقليمي - وهو يملك ملوك سائر الزنوج - في ثلثمائة ألف فارس[4]».

ومعنى كلمة «وقليمي»: ابن الرب الكبير، لأنه اختاره لملكهم والعدل فيهم، فمتى جار عليهم قتلوه وحرموا عقبه الملك، إذ بطل أن يكون ابن الرب الكبير الذي يملك السموات والأرض[5].

ولم تكن للزنوج شريعة يرجعون إليها، بل كان لملوكهم ورؤساء قبائلهم رسوم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم[6]. ولكنها - كما

---

(١) أنظر: مروج الذهب: جـ٢ ص ٤ و٦.
(٢) محمد عوض محمد: المرجع السابق: ص٧١ وما بعدها.
(٣) نقلا عن محمد عوض محمد: المرجع السابق: ص٩١.
(٤) مروج الذهب: جـ٢ ص٦ سموه أي لقبوه.
(٥) نفس المكان، وفي كلام المسعودي الكثير من المبالغة، لأن حياة البانتو قبلية ولم تقم لهم وحدة سياسية تضم شملهم هكذا قبل الإسلام.
(٦) المسعودي: مروج الذهب: جـ٢ ص ١٦ - ١٧.

يقول أرنولد[1] - تخضع لنزواتهم الاستبدادية، فللملك أو شيخ القبيلة حق تقرير مصيرهم، ويتمتع بالمال والثراء وحده، ويتزوج بأعداد لا تحصى من النساء خلا آلاف الاماء. بل ينفرد بحق الاتصال بأرواح السلف وتقديم القرابين لها[2].

وعاش البانتو هؤلاء حياة قبلية، فهم ينقسمون إلى قبائل، تستأثر كل قبيلة بمنطقة تقيم فيها وتعتبرها منطقة نفوذ لها، ومن هنا ثارت بينها المنازعات والحروب، وانتشرت بينهم عادات الحياة البدوية القبلية كالسلب والغارة[3]. بل كانت منهم أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضاً - كما ذكر المسعودي[4]. وكانوا قبل دخولهم في الإسلام عراة أو شبه عراة، متخلفين في ميدان الحضارة؛ إذ عاشوا حياة بدائية لم تتعد مرحلة جامعي الغذاء. بالرغم من وجود ثروات طبيعية ضخمة: نباتية وحيوانية ومعادن نفيسة كالذهب والفضة والحديد والنحاس. وعاشوا في أكواخ. ولم يكن لهم أثارة من علم أو فن أو حضارة قبل تأثرهم بحضارة الإسلام الراقية[5]، فلم يستخدموا الفيلة في حروب ولا في غيرها، بل لم ينتفعوا بعاجها في آلاتهم ولا في حليهم، وإنما كان تجار عُمان وشيراز يأتون فيحملونه في مراكبهم، كما كانوا يستخرجون الذهب والحديد من سفالة

---

(١) الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٩٨ (ترجمة حسن إبراهيم وآخرين) ط سنة ١٩٧٠م.

(٢) اميل لودفيغ: النيل: ص ٥٨ - ٥٩ (ترجمة عادل زعيتر).

(٣) ابن بطوطة: الرحلة ص ٢٥٨، ويوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية في شرق أفريقية: ص ٧،٨.

(٤) مروج الذهب: جـ٢ ص٦.

(٥) نفس المكان، وأبو زيد السيرافي: رحلة السيرافي سنة ٢٣٧هـ/ ٨٥١م (تحقيق علي البصري، ط بغداد سنة ١٩٧١م) ص١٠ والادريسي: نزهة المشتاق (مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٧٤ بلدان تيمور) ص٤٨، ٥٤ والمؤثرات العربية في شرق أفريقية، محاضرة للدكتور محمود طه أبو العلا، بالجمعية الجغرافية بمحاضرات سنة ١٩٦٠م ص١٢٧. وأرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٩٧ - ٤٠٠.

ويحصلون على الرقيق من بلاد الزنج، وتحمل مراكبهم تلك البضائع لتوزعها على أسواق العالم التي كانت تتلهف عليها، ولم يكن للزنوج مراكب يسافرون فيها، بل ان أهل سفالة كانوا في ذاتهم قلة أو في أنفسهم أذلة، كما قال المسعودي[1].

والزنوج أصحاب فصاحة في ألسنتهم، ومنهم خطباء ، وهم الزهاد الذين يخطبون فيهم، فيرغبونهم في القرب من بارئهم ويرهبونهم عذابه، ويذكرونهم بمن مضى من ملوكهم وأسلافهم[2]. والقبائل التي كانت تقيم على امتداد الساحل والجزر المواجهة له ـ الذين اختلط بهم المسلمون وصاهروهم ـ هم أصل الشعب السواحلي.

بعد هذا العرض الموجز لعناصر السكان وحضارتهم قبل الإسلام نتناول دياناتهم قبله.

---

(١) مروج الذهب: جـ٢ ص٦ ـ ٧، ١٥ وانظر: الادريسي: نزهة المشتاق (المخطوط السابق) المجلد الأول: ٤٨، ٥٤.

(٢) السيرافي: رحلة السيرافي ص١٠٠، والمسعودي: مروج الذهب: جـ٢ ص١٧.

ديانات السكان قبل الإسلام

تمهيد:

الطابع الغالب للديانات الأفريقية غير السماوية هو عدم الفصل بين الدين والمجتمع، فالدين هو مصدر قوة الحاكم في رعاية شعبه، والحكم يعتمد على أسس دينية تعضده وتقوي أركانه، والدين معضد لكل نشاط اقتصادي واجتماعي، بل ان العلاقات الاجتماعية والصلات العائلية تعتمد على أسس دينية[1].

وقد اعتنق سكان شرقي أفريقية ديانات وثنية ثم اعتنق بعضهم اليهودية بعد أن وفدت عليهم ثم اعتنق بعضهم المسيحية بعد أو وفدت عليهم ثم اعتنق معظهم الإسلام.

وبالرغم من أن الديانات جزء من الحضارة، فقد خصصتها بدراسة مستقلة هنا لسببين:

الأول: أنني سأتناول انتشار الإسلام في معظم الرسالة، ولذا وجب تخصيص حيز منها لغيره من الديانات كصورة لمدى انتشار كل دين في تلك المنطقة.

(١) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية ص ١٣،٧ و١٥ وهوبير ديشان: الديانات في افريقية السوداء: أماكن متفرقة (ترجمة أحمد صادق حمدي: سلسلة الألف كتاب رقم ٥٢: ط القاهرة سنة ١٩٥٦م).

الثاني: ان الديانات ذات طابع عام في انتشارها بين الأجناس التي تقطن منطقة الدراسة ولذا تناولت تلك الأجناس وحضارتها ودياناتها إجمالاً ثم فصلت مدى انتشار كل دين بين مجموع تلك الأجناس عموماً.

وسوف أعرض لديانات السكان قبل اعتناقهم الإسلام فيما يلي: -

الوثنية:

سكان شرقي أفريقية - زنوجاً أو حامين أو ساميين - كانوا وثنيين، إلا أنهم كانوا يؤمنون باله واحد أعلى هو خالق السموات والأرض، بالرغم من تسميتهم له بأسماء مختلفة، فجميع قبائل الزنج كانت تعبد إلهاً واحداً هو الرب الكبير خالق السموات والأرض، والذي أسموه: «مكلنجو أو ملكنجو»[1]، والحاميون - من أبناء نوح عليه السلام - كانوا يؤمنون باله واحد هو إله نوح[2]. وأما الساميون الذين وفدوا على أكسوم من جزيرة العرب، واستعمروها قديماً فكلهم وثنيون[3]، وان اعتقدوا في خالق أعلى شأن العرب الذين قالوا عن الأصنام - كما حكى عنهم القرآن الكريم - ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[4].

وقد عبد هؤلاء جميعاً بجوار الإله الأعلى آلهة أخرى كثيرة: ظاهرة كبعض الأنهار والأشجار والكواكب والحيوانات أيضاً، أو خفية كالجن وأرواح أسلافهم. واعتقدوا أن هذه الآلهة وسطاء، بينهم وبين الإله الأكبر الذي وكلها برعاية الأحياء وتيسير الحياة وانتظام الكون، مثل إله السماء وزوجه إلهة الأرض، وآلهة: الرعد والبرق والمطر والزرع والحصاد؛ وما

---

(١) المسعودي مروج الذهب: جـ٢ ص١٦.

(٢) Budge: A History of Ethiopia, Vol. 1. P. 142.

(٣) Trimingham: Islam In Ethiopia, P 19.

(٤) سورة الزمر: من الآية الثالثة.

ذلك إلا لاعتقادهم بأن الاله الأكبر بعيد عن العالم بعداً شاسعاً، بحيث يصعب الاتصال به. واعتقدوا في الجن وفي أرواح أسلافهم وخافوا هذه الأرواح، فاشتغلوا بالسحر والكهانة ليتقوا شرها. وأقاموا لآلهتهم المعابد ونحروا لها الذبائح من الحيوانات والطيور والآدميين أيضاً، تقرباً واستعطافاً ودفعاً للكوارث، كما أقاموا لها احتفالات يومية وموسمية وسنوية، ينحرون فيها الذبائح ويشربون فيها الخمور ويطبلون ويرقصون(١).

وكانت فكرتهم عن نشأة الكون وبدء الخليقة خرافية وساذجة، واعتقدوا بأن الموت عدوى تنتقل من الموتى إلى الأحياء، ولذا استرضوا أرواح موتاهم ليدفعوا تلك العدوى عن أنفسهم(٢).

واعتقدوا بأن أرواح موتاهم تحل في بعض مظاهر الطبيعة أو حيواناتها أو نباتاتها، ولذا قدموا لها القرابين(٣).

ولا زالت قبائل أفريقية تدين بالوثنية بمعتقداتها السابقة وتقطن منها في منطقة الدراسة قبائل كثيرة لم تتحول بعد إلى الإسلام أو المسيحية.

الديانات السماوية:

لقد شقت الديانات السماوية طريقها إلى سكان شرقي أفريقية الوثنيين منذ عصور مبكرة من ظهور تلك الديانات، بخاصة سكان المنطقة الشمالية الأحباش، فانتشرت بينهم اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام، إلا أن الإسلام قد انتشر في المنطقة الجنوبية أيضاً منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) ثم بدأ المستعمرون في نشر المسيحية في

(١، ٢، ٣) هوبير ديشان: الديانات في أفريقية السوداء: أماكن متفرقة، ومحمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الأفريقية: ص٩٨ و٩٩ و١٠٠، ويوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية: ص٧ و١٣ و١٥، Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 17-19.

المنطقة الجنوبية بعد أن استعمروها في القرن السادس عشر الميلادي.

وعلى الرغم من اعتناق الأفريقيين لتلك الديانات السماوية الثلاث إلا أن معظمهم لم يتخلصوا تماماً من معتقداتهم الوثنية السابقة خلا الذين اعتنقوا الإسلام فقد أثرت فيهم عقائده، وأفكاره بدرجة كبيرة جداً[1].

وسوف أتناول تاريخ كل من اليهودية والمسيحية في شرقي أفريقية ثم أخص الإسلام بدراسة تفصيلية كاملة في باقي أبواب الرسالة.

اليهودية:

وصلت اليهودية إلى الحبشة مع اليهود الذين هاجروا إليها في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، بعد أن ضرب (بختنصر البابلي) بيت المقدس وشتت شمل بني إسرائيل، كما ذكر العهد القديم وأوراق بردى اليفانتين. لكن المصادر الحبشية[*] تدعي أن اليهودية دخلت الحبشة على يد منليك ابن سليمان وملكة سبأ منذ القرن العاشر قبل الميلاد، وهاجر إلى الحبشة أيضاً بعض اليهود من مصر سنة ٥٨١ (ق.م)، ومن جنوب شبه جزيرة العرب مع العرب الذين توافدوا عليها قبل الميلاد بمئات السنين، وفي نفس تلك الفترة كان أحفاد سليمان قد بدأوا نشاطهم التجاري في البحر الأحمر ووصلت سفنهم موانىء الحبشة بحثاً عن الذهب، وكان لهذا النشاط

---

(١) بين الحبشة والعرب: ص١٨، والديانات في افريقية السوداء ص١٢٨

The Influence of Islam upon Africa P. 55.

ومما يدل على ذلك ما ذكرته تلك المراجع من أن اليهود والمسيحيين الأحباش يخلطون عباداتهم بعبادات وثنية لكنهم أشادوا بتمسك المسلمين بدينهم.

(*) هي «مجد الملوك» «Glory of Kings» الذي ألفه Neburaed yeshaq وبعض نقوش الملك عيزانا التي كتب عليها عبارة «ملك صهيون» بين الحبشة والعرب ص١٧ وكذلك الروايات المحلية التي يتوارثها الأحباش جيلاً عن جيل Budge: Op. Cit preface

التجاري أثره في تعزيز الديانة اليهودية بالحبشة[1].

ولقد كون اليهود مستعمرات تجارية بالحبشة صارت مراكز إشعاع لديانتهم بين الأحباش، ولقد قرأ (ليتمان) في بعض نقوش (عيزانا) ـ أحد ملوك أكسوم في القرن الرابع الميلادي، والذي اعتنق المسيحية ـ عبارة (ملك صهيون)، فاستنتج البعض من ذلك أن حركة تبشير جادة باليهودية أو بمذهب يجمع بين اليهودية والمسيحية في الحبشة كانت آنذاك[2].

وقد اختلط هؤلاء اليهود بقبائل الأجاو، ونشروا اليهودية بينهم فاعتنقتها تلك القبائل وان أبقوا على كثير من عاداتهم الوثنية بل أثروا في اليهود أنفسهم فتأثر اليهود بهم[3]. هؤلاء اليهود والمتهودون الأحباش كوشيون خلصاً وعقائدهم وعاداتهم خليط من اليهودية والمسيحية والوثنية، ومما يدل على وثنيتهم عبادتهم آلهة سبث (Sabbath) التي ينحرون لها الذبائح ويقدمون لها الشراب ويطلقون لها البخور واعتقادهم في الأرواح الموجدة والامطار المبدعة وبعض الخرافات الأخرى، ويطلق الأحباش على هؤلاء اليهود والمتهودين لفظ (الفلشة أو الفلاشة: Falasha) أو لفظ (الإسرائيليين: Israielis)[4].

وقد أثرت الديانة اليهودية في الأحباش دينياً وسياسياً، فقبائل الجالا المسيحيون يعبدون إلهة يسمونها سميث، وهو تشخيص ليوم السبت الذي يعظمه اليهود، والذي يسمونه (سميث أو سنبث)، ويفرق المسيحيون الأحباش أيضاً بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة، ويعتقدون في تدنس الأشخاص الذين يخالطون نساءهم أو النساء زمن الحيض، وغير

---

(١) فتحي غيث: الإسلام والحبشة ص ٣١ ـ ٣٢، وطرخان: الإسلام والممالك الإسلامية ص٩، Trimingham: Islam In Ethiopia, P 19.

(٢) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب ص١٧.

(٣، ٤) Trimingham: Op. Cit, PP. 19-20.

ذلك من الأفكار التي أخذها المسيحيون عن اليهود أولاً. هذا عن التأثير الديني. أما الأثر السياسي فهو أسطورة تسلسل ملوك الحبشة من سلالة سليمان الحكيم وزوجه ملكة سبأ والتي يسميها الأحباش (ماقدة: Makeda)[1].

ويدعي اليهود الأحباش أنفسهم أنهم من نسل منليك بن سليمان مؤسس مملكة أكسوم. ويقيم اليهود الآن بين غندار وأكسوم، ويتكلمون لغة كوشية (لغة الأجاو) ويقرأون كتبهم المقدسة بلغة الجعز. ويبدو أنهم قد نسوا لغتهم العبرية التي كانوا يتكلمونها حين أتوا بعد أن ترجمت الكتب المقدسة إلى لغة الجعز لغة الحكومة آنذاك وبعد أن اندمجوا في العناصر الحامية والأفريقية وتأثروا بها[2].

وشريعة اليهود لا تسمح بالزواج مرة ثانية كما في الكنيسة الشرقية[3] وظلت الديانة اليهودية حبيسة في المنطقة الشمالية لم تتعدها إلى سكان المنطقة الجنوبية.

المسيحية:

تسربت المسيحية إلى الحبشة في وقت مبكر من ظهورها عن طريق العلاقات التجارية مع بيزنطة وولاياتها، ونهضت طوائف المبشرين بها في مصر وشمال شرقي أفريقية خلال القرون الأولى من ظهورها، وازداد عدد الداخلين فيها، بخاصة بعد مرسوم ميلانو عام ٣١٣م، الذي أصدره الامبراطور قسطنطين الأكبر معترفاً بالمسيحية ضمن ديانات امبراطوريته. وقد أرسل الفيلسوف أو التاجر الصوري (ميروبيوس Meropius)) جماعة

(١) عبد المجيد عابدين: المرجع السابق: ص١٨.
(٢) عبد المجيد عابدين: المرجع السابق: ص١٦.
(٣) Trimingham: Op. Cit. P. 20.

للتبشير بالمسيحية بين الأحباش، وكان الأخوان فرومنتيوس وأيدسيوس ضمن هذه الجماعة، فلما رست بهم السفينة على ميناء بساحل الحبشة، خرج عليهم السكان وقتلوهم ولم ينج منهم سوى ذينك الأخوين اللذين بيعا إلى ملك أكسوم رقيقاً، فجعل الأول رائداً لولي عهده الطفل (عزانة)، والثاني ساقيه الخاص[1]. وهذا الشطر من الرواية عن دخول المسيحية إلى الحبشة أقرب للصواب مما تذكره معظم المراجع من أن المسيحية قد دخلت الحبشة في القرن الرابع الميلادي[2]، وذلك على يد فرومنتيوس (Frumentius) وأيدسيوس (Aedesius) اللذين خرجا وهما في سن الشباب مع تاجر صوري يدعى ميربيوس (Meropius) في رحلة تجارية إلى الهند. وأبحروا الثلاثة على سفينة في البحر الأحمر، وبينما هم فيه عرجوا على ميناء بالساحل الحبشي ليتزودوا بما هم في حاجة إليه. وكان سكان هذا الميناء قد لحقتهم أضرار من بحارة سفينة أخرى، فاعتدوا على ركاب هذه السفينة وأغرقوهم جميعاً، ولم ينج منهم سوى فرومنتيوس وأيدسيوس اللذين هربا إلى شجرة كبيرة، وأخذا يصليان تحتها ويتضرعان إلى الله أن ينجيهما من الموت. ولما رآهما الأهالي على تلك الحالة لمسوا فيهما الطيبة فقدموهما هدية لملك الحبشة الذي حررهما وعهد إليهما بتربية ولده عزانة (Ezana) بعد أن أصبحا موضع ثقته. وجعل فرومنيتوس وزيره وحامل خاتمه وأيدسيوس ساقيه الخاص[3].

ولما توفي الملك طلبت منهما الملكة أن يظلا معها ليعاوناها في إدارة المملكة حتى يكبر ابنها. وبذلك تمكن فرومنتيوس وزميله من التأثير على

---

(١) طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة: ص ١١ - ١٢.

(٢، ٣) أنظر: ايريسي حبيب المصري: قصة الكنيسة القبطية: ص١٩٧ وما بعدها (ط أولى).

Budge: A History of Ethiopia Vol: 1. PP. 147-155

Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 22-23 and Qeddes :

Church History of Ethiopia. P. 83.

عزانة حتى اعتنق المسيحية وأثرا على رجاله وحاشيته فاعتنقوا المسيحية أيضاً وأخذا يعملان بشتى الوسائل على نشر المسيحية بين الأحباش(١).

وكان التجار اليونانيون والرومان المسيحيون يتوافدون على الحبشة للاتجار مع سكانها، وكانت عاصمتها أكسوم مركزاً تجارياً مزدهراً، فاستغل فرومنتيوس مكانته وأعطى هؤلاء التجار المسيحيين كثيراً من الامتيازات، وبنى أول كنيسة في أكسوم مما مكن للمسيحية بالحبشة(٢).

ولما تولى عزانة الملك عاد فرومنتيوس وايدسيوس إلى بلدهما، فتوجه ايدسيوس إلى صور، وأما فرومنتيوس فذهب إلى الإسكندرية حيث قابل البابا اثناسيوس (Athnasius) وقص عليه ما حدث، وطلب منه أن يرسل مطراناً لكنيسة الحبشة ليتولى رعاية المسيحيين هناك ويقوم بتوجيه الجانب الروحي لهم.

ولكن بطريرك الإسكندرية لم يجد أحداً أحق بشرف الرسامة أسقفا على الحبشة من فرومنتيوس هذا فعينه وأرسله سنة **٣٤١** أو سنة **٣٤٦م** وزوده بالنصائح والارشادات. فلما وصل إليها قابله أهلها فرحين متهللين، ولقبوه «أبونا سلامة» أي معلن النور. ولا يزال هذا اللقب يطلق على مطارنة الحبشة حتى اليوم. ومنذ سنة **٣٥٠م** أصبحت المسيحية الدين الرسمي للحبشة(٣).

وأخذت المسيحية منذئذ تنتشر بالحبشة انتشاراً واساعاً وفق المذهب

(١، ٢) نفس المراجع السابقة والصفحات.

(٣) طرخان: المرجع السابق: ص ١٢ - ١٣.
وبعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، بحث للدكتور سعيد عاشور، نشره في المجلة التاريخية المصرية (العدد الرابع عشر ١٩٦٦/ ٦٧) ص٩، لكنه يذكر ان تعيينه تم سنة ٣٢٦م.

الأرثوذكسي وعلى هدى كنيسة مار مرقس بالإسكندرية مما أوجد رباطاً وثيقاً بين مصر والحبشة[1].

وقد ساهم الرهبان السوريون في نشر المسيحية بالحبشة في هذه الفترة المبكرة، إذ وصل إليها تسعة رهبان في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، عرفهم الأحباش باسم القديسين وقد قاموا بجهود كبيرة لنشر المسيحية بالحبشة وتثبيت أقدامها، وهو ما تشهد عليه آثار الآداب اليونانية والآرامية في الأدب الحبشي[2].

ونهض الرهبان المصريون بمهمة نشر المسيحية بالحبشة وارساء قواعد المذهب الأرثوذكسي منذ القرن السادس الميلادي، فقد أخذت الأديرة الباخومية التي عرفتها مصر منذ القرن الرابع الميلادي تنتشر في البلاد المجاورة لها ومنها الحبشة[3].

وأخذ هؤلاء الرهبان معهم بعض كتب الصلوات والطقوس الدينية وسير الآباء والقديسين والتي كانت تترجم إلى لغة الأحباش فتجد بينهم رواجاً عظيماً. ولم تخل منها كنيسة أو دير بالحبشة مما أدى إلى تقوية الروابط الروحية بين مصر والحبشة ودعم الصلات بين كنيستيهما في ظل المذهب الأرثوذكسي[4].

ونظراً لأن تلك الترجمات للنصوص المسيحية كانت من القبطية والعربية وتمت في وقت مبكر فقد كانت تنقصها الدقة، مما حدا ببعض مطارنة الحبشة المصريين في القرن الثالث عشر الميلادي، وهو الأب سلامة

---

(١) نفس المصدرين، Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 22

(٢) الرهبنة في الحبشة، بحث للأستاذ مراد كامل بمجلة رسالة مارمينا (العدد الثالث، مايو سنة ١٩٤٨) ص٣٠.

(٣) نفس المكان، Budge: A History of Ethiopia, Vol. 1. P. 153.

(٤) Loc Cit, and Qeddes ; Church History of Ethiopia, P. 83.

الملقب بالمترجم - إلى أن يعمل على جمعها ومراجعتها وتصحيحها، ولذا نسب إليه بعض الكتاب الفضل في وضع بذور المكتبة الدينية بالحبشة[١].

وعلى ذلك باتت كنيسة الإسكندرية مصدر الإلهام الروحي للأحباش مما جعلهم ينظرون إليها نظرة اكبار وتعظيم، وفاقت مكانة المطران المصري وأهميته عندهم مكانة وأهمية ملوك الحبشة أنفسهم في بعض الأحيان. فكان أمره مطاعاً وحرمته وافرة ومقره حرماً يلجأ إليه المظلوم فلا يجرؤ أحد أن يقترب منه أو يمسه بسوء.

ومنذ أصبحت المسيحية الدين الرسمي للحبشة في منتصف القرن الرابع الميلادي حتى منتصف القرن العشرين كان مطران الحبشة دائمًا من القبط المصريين وتتم قداسته في الكتدرائية المرقسية بمصر. وبعد سنة ١٩٤٦م سمح بطريرك الإسكندرية للأحباش باختيار مطران من جنسهم، ولكن لا تزال رسامته تتم على يد البابا المرقسي.

فكان امبراطور الحبشة دائمًا يكتب إلى حاكم مصر يرجوه بالهدايا أن يسمح للبطريرك القبطي بإرسال مطران مصري[٢]، «لأن المطران الذي هو حاكم شريعتهم في جميع بلادهم من أهل النصرانية لا يقام إلا من الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية بحيث تخرج الأوامر السلطانية للبطرك المذكور بإرسال مطران إليهم. وذلك بعد تقدم سؤال ملك الحبشة الذي هو الحطِّي وإرسال رسله وهداياه»[٣].

وظلت المسيحية في المنطقة الشمالية لم تتسرب منها إلى المنطقة الجنوبية إلى أن استعمر البرتغاليون بعض أجزائها في القرن السادس عشر

---

(١) بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، بحث للدكتور سعيد عاشور: المرجع السابق: ص١١.

(٢) المقريزي: الالمام: ص٣، والعمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٣٠ - ٣١.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: جـ٥ ص٣٢٢ (ط دار الكتب سنة ١٩٣٩م).

الميلادي فأخذ مبشروهم يبشرون بها بين السكان ثم توالت البعثات التبشيرية الأوروبية والامريكية بخاصة منذ القرن التاسع عشر الميلادي ونجحت في تحويل بعض السكان إلى المسيحية[1].

وسوف أتناول انتشار المسيحية في المنطقة الجنوبية بتوسع في الفصل الأخير من الرسالة.

بعد أن عرفنا بمنطقة الدراسة، وناقشنا صلات العرب بها قبل الإسلام واستيطان بعضهم فيها، وتحدثنا عن سكان المنطقة بعامة - قبل الإسلام - وحضاراتهم ودياناتهم، وظهر لنا أن اليهودية والمسيحية قد انتشرتا هناك قبل الإسلام ولكن المعتنقين لهما كانوا قلة نسبياً وكانوا يخلطون معتقداتهما بأفكار وثنية.

ننتقل بعد هذا التمهيد إلى الفصل الأول من الباب الثاني وهو «الخطوات الأولى للإسلام بشرقي أفريقية».

---

(١) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية في شرق أفريقية: ص(ب) من المقدمة.



الباب الثاني

صلات تجارية وهجرات إسلامية إلى شرقي أفريقية

وفيه فصلان

الفصل الأول

الخطوات الأولى للإسلام بشرقي أفريقية

الفصل الثاني

هجرات المسلمين إلى شرقي أفريقية واستيطانهم هناك



الفصل الأول

«الخطوات الأولى للإسلام بشرقي أفريقية»



هجرة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إلى الحبشة:

جهر رسول الله ﷺ بدعوته، فانْقَضَّتْ كلُّ قبيلة على من أسلم منها، يعذبونهم ليفتنوهم عن دينهم، ويردوهم إلى عبادة الأوثان. «فافتتن من افتتن، وعصم الله منهم من شاء»[1]. فلما رأى رسول الله ﷺ ما حل بهم، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة»[2]!

فلم اختار الرسول ﷺ الحبشة بالذات؟

«لأن ملكها آنذاك كان رجلاً صالحاً، يحسن الجوار، ولا يُظلم بأرضه أحد[3]؛ ولأن الحبشة كانت متجراً لقريش يتجرون فيها فيجدون فيها رفاغاً[*] من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً»[4].

ولم يفكر الرسول ﷺ في أمر المسلمين بأن يهاجروا إلى إحدى القبائل

(١، ٢) الطبري: جـ٢ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).

(٣) ابن هشام: السيرة: جـ١ ص٢١٣ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد).

(*) ورد في لسان العرب لابن منظور: «ترفغ (بالغين المعجمة) الرجل، توسع، وأنه لفي رفاغة ورفاغية من العيش» مادة رفغ.

(٤) الطبري: جـ٢ ص٣٢٨.

العربية؛ لأنها كانت سترفض دعوته، وتعلن ذلك في موسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكاً بدينها الوثني، ولم يأمن هجرتهم إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لأن كلتا الجماعتين كانت تنافس الأخرى، ولن تقبلا منافساً ثالثاً خصوصاً من القرشيين الذين كانوا يتعالون عليهم، كما كانت اليمن مستعمرة للفرس المجوس الذين لا يعترفون بدين سماوي، والذين أرسل كسرى ملكهم إلى عامله (باذان) على اليمن، يقول له: ابعث إلى هذا الرجل (الرسول) الذي بالحجاز، رجلين جلدين من عندك ليأتياني به. كما كانت الحيرة والشام واليمن بعيدة جداً، والسفر إليها بين القبائل العربية غير مأمون، ولقريش بها مصالح تجارية قائمة، ولهم إليها رحلات تجارية منتظمة[1].

وفوق ذلك كله، فقد تمت مراسلات بين الرسول ﷺ والنجاشي وافق بعدها النجاشي على قبول المهاجرين المسلمين وحمايتهم. فقد ذكر المؤرخون أنه قد حدثت هجرتان إلى الحبشة:

الأولى: مكونة من عشرة رجال وأربع نسوة[2]، وقيل أحد عشر رجلاً[3] أو اثني عشر رجلاً[4] وذلك في رجب من السنة الخامسة من بعثته ﷺ، ثم رجعوا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر بعد أن بلغهم أن قريشاً أسلمت. وكان معهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت الرسول ﷺ[5].

لكن يبدو أن الرسول ﷺ قد أرسل هؤلاء المهاجرين الأول إلى

---

(١) أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي: جـ١ ص١١٨ (ط ثالثة سنة ١٩٦٤م).
(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢١٣.
(٣) الطبري: جـ٢ ص٣٢٩.
(٤) اليعقوبي جـ٢ ص٢١ (ط دار الفكر نشر المكتبة المرتضوية بالنجف سنة ١٣٥٨هـ).
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٢ ص٥٢ (ط ١٣٤٩هـ).

الحبشة ليعرف مدى رغبة النجاشي واستعداده لقبول المهاجرين المسلمين وحمايتهم وليمهد لهم في البلاط الأكسومي. وكان بين أفراد تلك المجموعة التاجر والمتكلم وصاحب النفوذ والخبير بالحبشة وأهلها، فمكثوا هذه المدة القصيرة يفاوضون الملك الحبشي في أمر إخوانهم. وأرسل النجاشي بدوره وفداً حبشياً إلى الرسول ﷺ بمكة قبل أن يأذن للمسلمين بالهجرة. وبعد عودة وفد النجاشي ـ الذي اعتنق أفراده جميعاً الإسلام ـ رحب النجاشي بهجرة المسلمين إليه [١].

فقد روى ابن اسحاق [٢] أنه قدم على رسول الله ﷺ، وهو بمكة، عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، **ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه**، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه، اعترضهم أبو جهل ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا: خيّبكم الله من ركب! بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل (الرسول) فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال. ما نعلم ركباً أحمق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم. لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه. ولما اطمأن الرسول إلى صدق النجاشي، أمر المسلمين بالهجرة إليه، فهاجروا «وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر، حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحداً» [٣].

---

(١) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب: ص ٧٧ ـ ٧٨ (ط سنة ١٩٤٧م).

(٢) السيرة: جـ١ ص٢٦٣.

(٣) الطبري: جـ٢ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

وهاجر إليهم جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون بالحبشة حتى بلغوا اثنين وثمانين رجلاً، وستا وعشرين امرأة، واثني عشر ولداً[١].

فحماهم النجاشي وآواهم وأكرمهم، وعبدوا الله في حرية وأمان[٢].

فخافت قريش أن يسلم النجاشي وشعبه، وتصبح الحبشة ـ عدوة العرب ـ أكبر مناصر للإسلام، فأرسلت سفارة لتثير النجاشي وبطارقته على المهاجرين. لكنها فشلت وعادت خائبة وبقي المهاجرون مكرمين[٣].

وفي السنة السادسة من الهجرة (٦٢٧م) أرسل رسول الله ﷺ عمرو ابن أمية الضمري، إلى النجاشي بشأن جعفر وأصحابه ومعه كتاب يدعوه فيه إلى الإسلام. يقول الطبري[٤]: فرد عليه النجاشي بخطاب جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم» إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشي الأصحم بن أبجر. «سلام الله عليك يا نبي الله ورحمته وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني للإسلام... فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين».

وهكذا دخل الإسلام الحبشة منذئذ، واعتنقه بعض الأحباش ثم أخذ في الذيوع والانتشار، بالرغم من عودة المهاجرين إلى المدينة في فتح خيبر. وزاده شهرة وانتشاراً في الحبشة بخاصة وفي شرقي أفريقية بعامة رحلاتُ التجار المسلمين وهو ما سنناقشه الآن.

(١، ٢) الطبري: المصدر السابق، ص ٣٢٩، ٣٣٠.

(٣) اليعقوبي: جـ٢ ص٢١.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: جـ٢ ص ٦٥٢ ـ ٦٥٣.

رحلات التجار المسلمين إلى شرقي أفريقية

وقد شق الإسلام طريقه إلى سكان الساحل الشرقي لأفريقية بعد ذلك بقليل، فمنذ دانت شبه جزيرة العرب بالإسلام ووحد الرسول ﷺ قبائلها المتحاربة تحت لوائه أصبحت قوافل المسلمين التجارية تسير بين جنوب شبه الجزيرة العربية وشمالها (الشام والعراق) في أمن وسلام، وخصوصاً بعد أن أضحى المسلمون يسيطرون على طرق التجارة. وكانت سفن عرب عُمان. وجنوبي شبه الجزيرة الذين أسلموا في حياة الرسول تجوب المحيط الهندي وخلجانه والبحر الأحمر لتحمل البضائع من المراكز التجارية التي أنشأها التجار والمهاجرون العرب على امتداد الساحل الشرقي لأفريقية وجنوبي آسيا، وتوزعها على أسواق العالم المعروف آنذاك. وكان العرب سادة التجارة والملاحة في المحيط الهندي منذ القرن السادس حتى القرن السادس عشر الميلادي تقوم التجارة العالمية على وساطتهم[١].

وكانت المستوطنات العربية التي أنشأها العرب على امتداد الساحل الشرقي لأفريقية والجزر المواجهة له أسواقاً نافقة يغشاها الأفريقيون من الداخل بقصد التبادل التجاري، كما كان يسكنها كثيرون منهم ومن الفرس أيضاً وقد امتدت قبل الإسلام حتى موزمبيق وجزيرة مدغشقر - كما رأينا[٢] - وكانت أساطيل المسلمين التجارية تتردد عليها بانتظام.

وقد دفع الإسلام بتلك الحركة التجارية دفعاً قوياً، وحمل التاجر المسلم مع سلعته إسلامه الذي هذب خلقه، وصقله على الصدق والأمانة وعدم الغش، مما جعله مثار إعجاب الناس في كل مكان، كما أن طبيعة

---

(١) ادم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ترجمة د. محمد عبد الهادي أبوريدة سنة ١٩٤٠م) جـ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٥.

(٢) في الباب الأول.

عمله جعلت اتصاله بجميع الناس مستمراً دون شك أو ارتياب. ولفت أنظار الناس إليه كثرة وضوئه وصلاته في أوقات منتظمة[1].

وباختلاف التجار المسلمين من العرب وغيرهم إلى تلك المراكز التجارية واختلاطهم بالسكان بل وإقامة بعض المسلمين بها، بدأ الإسلام يظهر هناك، ويتغلغل في سكان شرقي أفريقية بمقدار ما يتغلغل هؤلاء، ويستقر بمقدار ما يستقرون[2] بخاصة وأنهم تزوجوا من افريقيات لعدم وجود نساء معهم، وأعطوا نسباً إلى طبقة الاشراف ذوي الدم العربي، مما ساعد على انتشار الإسلام[3]، وبذلك ظهر الإسلام بشرقي أفريقية منذ وقت مبكر جداً، في النصف الأول من القرن الأول الهجري[4].

ولقد اهتم الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده بالتجارة وعملوا على تنشيطها، وبلغ من عناية الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بالتجارة وحماية متاجر المسلمين وتأمين الطرق التجارية أن أرسل حملة بحرية بقيادة علقمة بن مجزز المدلجي لتأديب القراصنة الأحباش الذين تعرضوا لتجارة المسلمين في البحر الأحمر وتطرفوا طرفاً من بلاد المسلمين. سنة ٢٠هـ أو سنة ٣١هـ، ولكنها لم توفق ونالها الأذى الشديد[5].

ولم يقلل ذلك من أعداد التجار الوافدين على الحبشة، بل كثر توافد التجار المسلمين عليها، وأسهموا بنشاط كبير في التجارة الشرقية بين مصر والهند والصين. وكانت بعض المدن الحبشية ـ مثل عدل ومكانها الحالي

---

(١) ارنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص٣٨٦، ٣٩١، ٤٦٧.

(٢) زيلغ، مقال زاهر رياض السابق بمجلة نهضة أفريقية (١/ ١١) سبتمبر سنة ١٩٥٨م Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 60 and 138.

(٣) Ibid, P. 33 and Harries: Islam in East Africa, P. 1.

(٤) جامع عمر عيسى: تاريخ الصومال في العصور الوسطى والحديثة: ص١٣ (ط أولى).

(٥) الطبري: ج ٤ ص١١٢، والكامل في التاريخ: ج٢: ص٣٩٨.

ميناء زولا جنوبي مصوع - مراكز تجارية هامة، بحكم ما لها من موقع متوسط بين بلاد جنوبي آسيا وشرقيها وشرقي أفريقية وبلاد البحر الأحمر بخاصة مصر من ناحية أخرى. وفي هذا الميناء بالذات كان يجتمع كثيرون من التجار العرب والهنود وغيرهم ممن يقومون بعمليات التبادل التجاري، هذا فضلاً عن أن ميناء عدل كان يقع على طريق التجارة البري الذي يربط داخل بلاد الحبشة بشاطىء البحر الأحمر، وهو طريق دائري يبدأ من عدل، ويمر بعدوة وأكسوم وأسمرة. ثم ينتهي من حيث يبدأ في عدل وتقطعه القوافل في بضعة أيام[١].

ولقد استطاع التجار المسلمون بنشاطهم التجاري الجم أن يتحكموا في ميناء عدل أو عدول أو عدوليس (Adulis) وهو ثغر الحبشة، فأدى ذلك إلى حرمان الحبشة منه وإلى قطع صلاتها بالعالم الخارجي إلا عن طريقهم مما قلل أعداد التجار الأجانب من غير العرب بدولة أكسوم، فضعف العنصر الإغريقي وزالت اللغة الإغريقية التي كانت لغة الثقافة بالعاصمة، وذبلت بزوالها الحضارة الهيلينية، كما تركت دراسة الآداب القديمة وقل بناء الكنائس، وفي تلك الأثناء اقترن هذا التدهور بضعف السلطة المركزية ومنافسة الحكام المحليين بعضهم لبعض على حساب جيرانهم. هذا وقد ضعف أمر العقيدة المسيحية نفسها بارتداد كثيرين من سكان المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية عن المسيحية إلى الوثنية القديمة[٢].

وتعرضت الحبشة، لأخطار جسام، فعاث البَجَّةُ(*) في السهول بين

---

(١) بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، بحث للدكتور سعيد عاشور، مستخرج من المجلة التاريخية المصرية - العدد الرابع عشر ٦٦/ ١٩٦٧م: ص ٣ - ٤.

(٢) Budge: A History of Ethiopia, Vol, 1. P. 274. and Trimingham Islam in Ethiopia, PP. 19, 47 — 48.

(*) هكذا سماهم ابن حوقل: ص٥٩، والمسعودي جـ٢ ص١٩ والمقريزي في الخطط جـ١ =

الهضبة والبحر، وقطعوا الطرق وأغاروا على المدن، وعطلوا حركة البلاد الاقتصادية، كما عرضت هجرات اليهود منذ سنة ٦٤٠م وثورات الوثنيين، الأحباش لمتاعب جمة، وفي تلك الفترة التي انحطت فيها مملكة أكسوم تدفق التيار الإسلامي صحبة التجار والمهاجرين المسلمين على مدن الحبشة الساحلية(١). وتصاهروا مع الأحباش.

ولقد عملت الدولة الأموية على تنمية موارد الدولة الإسلامية، وتنشيط التجارة وحماية متاجر المسلمين وتأمين التجار على أرواحهم وما يحملونه من متاجر، ومع ذلك تعرض القراصنة الأحباش لتجارة المسلمين في البحر الأحمر، ونهبوا ميناء جدة واستباحوها مما نشر الفزع والرعب بين سكان مكة سنة ٨٣ هـ (٧٠٢ م)، فأرسل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان جيشاً، فاحتل مجموعة جزر الدهلك مأوى هؤلاء القراصنة في نفس السنة(٢)، مما أمن التجار وعمل على رواج التجارة وازدهارها. ونفذ التجار المسلمون إلى داخل الحبشة عن طريق دهلك(*) وميناء مصوع، واختلطوا بالسكان ودعوهم إلى الإسلام(٣).

ومخرت سفن المسلمين عباب المحيط الهندي إلى زنجبار وموانىء شرقي افريقية للحصول على العاج والذهب والنحاس والتوابل، وطاب لبعضهم المقام هناك. وما ان قامت الخلافة العباسية في سنة (١٣٢هـ

= ص٣١٨، وقال العمري وأبو الفدا والقلقشندي «البُجَا» جـ٥ ص٢٧٣، وابن بطوطة ص٢٤٤، وابن جبير ص٤٨ «البُجَاه»، وياقوت «بُجَاه» المجلد الخامس ص١٦٥ (ط١٣٢٤هـ).

(١) Budge: Ibid, P. 274. and Trimingham: Ibid, PP. 47-8, 61-2, 138.

(*) «كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها» ياقوت: معجم البلدان: المجلد الرابع: ص١١٤ (ط١٣٢٤هـ سنة ١٩٠٦م).

(٢) طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى ص: ٣٠.

(٣) Trimingham: Op. Cit: PP. 33,61.

/٧٤٩ - ٧٥٠م) حتى غلب المسلمون على جزيرة مدغشقر واستقروا بها، قال المسعودي: «جزيرة قنبلو، وهي جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين إلا أن لغتهم زنجية غلبوا على هذه الجزيرة... وذلك في مبدأ الدولة العباسية»[١].

وعملت الخلافة العباسية أيضاً على ازدهار التجارة، وتأمين طرقها، فأرسل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور جيشاً لتفريق شمل القراصنة الأحباش الذين هجموا على ثغر جدة سنة (١٥٣هـ/ ٧٧٠م) بالرغم من احتلال المسلمين لجزر الدهلك[٢]. بل ان هارون الرشيد أحب أن يشق قناة مكان قناة السويس الحالية - وهو ما فكر فيه عمرو بن العاص من قبل - ليصل البحرين تيسيراً للتجارة واختصاراً لطرقها، لكنه صرف عن ذلك خشية أن تمكن تلك القناة قوات بيزنطة من الإغارة على الحرمين واختطاف الحجاج المسلمين وهو نفس السبب الذي صرف عمرا - من قبل - عن تنفيذ مشروعه[٣].

وتقدمت الحضارة وازدهرت في الدولة الإسلامية في عهد العباسيين، وعم الناس الرخاء، وفاض على الدولة الإسلامية خيرات الفتوح، وألح الخلفاء والأمراء والأغنياء في طلب ما ينقصهم من أدوات الترف ووسائل النعيم فراجت التجارة الإسلامية رواجاً منقطع النظير بين الخليج العربي والهند والصين وشرقي أفريقية، وبعثت من جديد الطرق التجارية الممتدة من البحر الأحمر[٤]. ونشطت المراكز التجارية في شرقي أفريقية، وازدحمت بالمسلمين النازلين فيها والمتخلفين هناك، وكثرت سفنهم ببلاد سفالة

---

(١) مروج الذهب: جـ١ ص٩٨.
(٢) طرخان: المرجع السابق: ص٣٠.
(٣) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي: ص٢٣٥.
(٤) حوراني: المرجع السابق: ص ١٧٤.

وجزيرة مدغشقر واستقر كثيرون منهم بتلك المراكز التجارية وبجزر شرقي أفريقيا، وتوغّل كثير منهم في الداخل حتى وصلوا مناطق استخراج الذهب بشمال روديسيا، وحملوا المصنوعات الحديدية من زمبابوي وغيرها - في أعماق القارة - على الدواب عبر روديسيا (الحالية)، لتحملها مراكبهم الى البلاد البعيدة، وذلك منذ القرن الثامن الميلادي[١].

وتردد المسلمون على المراكز التجارية المنتشرة بشرقي أفريقية، واستقر بعضهم بين الأفريقيين، فاعتنق كثير من هؤلاء الإسلام منذ القرن الثامن الميلادي[٢].

وانقسمت الدولة الإسلامية - منذ العصر العباسي الثاني بصفة خاصة - إلى دويلات مستقلة، تحكمها بيوت مالكة، تبارت فيما بينها في شتى النواحي، فنشطت الحركة التجارية نشاطاً لا حد له، لتسد مطالب تلك البيوت المالكة وكلهم أسرف في الترف، وكلهم ألح في طلب وسائله. وتهافتت القصور على منتجات شرقي أفريقية والحبشة من العاج والتوابل وجوز الهند والعنبر والذهب وغير ذلك[٣].

وقلد الأمراء والوزراء والأغنياء حياة الملوك، فنشط التجار وكثر عددهم وتوافدوا على شرقي أفريقية جماعات جماعات، فقد أصبحت التجارة طريق الغنى والثراء. وكان كثير منهم يتخلفون ويعيشون بين الأفريقيين[٤].

وبلغت التجارة الإسلامية أوج ازدهارها في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وتدفق على شرقي أفريقية أفواج من التجار المسلمين،

(١، ٢) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي: ص ٢٣١ - ٢٣٢،

Becker: Islam Studien, 11, P. 170.

(٣، ٤) زاهر رياض: الإسلام في اثيوبيا: ص ١٠٠ - ١٠٢،

E. Ullendorff: The Ethiopians, P.114 (Oxford 1960)

ليحملوا ما كان غنياً به من صنوف المتاجر وخصوصاً الذهب والعاج والتوابل التي ألحت في طلبها القصور.

وكان يحلو لكثير من هؤلاء التجار المسلمين أن يستقروا في الحبشة وشرقي أفريقية حيث الخصب والثراء العريض وبلغ من كثرتهم أن كونوا مدناً كبيرة بها حتى قال اليعقوبي (ت بعد سنة ٢٩٢هـ): «ولم تزل العرب تأتي إليها (الحبشة) للتجارات، ولهم مدن عظام وساحلهم دهلك»[١].

بل ذكر بزرك بن شهريار: أن ملك سفالة[*] نشر الإسلام بين رعيته، فاعتنقوه تأسياً به، وفتح بلاده للتجار المسلمين قائلاً لهم: أنتم السبب في صلاح ديني، وأنا اليوم فرح مسرور لما مَنَّ الله عليَّ به وعلى أهل دولتي من الإسلام... فعرفوا المسلمين أن يأتونا فإنا نحن قد صرنا إخواناً لهم مسلمين مثلهم[٢].

ولم يقتصر الأمر على رحلة تجار العرب والفرس إلى تلك الانحاء في تجارة منتظمة، فقد تبعهم مهاجرون من العرب والفرس منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) حتى إذا جاء القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وجدنا المسلمين من العرب والفرس قد كونوا ممالك وإمارات وسلطنات إسلامية من عيذاب شمالاً إلى سفالة ومدغشقر جنوباً، يحكمها مسلمون من العرب أو الفرس أو السواحليين[٣]. واشتغل هؤلاء وأولئك

---

(١) تاريخ اليعقوبي: جـ ٣ ص ٢١٨.

(*) قال صاحب القانون: سفالة قاعدة الزنج وأهلها مسلمون نقلاً عن صبح الأعشى جـ ٥ ص٣٣٧.

(٢) كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزايره (طـ ليدن سنة ١٨٨٦م) ص ٥٩ - ٦٠.

(٣) استقرار العرب في شرق أفريقية، بحث للدكتور جمال زكريا بحوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر) ص ٢٩١ ومحيى الدين الزنجباري: السلوى في أخبار كلوة، نشرها Arthor Strong in (J. R. A. S) 1985 PP. 411-91 and Coupland: East Africa, PP. 25-29. and Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 33-39.

بالتجارة وازدهرت على أيديهم أيّما ازدهار، وأصبح التاجر الغني [(في القرن الرابع الهجري) (العاشر الميلادي)] ممثل الحضارة الإسلامية[1] وكانت التجارة بالنسبة لهم تمثل الأسلوب الوحيد للكسب والحياة، فسيطروا على الحياة الاقتصادية فيها، وأثروا ثراء واسعاً، وقبضوا على زمام الحركة التجارية في المحيط الهندي وخلجانه والبحر الأحمر؛ إذ أصبحت جميع الموانىء تقريباً، في أيديهم وتحت سلطانهم، بل سيطروا على الطرق البرية الرئيسية التي تربط الداخل بالساحل «وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية[2]»، ومن هؤلاء التجار الذين قاموا بدور بارز في التجارة ونشر الإسلام ـ التجار الكارمية الذين اتضح كيانهم التجاري في عصر الدولة الفاطمية[3].

وقد امتزج التجار والمهاجرون المسلمون بالقبائل الأفريقية، وتزوجوا منهم لعدم وجود نساء معهم، وعملوا جادين على نشر الإسلام وثقافته بينهم. فانتشر الإسلام في تلك الأنحاء، وكتاب القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يجمعون على ظهور تلك المدن زاخرة بالحياة الإسلامية[4].

وكلام المسعودي[5] ـ وقد رحل إلى شرق أفريقية مرات بنفسه آخرها في سنة ٣٠٤هـ ـ يؤكد سيطرة العرب والفرس المسلمين على التجارة في

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة) جـ ٢ ص ٢٧١.
(٢) آدم ميتز: المرجع السابق: جـ ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: جـ ٣ ص ٥٢٤.
(٤) انظر المسعودي: مروج الذهب: جـ ٢ ص ١٨، وابن حوقل: صورة الأرض: ص ٤٨ وما بعدها.
(٥) المسعودي: مروج الذهب: جـ ٢ ص ٦

المحيط الهندي وأنهم كانوا يحملون التجارة من افريقية إلى الهند والصين، ويقومون بالوساطة التجارية بين دول العالم المعروف آنئذ.

يقول: «والفيلة في بلاد الزنج في غاية الكثرة...

يقتلونها لأخذ أنيابها...

فيجهز الأكثر منها من بلاد عُمان إلى أرض الصين والهند، وذلك أنها تحمل من بلاد الزنج إلى عُمان ومن عُمان إلى حيث ذكرنا»[1].

بل يؤكد المسعودي أن العرب والفرس وصلوا إلى سفالة في أقصى جنوب شرقي افريقية، بل أبعد من ذلك يقول: «بلاد سفالة وهي أقاصي بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين»[2]، وعقدت معاهدة بين الحطّي عندئذ والصاحب الحرملي نشطت على أثرها التجارة العربية الإسلامية، يقول المسعودي: «وصاحب زبيد (اليمن) في وقتنا هذا (٩٠١-٩٠٢م) إبراهيم بن زياد صاحب الحرملي، ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة، وتركب فيها التجار بالأمتعة وبينهم مهادنة»[3].

وأصبحت أوطان البجة منفذاً للتأثير العربي والدين الإسلامي إلى أرترية وشمال الحبشة في الجنوب وإلى النوبة في الشمال والشرق[4].

يقول ابن حوقل: «فالبجة بلدهم بين النيل والبحر، ويصل إليهم التجار بالصوف والقطن والحيوان من الرقيق والابل، فيكون غاية ما يقطعونه من بلدهم ويمكنهم التصرف فيه نواحي قلعيب[*]. وهي مواضع ذات مياه في أودية متصلة بجبل يعرف بملاحيب، وأكبر أودية وادي بركة،

(١، ٢) المرجع السابق: جـ ٢ ص ٦ وانظر قضية ومناقشتها ص ٧٦.

(٣) المرجع السابق: جـ ١ ص ٩٨.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة: ص ٢٤٥ و Trimingham, Islam in Ethiopia, P. 33

(*) قال ياقوت: «قلعيب» موضع كثير المياه المجلد السابع ص ١٥١.

والذي بين وادي بركة وجبالها المدعو ملاحيب راجع إلى الإسلام»[1].

وربما لم يكن الإسلام قد تمكن من نفوسهم في بداية الأمر، إذ يقول ابن حوقل عنهم: «والبجة مسلمون بالإسم»[2] وابن جبير يقول «وهذه الفرقة (البجاة) أضل من الأنعام سبيلاً وأقل عقولاً لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضي ولا يحل»[3] وبلغ من كثرة المسلمين المهاجرين إلى أوطان البجة وزيادة نشاطهم التجاري أن امتلكوا الموارد الاقتصادية، واستولوا على مصادر الثروة لدى البجة وبصفة خاصة معدن الذهب، «وهو معدن تبر لا فضة فيه، وهو بأيدي ربيعة وهم أهله خاصة»[4].

وكان أهل عيذاب[*] المسلمون يأخذون مكساً على حجاج المغرب الذين يعبرون البحر إلى جدة[5]، وأصبح «أهل عيذاب يتجولون في كل النواحي من أرض البجة يشترون ويبيعون ويجلبون ما هناك من السمن والعسل واللبن»[6].

وساهمت القبائل الأفريقية في تلك التجارة، وساعدت على ازدهارها، فقد كان الرؤساء وزعماء القبائل وأبناء البلاد الأصليون. يأتون إلى المدن التجارية المنتشرة بالعاج والذهب والرقيق وحاصلاتهم

---

(١) صورة الأرض: ص ٥٩، ٦٠.

(٢) المرجع السابق: ص ٦٠.

(٣) الرحلة (ط بيروت سنة ١٩٥٩ م) ص ٤٨.

(٤) ابن حوقل: المرجع السابق ص ٥٥.

(*) قال ياقوت «عيذاب» بُليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد، المجلد السادس ص ٢٤٦.

(٥) الأدريسي ،صفة المغرب وأرض السودان والأندلس (مأخوذ عن نزهة المشتاق) ص ١٠٤.

(٦) الادريسي: المرجع السابق: ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

الأخرى[١]، حيث يقايضون التجار العرب المتعاملين معهم بما يحملونه، «إذ كان يسرق بعضهم بعضهم أبناء بعض، ويبيعونهم من التجار»[٢] كما كان يقصدها بعض أبناء البلاد للإقامة والتماس فرص العمل، فكان اختلافهم إلى تلك المدن يتيح لهم الاحتكاك بالحياة الإسلامية عن كثب، ويطلعهم على ذلك الينبوع الروحي المليء بالقوة المتدفق بالحياة، مما يدفعهم إلى اعتناق الإسلام ونشره بين أهلهم وذويهم إذا عادوا إلى بلادهم[٣].

وقد لقي هؤلاء التجار المسلمون من عناية الأباطرة والملوك ما يسر لهم الحصول على ما يريدون وتصريف ما معهم، فقد كان في زيلع موظف كبير للإشراف على التجارة يسمى «نجادي[*] رأس» ينظم أمورها، ويزود قوافلها بالأدلاء والحراس، وينظم التعامل بين المسلمين والمسيحيين، ويشرف على الأعمال التجارية وجباية الضرائب والمكوس ويحملها إلى الحكومة المركزية[٤].

وقد وجد هؤلاء التجار المسلمون ترحيباً حاراً في بلاط رؤساء الجالا، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة... ولما كان هؤلاء التجار يرحلون إلى الساحل مرة كل عام أو كل عامين، ويقضون ما بقي من الوقت بين الجالا كانت لديهم فرص كثيرة أجادوا استغلالها لتحويل الناس إلى الإسلام «وحيثما وضعوا أقدامهم كان من المؤكد أن يظفروا بعدد كبير من الداخلين في الإسلام في مدة قصيرة من الزمن»[٥].

---

(١) الإدريسي: المرجع السابق: ص ٢٥، ٢٦.
(٢) الإدريسي: المرجع السابق ص ٢٦ هكذا في الأصل.
(٣) انظر مجلة نهضة أفريقية ١/١١ سبتمبر سنة ١٩٥٨ مقال لزاهر رياض (زيلع).
(*) أي الرأس المشرف على التجارة.
(٤) المرجع السابق (زيلع).
(٥) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٨٦.

مناقشة: «تاريخ وصول المسلمين إلى سفالة»

ذكر مسيو جيان: أن سكان مقديشو كانوا أول من وصل إلى سفالة واستخرج الذهب منها، وأنهم عثروا عليها مصادفة اثر هياج البحر وإلقائه بسفنهم على ساحلها. وذكر أن أهل كلوة المسلمين اهتدوا إلى سفالة بالمصادفة أيضاً. وأن العرب المسلمين استقروا بها فيما بين سنتي خمسمائة وعشرة، وخمسمائة وعشرين من الهجرة[١].

وذكر الدكتور جمال زكريا قاسم، أن أهل كلوة هم أول من اهتدى لسفالة مصادفة، وذلك بعد سنة خمسمائة من الهجرة[٢].

ولكن العرب بصفة خاصة وصلوا موزمبيق وجزيرة مدغشقر قبل الإسلام بمئات السنين، فقد عثر المنقبون ـ في شمال جزيرة مدغشقر ـ على عملة من العملات التي استعملت في عهد قسطنطين الأول في مطالع القرن الرابع الميلادي[٣]. والمسعودي ـ الذي زار شرق أفريقية في القرن الثالث الهجري عدة مرات آخرها سنة ٣٠٤هـ مع التجار المسلمين وعلى مراكبهم ـ يؤكد أن العرب والفرس أيضاً كانوا إذ ذاك قابضين على زمام الملاحة والتجارة في المحيط الهندي؛ إذ يقول: «وينتهي هؤلاء (أرباب المراكب من العُمانيين) في بحر الزنج (المحيط الهندي) إلى جزيرة قنبلو ـ على ما ذكرنا ـ وإلى سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج والأسافل من بحرهم ويقطع هذا البحر السيرافيون»[٤].

---

(١) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية (ترجمة وتلخيص يوسف كمال) ص ٨٥ ـ ٨٦، ص ٨٨ و ٩٤.

(٢) استقرار العرب بساحل شرق أفريقية، بحث للدكتور جمال زكريا قاسم، نشره بحوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر) ص ٢٨٩.

(٣) دافدسن :افريقية تحت أضواء جديدة ص ٢٤٤ (مترجم).

(٤) مروج الذهب: جـ ١ ص ١٠٨.

بل انِ المسلمين قد غلبوا على جزيرة قنبلو تلك، واستقروا بها، منذ سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٨م تقريباً، إذ يقول المسعودي: «جزيرة قنبلوا، وهي جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين إلا أن لغتهم زنجية، غلبوا على هذه الجزيرة.. وذلك في مبدأ الدولة العباسية وتقضي الدولة الأموية»[١].

فلم يجعل المسعودي من ذلك التاريخ بداية لمعرفة المسلمين بتلك الجهات، بل بداية قهر واستيلاء عليها، ولا بد أنهم كانوا من الكثرة بحيث سيطروا عليها.

وقد ذكر بزورك بن شهريار الرامهرمزي: أن التجار العرب والفرس كانوا يذهبون إلى «قنبالو» للحصول على صنوف المتاجر، وأنهم أسروا ملك سفالة وباعوه رقيقاً في عُمان فأسلم في البصرة، وعاد فنشر الإسلام بين رعيته، وذلك في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)[٢].

مناقشة: «بداية دخول الإسلام جزيرة مدغشقر» (قنبلو)

دخل الإسلام جزيرة مدغشقر منذ القرن الأول الهجري ـ تقريباً ـ صحبة التجار المسلمين، فقد كان العرب يترددون عليها للاتجار مع أهلها قبل الإسلام[*] بمئات السنين ـ كما رأينا[٣]، وذكر المسعودي[٤] أن المسلمين قد استولوا عليها في بداية الخلافة العباسية وهو ما يتفق مع هجرة الشيعة الزيدية سنة ١٢٢هـ عقب هزيمتهم في موقعة الكوفة أي أنهم نزلوا قبلُ بمنطقة ما من الساحل ثم هاجر بعضهم إليها حول سنة ١٣٢هـ فالراجح

---

(١) نفس المصدر، والجزء: ص ٩٨

(٢) كتاب عجائب الهند: بره وبحره وجزايره (طـ ليدن سنة ١٨٨٦م) ص ٥٠ ـ ٦٠.

(*) وقد ذكر المقريزي: أن بعض العلويين نزلوا بست جزر في المحيط الهندي في أول الإسلام خوفاً على أنفسهم من القتل، الخطط المقريزية جـ ١ ص ٢٥.

(٣) في القضية السابقة «وصول المسلمين لسفالة».

(٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٩٨.

أن جزيرة قنبلو التي عناها المسعودي هي جزيرة مدغشقر؛ لأن المسعودي[1] وبزورك[2] لم يذكرا سواها لكبرها وأهميتها، بالرغم من أنهما ذكرا: أن في مواجهة الساحل كثيراً من الجزر القريبة منه والبعيدة عنه، وليست المسافة ـ التي ذكرها المسعودي عن الساحل بيوم أو بيومين، أو لبعدها عن عُمان بخمسمائة فرسخ ـ تجعلها سواها؛ لأن المسعودي ذكر أن هذه المسافة ليست مؤكدة أو محددة؛ إذ يبدو أن الملاحين العرب والفرس حينذاك كانوا يسلكون إليها طريقاً مباشراً في المحيط الهندي، بدليل أن المسعودي[3] يقول:

«وآخر مرة ركبت فيه (المحيط الهندي) في سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عُمان».

ومما يؤكد أنها مدغشقر أن جغرافيي[4] العرب يجعلونها كبرى جزر القمر، وأن أبا عبدالله شمس الدين الدمشقي سمى مدغشقر جزيرة قنبالو، [5] وأهم من ذلك أن ما ذكره ابن سعيد من تفصيلات دقيقة كثيرة لوصفها ينطبق على جزيرة مدغشقر، وقد ذكر أنها تحت حكم المسلمين، كما يستدل من المخطوطات التي جمعها (فران: Frand) أن العرب اختلطوا بإحدى القبائل في مدغشقر، وتكون منهم شعب الانتيمورونا، والذي عرف الكتابة العربية بعد أن اعتنق الإسلام، وأيضاً وجود كلمات عربية كثيرة في لغات أهلها وانتشار الإسلام بينهم[6]، وأهم من ذلك كله ما

(١) نفس المكان.
(٢) كتاب عجائب الهند ص ٥٠ ـ ٥١
(٣) مروج الذهب جـ ١ ص ١٠٨.
(٤) المسعودي: المرجع السابق، والإدريسي: نزهة المشتاق، وابن سعيد كتاب الفوائد: أماكن متفرقة.
(٥) معجم البلدان: المجلد السابع «قنبالو».
(٦) كتاب الفوائد، نقلاً عن جيان، الوثائق ص ١٦٢، وعن جمال زكريا، في بحث له بعنوان «المصادر العربية لتاريخ شرق أفريقية» نشره بالمجلة التاريخية المصرية (المجلد الرابع عشر) سنة ١٩٦٨م.

أثبته البحث الأثري بها من وجود عملة من العملات التي استعملت في عهد قسطنطين الأول في مطالع القرن الرابع الميلادي[١].

وقد ذكر هذا الرأي - من قبلي د. جورج فضلو حـوراني[٢]، ود. جمال زكريا[٣] وغيرهما من الباحثين.

وقد رجح مسيو جان[٤]، وتابعته السيدة هيام[٥] عبد الرحمن، أن تكون جزيرة قنبلوا تلك هي جزيرة انجزيجه كبرى جزر القمر، واحتجا بالمسافة التي ذكرها المسعودي لبعدها عن الساحل وعن عُمان، وهو ما فندته فيما سبق.

وهكذا رحل التجار وتبعهم مهاجرون مسلمون دفعتهم عوامل عدة وهو ما سنناقشه في الفصل الثاني.

---

(١) بازل دافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة ص ٢٤٤.
(٢) العرب والملاحة في المحيط الهندي (مترجم) ص ٢٣١.
(٣) استقرار العرب بساحل شرق أفريقية، بحث بحوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر) ص ٣٠٣.
(٤) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية ص ١٦١ وما بعدها.
(٥) شرق أفريقية عند الكتاب العرب، ص ١٩٩ وما بعدها.



الفصل الثاني

هجرات المسلمين إلى شرق أفريقية واستقرارهم هناك ...



وحد الرسول ﷺ قبائل شبه جزيرة العرب - المتفرقة المتحاربة - تحت راية الإسلام، وأوجد بينهم رابطة العقيدة لتجمعهم على الحب في الله والتآخي في الإسلام، وأصبح العرب في شبه الجزيرة أمة واحدة متحدة، تتفيأ ظلال الأمن، وتستنشق عبير السلام في ظل حكم الرسول ﷺ وبتوجيه ما جاء به الإسلام من مبادىء خالدة ومثل عليا.

لكن! بعد وفاة الرسول ﷺ جد من الأحداث السياسية والكوارث الاقتصادية (كعام الرمادة في عهد عمر بن الخطاب) ما دفع بعض المسلمين إلى الهجرة إلى شرقي أفريقية، حيث الخير عميم والحياة أمان.

وباستيلاء الأمويين على منصب الخلافة جد من العوامل ما دفع بالهجرة العربية الإسلامية دفعاً قوياً، فبعد أن كانت هجرات محدودة في أعداد قليلة حين تحل بقبيلة ضائقة أو ينزل بها خطب، أضحت هجرات جماعات كبيرة وعلى فترات متوالية، لتعدد أسباب الهجرة وتعقدها وشمولها، فباتت الحروب الأسرية على الحكم أو الطائفية لاختلاف المذهب تقطع أوصال الأمة الإسلامية وتجبر المغلوب على الفرار من أسر الغالب، لكن الأمويين قبضوا على الحكم بيد من حديد، وأنزلوا بمخالفيهم أقسى عذاب وأشد تنكيل، حتى آل النبوة مما أثار حفيظة المسلمين عليهم،

فتعددت الثورات في وجوههم وعنفت، ولكنهم كانوا يقابلونها بشدة وقسوة، مما دفع كثيرين إلى الهجرة والفرار. ولما كانت الدولة الإسلامية تسيطر على شبه جزيرة العرب والشام والعراق وفارس وشمال أفريقية أيضاً لم يكن أمام هؤلاء الفارين إلا شرقي أفريقية، فكانوا يولون وجوههم شطره، بخاصة الحبشة التي وجد المهاجرون الأول في حمى ملكها وتسامح وكرم أهلها ما لم يكن خبره يخفى عنهم، فهاجروا إليها إلى حيث يجدون هناك مأوى آمناً وعيشاً رغيداً، وحيث يعيش إخوان لهم هناك يجدون منهم كل عون وترحيب، وفي حماهم الأمان والسلام والاستقرار، وحتى يصبحوا بعيدين عن سطوة الخلافة وسلطان الحكام، يتفيئون ظلال الأمان، وترفرف عليهم راية الحرية، ويشتغلون فيما يعمل فيه السكان دونما ضغط أو اضطهاد[1].

احتلال المسلمين لأرخبيل الدهلك في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان:

عنيت الدولة الإسلامية بتتبع الفارين منها والمناوئين لها إلى حيث استقروا خشية أن يبذلوا العون لمن بقي من إخوانهم، فاستولت على مجموعة جزر الدهلك المواجهة لميناء مصوع، والتي كانت مركزاً لتجارة مزدهرة ـ بخاصة تجارة التوابل ـ وصاحبة الأسطول التجاري الذي تغنى به مؤرخو العرب، وذلك في عهد عبد الملك بن مروان سنة ٨٣ هـ (٧٠٢ م)[2]. ومن العوامل التي دفعت الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى احتلالها أيضاً، أن القراصنة الأحباش كانوا قد عاودوا

(١) الطبري: جـ ٤ و ٥ والكامل لابن الأثير جـ ٢ و٣ والتنبيه والأشراف: متفرقات.

(٢) استقرار العرب في شرق أفريقية، بحث للدكتور جمال زكريا قاسم، نشره بحوليات آداب عين شمس المجلد العاشر: ص ٢٨٤، وزيلع، مقال للدكتور زاهر رياض نشره بمجلة نهضة افريقية ١/١١ سبتمبر سنة ١٩٥٨ ووثائق جيان: ص ٧٦ و

Trimingham: Islam in Ethiopia, p. 138.

سطوهم وتعديهم على تجارة المسلمين في البحر الأحمر، واستغلوا فرصة الاضطرابات التي شغلت الخليفة في تلك الأثناء، فاعتدوا على ميناء جدة، واستباحوها، وأثاروا الرعب والفزع في قلوب سكان مكة، وكانوا يتخذون من تلك الجزر مأوى لهم(١).

ويتكون أرخبيل الدهلك من مجموعة كبيرة من الجزر أهمها: دَهَل، وحَرات، وكَبارِي، ودَرَكَة، ونَوْرَة، ونَقْرَة، وكَمَران، أكبرها(٢). ويعتبر استيلاء الجيش الإسلامي عليها أول فتح رسمي لبعض المناطق الإستراتيجية في الشرق الأفريقي وصارت رأس الجسر الذي عبر عليه الإسلام وثقافته إلى شرقي أفريقية، كما اتخذها الخلفاء منفى للمغضوب عليهم في بعض الأوقات(٣).

وظلت سيادة المسلمين على هذا الموقع الإستراتيجي طوال العصر الأموي وشطراً من العصر العباسي حتى عهد الخليفة المأمون، فقد تعرضت هذه الجزر لغارات الهند في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وذلك بسبب نفي بني عبد الجبار حاكم خراسان ـ من قبل المنصور ـ إلى دهلك سنة ١٤١هـ(٤). كما وجدت نقوش عربية بتلك الجزر يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثالث الهجري(٥) وبالرغم من احتلال المسلمين لها، فقد هجم القراصنة الأحباش على جدة وأطراف بلاد المسلمين عدة مرات، منها هجومهم على جدة سنة ١٥٣هـ/ سنة ٧٧٠م، فأرسل الخليفة أبو جعفر المنصور جيشاً لتفريق شملهم(٦).

---

(١) زيلع، مقال الدكتور زاهر رياض السابق: ص ٦٦ ـ ٦٧، Ibid PP. 61-62

(٢) المقريزي: الالمام: ص ٢٢، وطرخان، الاسلام والمسلمون في الحبشة ص ٣٠.

(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٥٠٩

(٤) نفس المكان.

(٥) د. حسن محمود، الاسلام والثقافة العربية في أفريقية ص ٣٩١.

(٦) القنائي: الجواهر الحسان: ص ١٥.

ويبدو أن سلطة الدولة الإسلامية انسحبت بعد ذلك من تلك الجزر، ولكنها تركت جالية من المسلمين من أهل البلاد، وترك الإسلام ليتسرب إلى البلاد تسرباً سلمياً في ركاب التجار والمهاجرين المسلمين[(١)].

وأول من هاجر إلى شرقي أفريقية جماعة من أهل الشام لم يرضوا عن سياسة الحجاج بن يوسف الثقفي، فرحلوا سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م إلى الجنوب في أعداد كبيرة، مولين وجوههم شطر الساحل الشرقي لافريقية، ولما وصلوه اقتحموا ميناء (ديوني) وأخضعوا سكانه الأصليين. وكان به جالية تزيد على عشرة آلاف من الرجال المسلمين؛ إذ ان الإسلام، قد وصل المراكز التجارية التي أنشأها العرب بشرقي أفريقية عقب ظهروه في ركاب التجار المسلمين[(٢)].

وذكر صاحب (خبر لامو). أن عبد الملك بن مروان (٦٨٤ - ٧٠٥م) أرسل جماعة من أهل الشام، استعمروا (لامو وباته ومالنده وزنجبار ومنبسي وكلوة)[(٣)] ولكن المراجع العربية لم تشر إلى تبعية تلك المناطق رسمياً للدولة الإسلامية.

وكان المذهب الإباضي قد انتشر في عُمان، وصارت أهم معاقله، لاعتناق معظم سكانها اياه، ولذا اشتهرت عُمان بالثورات الأباضية ضد الحكمين الأموي والعباسي[(٤)].

---

(١) د. حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقية: ص ٣٩١.

(٢) شيبو فرج بن حمد الباقري: خبر لامو، ترجمة هتشنز، نقلاً عن د. حسن محمود المرجع السابق، ص ٣٩٨. ويذكر الدكتور حسن محمود، أن الهجرة تمت سنة ٦٩٥م، وكذلك كوبلاند ص ٢٢، ويحددها الدكتور عبد الرحمن زكي بين سنتي ٧٠٠ و ٧٠٤ في كتابه: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقية ص ٧٧.

(٣) نفس المكان، .Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 61

(٤) جمال زكريا قاسم: دولة بو سعيد في عُمان وشرق أفريقية، ص ٨، والإباضيون، من =

وأهم تلك الثورات، تلك التي قامت بها عُمان في وجه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بزعامة سليمان وسعيد بني عباد الجلندي، وهما من أزد عمان فسير إليهما الخليفة جيشاً ظل يقاتلهما حتى غلبهما وأتباعهما، فاضطرا إلى الفرار والهجرة سنة ٦٥هـ/٦٨٤م[١] إلى بلاد الزنج للخلاص بحياة رجالهما، فهاموا في جمع أسراتهم وقبائلهم، تاركين موطنهم الأصلي، وأبحروا إلى شرقي أفريقية. ولا يعلم المكان الذي نزلوه بالتحديد، لكن يحتمل أن يكون جزيرة (باته) في أرخبيل (لامو). ويقال إنهم نزلوا في موقع مدينة (حدبو) التي أسسوها شمال مدينة (منبسي)[*][٢].

وذكرت دائرة المعارف الإسلامية، أن باته أسست سنة ٦٩هـ/ ٦٨٩م بحسب تواتر الأخبار[٣].

وكثرت حروب عبد الملك بن مروان ضد مخالفيه، فكثرت الهجرات العربية الإسلامية إلى شرقي أفريقية في عهده، وأسست مدناً على الساحل مثل: مالينده وزنجبار ومنبسي ولامو وكلوة وباته[٤].

= الخوارج الذين يعتقدون أن الامامة حق لجميع المسلمين متى توافرت في الامام الشروط، وأن من حقهم عزل الإمام أو الثورة عليه إذا ساءت أموره أو فقد مكانته بين جماعة المسلمين.

(١) شيبو فرج بن حمد الباقري: خبر لامو، نقلاً عن جمال قاسم: المرجع السابق ص ١٤.

(*) سماها ياقوت «منبسة» وقال انها «مدينة كبيرة بأرض الزنج ترفأ إليها المراكب» المجلد الثامن ص ١٧١ وكتبها ابن بطوطة «منبسى» الرحلة ص ٢٤٤ وكان اسمها العربي (بساسة) وهو كنية مكة المكرمة، لأن مؤسسيها وفدوا من أقليم الحجاز وعرفت عند المؤرخين والجغرافيين العرب باسم (منبسي) ثم اطلق عليها البرتغاليون (Mombasa). انظر حراز: افريقية الشرقية ص ٤.

(٢) جمال زكريا: المرجع السابق: ص ١٤.

(٣) Encyc. de L'islam: Vol, IV. P. 1284

(٤) حوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر) ص ٣١٢.

ولقد تعددت ثورات أشياع آل بيت النبوة منذ قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ في كربلاء، وعنفت ، ولكن الأمويين كانوا يقابلونها بشدة. وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، أشعل الشيعة نار الثورة بزعامة زيد بن علي زين العابدين بـن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ، فسير إليهم الخليفة جيشاً هزمهم وقتل زيداً في مـوقعة الكـوفة، ممـا اضطر كثيـرين منهم إلى الفرار والهجـرة سنة ١٢١هـ (٧٣٩/ ٧٤٠ م)[١] متجهين إلى الساحل الشرقي لأفريقية. ولما وصلوه استقروا عند ساحل البنادر (الصومال الشرقي)، بالقرب من موقع مدينة (مقدشو)[*]. وهم ـ وان عاشوا في رعب عظيم من سكان البلاد الأصليين ـ إلا أنهم استطاعوا أن يبسطوا موطنهم على طول الساحل بالتدريج[٢].

واستقر بهم المقام في شنجايا (Shangaya) في موقع مدينة (Port Danford) الحالية، كما يحددها كوبلاند[٣]. ولكنها ـ كما يبدو ـ لم تتمتع بالشهرة والذيوع كما تمتعت الامارات الإسلامية الأخرى. بالرغم من أن أتباع زيد هؤلاء قد سيطروا على ساحل البنادر خلال مائتي عام ونشروا الإسلام بين السكان الأصليين[٤].

وهاجر بعض هؤلاء الشيعة إلى جزيرة مدغشقر في بداية الخلافة العباسية ونهاية الخلافة الأموية، واختلطوا بالسكان وانصهروا فيهم حتى إذا رآهم المسعودي في مستهل القرن الرابع الهجري وجد أن لغتهم زنجية،

---

(١) الطبري : جـ ٧ ص ١٦٠ (تحقيق جماعة من العلماء).

(*) وردت في المراجع والمخطوطات والنقوش العربية المعاصرة (مقدشو) مقدشوه المقدشي، ومقدشو الزنج).

(٢) ارنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٨٧ (طـ ٢).

(٣) East Africa and its Invaders, P. 22 (1956-61).

(٤) حوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر) ص ٣٠٣.

قال: «جزيرة قنبلو، وهي جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين إلا أن لغتهم زنجية غلبوا على هذه الجزيرة... وذلك في مبدأ الدولة العباسية وتقضي الدولة الأموية»[1].

وذكر المقريزي أن بعض العلويين نزلوا بست جزر في المحيط الهندي في أول الإسلام خوفاً على أنفسهم من القتل[2].

وعندما أنزلت جيوش العباسيين الهزيمة بالأمويين، وأسقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٨م، ولى كثير من الأمويين ومن أنصارهم الأدبار، كل يهاجر إلى الجهة التي يتوقع فيها النجاة، ففر الكثيرون إلى بلاد البجة والحبشة وشرقي أفريقية[3]، بل إن بني العباس قد أنزلوا بآل النبي وأشياعهم أبشع عذاب وأشد تنكيل مما اضطر معظمهم إلى الفرار والهجرة إلى أهدأ مكان[4].

هجرات بني الحارث:

واشتد الصراع بين القرامطة[*] والخلافة في مطلع القرن الرابع الهجري وتعرضت قبيلة الحارث ـ التي كانت تقيم بساحل الخليج العربي

---

(١) مروج الذهب: جـ ١ ص ٩٨ (تحقيق محي الدين عبد الحميد).

(٢) الخطط جـ ١ ص ٢٥ (ط سنة ١٣٢٤هـ) مصر.

(٣، ٤) المسعودي: التنبيه والاشراف: ص ٢٨٥ (تحقيق الصاوي)، والمقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٤ ـ ١٥.

وأحمد شلبي: التاريخ الإسلامي جـ ٣ ص ١٤٨ وما بعدها وص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(*) القرامطة: فرقة إسلامية ادعت الانتساب إلى العلويين، وتظاهرت برغبتها في القضاء على الظلمة والمفسدين. وكان بدء ظهورها في سنة ٢٧٨ هـ. وقد أنشبت أظافرها في جسم العالم الإسلامي ردحاً من الزمن. وتفاقم خطرها حتى استطاع بعض أفرادها اقتلاع الحجر الأسود سنة ٣١٧ هـ، واستعصت على العباسيين. ولم ينجح خليفة في القضاء عليها سوى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٧٠ هـ. (تراجع النجوم الزاهرة: جـ ٣ ص ١٠٦ ـ ١٠٧، والبداية والنهاية جـ ١١ ص ٦١، ٦٣، والدكتور محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة في العصر العباسي: ص ١٣٢ ـ ١٤٨).

على مقربة من جزائر البحرين - إلى اضطهاد حاكم الاحساء، القريبة من موطن قبيلتهم، فهاجرت جماعة كبيرة منهم في ثلاث سفن تحت قيادة سبعة اخوة سنة ٢٩٠ ـ ٢٩١هـ[١]، أو سنة ٢٩٥هـ على نحو ما يذكر صاحب خبر لامو[٢]، أو سنة ٣٠٨هـ كما يذكر كوبلاند[٣]، أو سنة ٣١٢هـ[٤]. هاجروا جميعاً إلى شرقي أفريقية، ونزلوا على ساحل السومال، وأسسوا مدينة مقديشو، وتحالفوا مع السوماليين أهل البلاد، فصارت مقديشو مملكة قوية ذات شوكة ونفوذ على عربان السواحل وكان سكانها الأول شيعة زيدية، أبوا الخضوع لسلطان هؤلاء الوافدين السنة، لاختلاف مذاهبهم. ولكنهم عجزوا عن مقاومة خصومهم السنيين، فتركوا لهم مقديشو، وانسحبوا من الساحل إلى داخل البلاد، واختلطوا بسكان البلاد الأصليين، وتطبعوا بعاداتهم، وصاهروهم وامتزجوا بهم، وتكونت من هذا المزيج أمة خليطة من عرب وزنوج متوسطة بين الأمتين، سواء من جهة العنصر والعقيدة، أم من جهة البلاد التي احتلوها، إذ كانت تقع بين بلاد المسلمين في الشرق وبلاد الكفار الوثنيين في الغرب، وقد عرفوا باسم (الأموزيديج) وهو تحريف سواحلي لكلمة زيدية. وأطلق عليهم المؤرخون العرب اسم المغاربة (Moors) أو البدو، تمييزاً لهم عن الزنوج الخلص الذين أطلقوا عليهم اسم الكفار[٥]. وكان لانسحابهم

---

(١) عبد الرحمن زكي: الاسلام والمسلمين في شرقي أفريقية ص ٧٨ (ط أولى).

(٢) نقلاً عن حسن محمود: ص٣٩٩، Hichens: Bantu Studies, 1938.

(٣) East Africa and its Invaders P.22.

(٤) جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقية ص ١٥ - ١٦. ويذكر Triming-ham: Islam in Ethiopia P.22 : أن القرامطة هم الذين أنشأوا مقديشو وكلوة معاً - مع أن المراجع التي بين أيدينا تذكر أن الذين أسسوا كلوة هم فرس شيراز، بخاصة كتاب السلوى في أخبار كلوة.
A History of Kilwa (J.R.A.S.) 1895. PP. 411-414.

(٥) استقرار العرب بشرق أفريقية. بحوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر) ص ٢٨٧ - ٨٨، ووثائق جيان: ص٨٥.

إلى الداخل أثر كبير في نشر الإسلام بين قبائل تلك المنطقة، الذين اختلطوا بهم وصاهروهم.

ثم أسس عرب الأحساء مستوطنات أخرى في هذه المنطقة، فأنشأوا (براوة) وهي التي سماها الأدريسي (بروات) كما أشار إلى مستوطنات أخرى، منها (مركة) التي تقع عند نهر (ويبي) و(قرفاوة) و(النجا) و(بذونة)[1] وأضاف إليها هتشنز[2] (Hichens) مدناً أخرى، ظهرت في عهدها مثل (ماندا) في جزيرة ماندا، و(أوزي) و(شاكة) قرب دلتا (تانا). ولكن (مقديشو) هي التي ظهرت كمركز تجاري هام مزدهر ينبض بالحياة ويعج بالحركة، وأضحت صاحبة السيادة على سكان الساحل جميعاً زهاء سبعين عاماً، حتى أنشئت إمارة كلوة جنوبها فنافستها السيادة.

وكان انشاء مقديشو سنة ٢٩٥هـ (٩٠٧م)[3] أو حوالى منتصف القرن العاشر الميلادي[4]. حتى إذا جاء ابن سعيد قال عنها: «ومقديشو على بحر الهند، وأهلها مسلمون»[5].

ويبدو أن عرب الأحساء كانوا أنشط في نشر الإسلام بين سكان شرقي أفريقية وأكثر تأثيراً فيهم، بدليل أن المذهب السني هو السائد الآن هناك، بالرغم من تعدد طوائف الشيعة التي هاجرت إلى هناك واستقرت.

وأضحت زيلع في الشمال ومقديشو في الجنوب أهم منفذين لتياري

---

(١) نزهة المشتاق (مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٧٤ بلدان تيمور) المجلد الأول ص٤٤، وما بعدها.

(٢) في كتاب الـ Islam in East Africa, في بحثه Islam - To - Day P.116.

(٣) جيان وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية: ص٩٤.

(٤) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٣٧٨ ويحددها ترمنجهام بين سنتي ٩٠٠ و ٩٥٠م Islam in Ethiopian, P.62.

(٥) نقلاً عن الالمام: ص٢٥.

العروبة والإسلام، في اختراق السومال وتسربها عبر مناطق القبائل من الشرق والجنوب إلى الحبشة.

هجرة الفرس الشيرازيين:

ولم تتوقف هجرات المسلمين إلى شرقي افريقية على العنصر العربي وحده، بل أسهمت العناصر المسلمة الأخرى فيها بنصيب، فقد هاجر حسن بن علي، أو علي ابنه ـ على اختلاف في الروايات ـ ، وهو ابن حاكم شيراز بفارس مع أهله وكثيرين من رعيته ـ هاجروا إلى شرقي أفريقية، لأنه كان من أم حبشية فعيره اخوته الستة الذين كانوا من أم فارسية تمت بصلة لأمراء فارس ـ عيره هؤلاء بأمه، فهاجر بأتباعه وحاشيته سنة (٣٦٤هـ/ ٩٧٥م)، ولذلك يحدد جيان وورويش بناء مدينة كلوة بسنة (٣٦٥هـ/ ٩٧٦م) ومدينة مقديشو بسنة (٢٩٥هـ/ ٩٠٦ ـ ٧م)، لأنها بنيت قبلها بسبعين عاماً.[1] وإن كان هذا التحديد غير مؤكد، لاختلاف الروايات في تحديد موعد الهجرة.

ويذكر هتشنز (Hichens): أن الذي هاجر هو حسن بن علي الشيرازي حاكم شيراز بفارس مع أهله وكثيرين من رعيته، وذلك فراراً من طغرل بك السلجوقي وجيشه، الذي غزا شيراز (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، وأن هجرتهم قد تمت في الفترة ما بين التاريخ السابق، وبين (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) هاجروا جميعاً في سبع سفن من جزيرة هرمز، متوجهين إلى شرقي أفريقية[2].

---

(١) جيان: المرجع السابق: ص ٨٦ ـ ٨٨.

(٢) Islam in East Africa; Islam To-Day, P.117

ويؤيده الدكتور حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية ص٤٠٠.

ويذكر صاحب السلوى[1] في أخبار كلوة أن حسن بن علي الشيرازي حاكم شيراز هو الذي سافر بأهله ورعيته، بسبب غاية في الغرابة، وأن هجرتهم تمت في منتصف القرن الثالث الهجري.

ولما سافر بحذاء الساحل الشرقي لأفريقية رسا بسفنه على مقديشو وبروة فوجد بهما مسلمين سنيين، ولكنه كان ومن معه شيعة، وكان يسمع عن وجود الذهب بجزيرة زنجبار فسافر جنوباً حتى نزل بكلوة، فوجد بها رجلاً مسلمًا، يدعى (موروبر) وأهله ومسجدا لهم، فتزوج ابنته، واشترى الجزيرة من أهلها بثياب كانت معه، وشرط عليهم أن ينسحبوا إلى داخل القارة، ففعلوا، فأخذ يشيد بها القلاع والحصون، وبنى مدينة كلوة. وتفرق أبناؤه، كل ينزل بموضع معين، فنزل أحدهم في منبسي، ونزل آخر في بمبة، وثالث في جوهانا، إحدى جزر القمر[2].

وكان حسن بن علي هذا عاقلاً حكيمًا هماماً، ولذا أسس في مدة وجيزة دولة قوية، واكتسب مودة الأهالي، واختلط المسلمون بالزنوج وصاهروهم فأخذ الإسلام ينتشر بينهم[3].

ولما شعر بقوته وعزة جانبه أخذ يمد نطاق حكمه على الأمم المجاورة فأرسل أحد أبنائه إلى (منفية) ولقب هذا الابن الشاب بالسلطان، وأصبحت مملكة الحسن بن علي الشيرازي، تمتد فيها وراء جزيرة بمبة شمالاً، وجنوباً إلى سفالة، ونجح في تأسيس مملكة إسلامية زاهرة استمرت حتى مجيء البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر الميلادي[4].

---

(١) محي الدين الزنجباري: أنظر:
A History of Kilwa (J.R.A.S.) 1895, P.411.

(٢،٣) جيان: المرجع السابق: ص ٨٧ - ٨٨.

(٤) الادريسي: نزهة المشتاق (مخطوط مصور بدار الكتب/ ١٧٤ بلدان تيمور) المجلد الأول ص: ٤٨ و ٥٤.
وهيام عبد الرحمن: شرق أفريقية عند الكتاب العرب: ص٤٧، وحراز: أفريقية الشرقية =

وكان لدولة الزنج الفضل في قيام عدة مدن إسلامية على امتداد الساحل وانتشار الإسلام بين سكانه وبين سكان الجزر المواجهة له كمدغشقر وغيرها بصفة خاصة جزر القمر وبمبة وزنجبار ومافيه ومالندة، منذ وصول تلك الهجرات الفارسية.. فالقلقشندي ينقل عن القانون أن «سفالة، من الزنج وأهلها مسلمون»[1]. ثم شق الإسلام طريقه من الساحل إلى الداخل لاحتكاك المسلمين بالافريقيين ومصاهرتهم وبحكم التبادل التجاري الذي يتيح فرصاً أكبر للتأثير والتأثر فأخذت قوافل المسلمين التجارية تجوب الداخل لحمل الذهب والعاج والتوابل من روديسيا وشمال شرق اتحاد جنوب أفريقية (الحالية) وأصبح لدولة كلوة الشيرازية السيطرة على تلك الطرق التجارية الداخلية وعلى مناجم الذهب أيضاً منذ عهد ثاني سلاطينها[2] وانساب التجار المسلمون في الداخل حتى وصلوا بلاد الكانم بغربي أفريقية، فقد ذكر ابن ماجد الملاح العربي المشهور في القرن الخامس عشر الميلادي: أن طريق التجار لاستجلاب «الفلفل» قديماً هو بلاد الكانم[3].

هجرات العرب المسلمين إلى بلاد البجة:

لقد جاء الإسلام إلى تلك المنطقة من الشمال أيضاً فبعد أن أتم العرب فتح مصر، احتكوا بمملكة النوبة المسيحية لتأمين حدود مصر

= والاستعمار: ٤ ـ ٥. وجيان: الوثائق ص ٨٧ ـ ٨٨، وحوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر): ص٢٧٩.

(١) نقلاً عن صبح الأعشى جـ٥ ص٣٣٧.

(٢) الادريسي: وحراز: نفس المكان، وهيام عبد الرحمن المرجع السابق ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) نقلاً عن «التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى» بحث للدكتور صبحي لبيب، نشره بالمجلة التاريخية المصرية (المجلد الرابع العدد الثاني) مايو سنة ١٩٥٢ ص٦.

الجنوبية[1]، وكانت هناك علاقات تجارية بين مصر والبجة، الذين تمتد ديارهم بين جنوب مصر وشمال الحبشة، وبين البحر الأحمر ونهر النيل. ولقد انقطعت تلك العلاقات نتيجة للفتح الإسلامي لمصر.

«وكانت البجة أمة تعبد الأصنام بهذه الناحية وما استحسنوه إلى سنة إحدى وثلاثين، فإن عبدالله بن أبي سرح لما فتح مدينة أسوان ـ وكانت مدينة أزلية قديمة، وكان عبر إليها من الحجاز ـ قهر جميع من كان بالصعيد وبها من فراعنة البجة وغيرهم. وأسلم أكثر البجة إسلام تكليف، وضبطوا بعض شرائط الإسلام وظاهروا بالشهادتين، ودانوا ببعض الفرائض، وفيهم كرم وسماحة في اطعام الطعام، فسامحهم في الأخذ عليهم، وهم بادية أغنام متوغلون في الجبال والآجام في عدد لايحاط به، فجرت أحكامهم على سنن كانت لهم جاهلية إلى بعض أحكام يستعملونها إسلامية»[2].

ويبدو أن اتصال العرب في مصر كان بمملكة نقيس في بداية سنة ٣١هـ، فاليعقوبي ـ بعد أن حدد البقعة التي تقطنها، من حد أسوان إلى حد بركات (خور بركة) وذكر أن عاصمتها «هجر» ـ قال: «وفي بلادهم المعادن من التبر والجوهر والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن»[3].

ولما بدأت مصر تدرك أهمية البجة وأهمية دورهم في التجارة بين مصر والحبشة، وأرادت أن تعيد الصلات التجارية القديمة التي كان البجة قد

---

(١) Sir Wallis Budge: A History of Ethiopia, Vol, 1. P.103.

(٢) ابن حوقل: المرجع السابق: ص ٥٥ ـ ٥٦. وذكر ابن عبد الحكم: أن عبدالله بن سعد هان عليه أمرهم فتركهم بلا عقد ولا صلح، وأن أول من هادنهم عبيد الله بن الحبحاب: نقلاً عن الخطط المقريزية جـ١ ص٣١٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي: جـ٣ ص: ٢١٧.

قطعوها في مستهل القرن السابع الميلادي، عقد معهم عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج في مصر (سنة ١٠٥ ـ ١١٦هـ) صلحاً يجيز لهم أن يواصلوا نشاطهم التجاري وأن ينزلوا الريف مجتازين فلا يقيمون فيه، ولا يتعرضون لأهل مصر بسوء سواء أكانوا مسلمين أم ذميين، وكفل للمسلمين السلامة إذا نزلوا بلادهم للاتجار معهم[١].

ولم يسترع البجة أنظار الولاة فحسب، بل استرعوا أنظار العرب الذين وفدوا على مصر مع جيوش الفتح أو بعد ذلك بقليل، فبدأ العرب يهتمون بأرض البجة بحثاً عن المعادن، لاستغلالها والاستفادة منها أو للاشتغال بالوساطة التجارية بين مصر والحبشة وشرقي أفريقية، وبدأ فريق من تجار العرب من ربيعة وجهينة يختلفون إلى بلاد البجة ليقيموا بها اقامة دائمة متصلة، بل وجدت بعض البطون العربية في أرض البجة سلاماً من اضطهاد ورزقا ميسراً، فخرجت جماعات من بلى ومن قيس عيلان، وجهينة وحمير وبني عامر وقحطان وكناز وبني يشكر وبني كاهل وبني أديبان وبني عبس وفزارة وبني سليم وهوزان ودخلت أرض البجة، واختلطت بهم، وتصاهرت معهم، وبهذا الامتزاج والتصاهر، بدأ الإسلام ينتشر بين البجة[٢] بل ان أمراء البجة بدأوا يدخلون في الإسلام منذ أواخر القرن الأول الهجري[٣].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب: جـ٢ ص١٨ و ٢١.
الخطط المقريزية جـ١ ص٢٠٨ و ٣١٥. وعبد العزيز كامل: جغرافية الإسلام في أفريقية: ص٣٨.

(٢) المسعودي: مروج الذهب: جـ٢ ص١٨، وابن حوقل: صورة الأرض: ص ٤٨و٥٥. والادريسي: نزهة المشتاق (مخطوط مصور بدار الكتب ١٧٤ بلدان تيمور) المجلد الأول ص ١٠٤، ومحمد أبو بكر مكي: تاريخ النوبة والفنج (مخطوط مصور بآداب الاسكندرية رقم ٢٣١٩ ب) ص٣.

(٣) ابن حوقل: المرجع السابق: ص ٥٠ ـ ٥١.

وبمضي الزمن توثق عرى التعاون بين البجة والعرب، وكان العرب يندفعون صوب الجنوب في هجرات متوالية، لأسباب دينية أو سياسية أو اقتصادية، اشتدت في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي. وهاجرت جماعات من الأمويين حين ثُلَّ عرشهم إلى أرض البجة، وأقامت بها فراراً من المذابح التي أقامها لهم العباسيون «ثم توسطوا أرض البجة ميممين باضع(*) من ساحل بحر القلزم»[1].

وأوغل العرب نحو الجنوب، يدل على ذلك أن الأبحاث الأركولوجية أثبتت وجود جاليات عربية اسلامية في منطقة «خور نبته» الواقعة على مسافة سبعين ميلاً غرب «سواكن» إذ عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى حوالى سنة ١١٣ هجرية، كما دل البحث الأثري على وجود مسجد في «سنكات» يرجع تاريخه إلى سنة ٢١٦هـ (٨٣١م)، بل وصلت هذه الهجرات إلى هجر عاصمة المملكة البجاوية، وإلى مدينة «صنجات» ويحتمل أنها «سنكات» الحالية كما ذكر الدكتور حسن محمود[2].

وكان هؤلاء العرب المسلمون المهاجرون يعيشون بين البجة، ويتعلمون لغتهم ويعملون فيما يعمل فيه الناس، وكلما زاد اختلاطهم بهم واندماجهم فيهم اشتد أثر الإسلام وتمكن من نفوسهم[3].

ولقد شهد القرن الثالث الهجري تطورات بعيدة المدى في أوطان البجة، إذ تغلغل النفوذ العربي الإسلامي ومضى نحو أقصى الجنوب، حتى وصل إلى حدود الحبشة وبصفة خاصة بعد أن سقط اسم العرب من

(*) قال عنها ياقوت: «باضع جزيرة في بحر اليمن... وباضع اليوم خراب» المجلد الثاني ص ٣٩ - ٤٠.

(١) المسعودي: التنبيه والاشراف (تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي): ص ٢٨٥

(٢، ٣) ابن بطوطة: الرحلة: ص ٢٤٥، وحسن محمود: الإسلام والثقافة العربية ص ٣٨٤ - ٣٨٥، Becker: Islam Studien, 11 P. 16

الديوان في مصر وحرموا العطاء وحرموا ما كان لهم من امتيازات[1].

كما وضح التأثير العربي الاسلامي في حياة البجة وسياستهم، فقد تأثروا بالعرب واندمجوا في الحياة العربية[2]، وربما كان عدوان البجة على حدود مصر في عهد ابن الجهم سنة ٢٣٢هـ - بتحريض القبائل العربية القاطنة بأرض البجة، والتي ساءت علاقتها بأولي الأمر في مصر منذ ذلك العهد، ولكن ابن الجهم أثخن في البجة قتلاً وسبياً، واسترد ما سبوه. وكان في بعض أصحابه من عاين التبر وآثار العمل فيه للروم فنكصوا إلى البلد من سنتهم[3].

ولقد عقد بين ابن الجهم وأمير البجة عقد نص فيه على أن تكون بلاد البجة من أسوان إلى دهلك وباضع ملكاً للخليفة، وأن كانون بن عبد العزيز وأهله عبد من عبيده على أن يبقى ملكاً على البجة. وهذا يعني أن ثمة إمارة إسلامية قد قامت في أوطان البجة آنذاك، وأنها اعترفت بسيادة الخليفة وبنفوذه، شأنها في ذلك شأن الإمارات الإسلامية الخاضعة له. كما نص فيه أيضاً على أن يؤدي ملك البجة الخراج كل عام. وقدر بنحو مائة من الابل أو ثلاثمائة دينار، وأباح لعمال أمير المؤمنين أن يدخلوا بلادهم ليقبضوا صدقات من أسلم منهم، مما يدل على أن رعية كانون هذا كانت على الإسلام وإلا فرضت عليهم الجزية[4]. وفي تلك الأثناء كان محمد بن يوسف الحسني الأخيضر قد دخل اليمامة، فانقشع أهلها من جوره إلى أرض مصر والمعدن في آلاف كثيرة، فغلبوا على من

(١) المقريزي: السلوك: جـ١ ق١ ص١٥ وإبراهيم العدوي: ابن عبد الحكم: ص ٤، ٦.
(٢) ابن بطوطة: الرحلة: ص٢٤٥.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض: ص ٥٧.
(٤) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص ٣٨٥ (بتصرف) وبنود الاتفاقية في الخطط: للمقريزي جـ ١ ص ٣١٦ - ٣١٧ (ط مصر سنة ١٣٢٤ هـ سنة ١٩٠٦م) وذكر انها عقدت في ربيع الأول سنة ٢١٦ وسماه عبد الله بن الجهم، لكن ابن حوقل ذكر أن عبيد ابن جهم مولى المأمون كان يلي أسوان وأنه حاربهم سنة ٢٣٢ هـ.

كان بها من أهل الحجاز لسنتهم وفورهم، وتكامل بالعلاقي(*) قبائل ربيعة ومضر، وهم جميع أهل اليمامة في سنة ٢٣٨هـ، (١) واختلطوا بالبجة واندمجوا معهم وتصاهروا، مما أثر في حياة البجة ونشر الإسلام بينهم، وكلما زاد اندماجهم في الحياة العربية الإسلامية، زاد عدد الداخلين في الإسلام منهم(٢). ويكفي دليلاً على وضوح التأثير العربي الإسلامي أن أمير البجة قد اتخذ إسماً عربياً إسلامياً، إذ تطلق عليه المراجع إسم كنون بن عبد العزيز(٣).

ولما عاود البجة وحلفاؤهم من العرب الإغارة على حدود مصر في عهد الخليفة المتوكل العباسي، سير اليهم حملة كبيرة بقيادة محمد القمي(٤) فلما أتى العلاقي، أخذ من ربيعة ومضر واليمن ثلاثة آلاف رجل، من كل بطن ألف رجل، وقابل ملك البجة «علي بابا» والذي كان مسلماً بالاسم، لم تتمكن العقيدة من نفسه(٥)، وهو في مائتي ألف معهم ثمانون ألف نجيب، فهزمهم القمي وأسر ملكهم، وأبرم معه عقداً سنة ٢٣٨هـ أكد فيه حق العرب في الإقامة بأرضه واستغلال مناجم الذهب والزمرد، بل إن هذا العقد ـ الذي جدد في ٢٤١هـ ـ أباح لمصر أن تعين من قبلها عاملاً حفيظاً على هذه الثروة(٦).

وقد زادت رغبة العرب في الهجرة إلى أرض البجة عن ذي قبل،

(*) يعني أرض البجة.

(١) ابن حوقل: صورة الأرض: ص ٥٨.

(٢) المسعودي: مروج الذهب: جـ٢ ص ١٨.

(٣) كالمقريزي: الخطط: جـ ١ ص ١٩٥.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض: ص ٥٨، ويقول الدكتور حسن محمود، ان قائد هذا الجيش كان عنبسه بن اسحاق القمي: انظر الإسلام والثقافة: ص ٣٨٦.

(٥) بالرغم من أن المؤرخين يذكرون انه وثني إلا أنه من المرجح أن يكون مسلمًا لم تتمكن العقيدة من نفسه إذ إن ملوك البجة قبله كانوا مسلمين.

(٦) ابن حوقل: ص: ٥٧، ٥٨.

بعد أن ضمنت الدولة سلامتهم وبعد أن زاد التقارب بين البجة والعرب، كما كان يتخلف كثيرون من جنود الحملات المسلمين المسيرين لقتال البجة بعد أن يعجبهم الحال[1].

وكثرت القبائل العربية الوافدة على أوطان البجة، وتفرقت في بلادهم، واندفعت جنوباً إلى بلاد الحبشة الأكثر خيرات وثراء، وصعد بعضهم هضبة الحبشة نفسها.

وقد امتزج التجار والمهاجرون المسلمون بالقبائل الأفريقية، وتزوجوا منهم لعدم وجود نساء معهم، وعملوا جادين على نشر الإسلام وثقافته بينهم. فانتشر الإسلام في تلك الانحاء. وكتاب القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يجمعون على ان تلك المدن كانت زاخرة بمظاهر الحياة الإسلامية، قال ابن حوقل[2] (ت ـ ٣٢٥هـ) «وإذا أخذت من جانب البحر الغربي على ساحله سرت في مفاوز من حدود مصر حتى تنتهي في جزائر تعرف بـ (بني حدان) وكان بها مراكب لمن أثر الحج تخطف بالحجاج إلى الجار وجدة (أي كان بتلك الجزر وما يليها من الساحل الغربي للبحر الأحمر مسلمون يذهبون لأداء فريضة الحج بالحجاز) ثم تمتد في مفاوز للبجة كان بها معدن الزمرد وشيء من معادن الذهب إلى مدينة على شط البحر يقال لها: «عيذاب». وكان بعيذاب تلك عرب مسلمون يقول ابن حوقل[3]: «على البحر حصن يسمى عيذاب، وبه مجمع لربيعة تجتمع إليه يعرف بالعلاقي»، وقد امتلك المسلمون الثروة والسلطان في أوطان البجة ونشروا الإسلام بينهم، يقول المسعودي (ت ٣٢٣هـ): «وصاحب المعدن في وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة ـ أبو مروان بشر بن إسحاق وهو من

---

(١) ابن حوقل ص: ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) صورة الأرض: ص٤٨.

(٣) المرجع السابق: ص ٥٥.

ربيعة يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة. . . وهم الحداربة وهم المسلمون من بين سائر البجة»[1].

وفي جنوبي عيذاب نجد (سواكن) «وهي ثلاثة سواكن[*] يسكنها تجار الفرس وقوم من ربيعة، ويدعي فيها لصاحب المغرب، وهي محاذية لجدة، وبين سواكن وعيذاب (سنجلة، جزيرة) وهي لطيفة، وبها مغاص للؤلؤ ويقصد اليها في كل حين بالزاد والرجال، وبينها وبين جدة يوم واحد وليلة، والمستحل منها يصل إلى جزيرة (باضع) وبينهما مجراوان، ثم يخطف المستحل عنها إلى (دهلك) أربعة مجار، ومن دهلك إلى (زيلع) ستة مجار، وباضع جزيرة ذات خير ومير وماشية وهي محاذية (لحلي) و (بربرة) محاذية لأعمال عدن[2]». ثم أصبحت ـ كما يقول ابن سعيد: «ومدينة بربرا قاعدة البرابر وقد أسلم أكثرهم[3]».

ويقول المسعودي عن مدن الحبشة الساحلية وان فيها خلقاً من المسلمين: «وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة، يتصل ملك النجاشى بالبحر، ولهم ساحل لهم فيه مدن كثيرة وهو مقابل لبلاد اليمن، فمن مدن الحبشة على الساحل (الزيلع) و (الدهلك) وناصع[**]. وهذه مدن فيها

---

(١) مروج الذهب: جـ٢ ص ١٨.

(*) قال ياقوت: «سواكن بلد مشهور على ساحل بحر الجار قرب عيذاب، ترفأ إليها سفن الذين يقدمون من جدة» م٥ ص١٦٥. وقال المقريزي: «وجزيرة سواكن.. أهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة وهم مسلمون ولهم بها ملك» الخطط جـ١ ص٣١٩، وقال ابن بطوطة انها جزيرة كبيرة وأن سلطانها سنة ٧٣١ هـ كان الشريف زيد بن أبي نمي، ابن أمير مكة: ص ٢٤٥. ويفهم من تلك النصوص أنه كانت هناك بلد بالساحل تسمى سواكن، وجزيرة بنفس الاسم، وربما كانت هناك بلدة بالجزيرة تحمل نفس الاسم.

(٢) ابن حوقل: المرجع السابق ص ٤٨ و ٤٩.

(٣) نقلاً عن الإلمام ص٢٤.

(**) ناصع، مصوع، فقد كان هذا الاسم يطلق عليها قبيل القرن الثالث عشر الميلادي (عابدين ص١٤٤)، إذ قال ياقوت: «وناصع من بلاد الحبشة» م٨ ص٢٣٨.

خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة[1]» لكنه سرعان ما تحول جميع السكان إلى الإسلام، فيذكر ابن سعيد أن «زيلع مدينة مشهورة من مدن الحبشة وأهلها مسلمون[2]».

ولم يكن المسلمون ـ تجاراً أو مهاجرين ـ ليقفوا عند الساحل، بل تطرقوا إلى الداخل منذ وقت مبكر جداً ربما منذ القرن الأول للهجرة، إذ لم تكن المناطق شبه الصحراوية شرق هضبة الحبشة بخاصة لتقنعهم بالبقاء. وخصوصاً بعد أن وجد المهاجرون المضطهدون من الحكومة الإسلامية جيش الخلافة قد احتل مجموعة جزر الدهلك، ولذا اتجهوا إلى هضبة الحبشة وصعدوا فيها حيث الخصب والثراء والمناخ الملائم، وحتى يصبحوا بمأمن من جيش الخلافة المرابض في أرخبيل الدهلك.

فقد هاجر بنو مخزوم القرشيون إلى الحبشة بزعامة ود بن هشام المخزومي، في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وفي سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م وجدناهم قد كونوا مملكة إسلامية في منطقة من أخصب المناطق، شرق منطقة شوة على الهضبة الحبشية نفسها[3]. ولا بد أنهم هاجروا إلى تلك المنطقة قبل هذا التاريخ بوقت طويل، إذ لا توجد الدولة فجأة، بل لا بد أنه قد مرت مراحل طويلة حتى تسلموا زمام السلطة على رعية مسلمة أو أغلبها من المسلمين. وعلى السهول الفسيحة بين البحر الأحمر وهضبة الحبشة كانت تنتشر قبائل الاعفار والسومال والبجة، وقد احتك بهم المسلمون في الأسواق، ونشروا الإسلام بينهم ثم صاهروهم، وأولئك قبائل رحل فنشروا الإسلام حيث ارتحلوا ولذلك قامت

---

(١) مروج الذهب: جـ٢ ص١٨ ـ ١٩.

(٢) نقلاً عن الإلمام: ص٢٥.

(٣) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ص ٣٩٣، زاهر رياض: الإسلام في أثيوبيا ص١٠٥ (ط أولى)، Trimingham: Islam in Ethiopia. P. 57 and, 138 - 39.

إمارات وسلطنات إسلامية أخرى في تلك المنطقة وما يليها شرقاً، في عدل ومورة وهوبت وجدابة، ولكنها لم تعمر طويلاً، للخلافات والتنافس فيما بينها، فسرعان ما طوتها أقوى الإمارات الإسلامية بالحبشة، وهي امارة أوفات فيما بعد[1].

وتوغل المسلمون في الداخل وكونوا لهم مستقرات فوق الهضبة داخل المملكة الحبشية المسيحية نفسها - قبل القرن الرابع الهجري - ونشروا الإسلام بين الأحباش واستقر آخرون منهم في ممالك سيداما جنوبي الحبشة ونشروا الإسلام هناك، واستقر غيرهم في شمالي الحبشة ونشروا الإسلام في مقاطعة تجري، فقد اكتشفت قبور بها نقوش عربية عند «وجر حربه: Wager Hariba» تاريخ أحدها ٨ من ذي القعدة سنة ٣٩٦هـ كما تحولت منطقة جوبا أو (أرجبه) إلى الإسلام. وحوالي سنة ٥٠١هـ بذل سلاطين مملكة شوة الإسلامية جهوداً كبيرة وضموها إلى سلطانهم، وانتشر الإسلام شرق شوة[2]، وتحولت المراكز التجارية التي انتشرت بالداخل إلى امارات إسلامية نامية مستقلة داخلياً لكنها خاضعة لسلطان ملك الحبشة المسيحي وتدفع له الجزية، وتحاربه أحياناً واشتهر منها بالحبشة هدية، وفطجار، وأرابيني، ودارة، وبالي، وشرخاً، وأوفات[3]، وهي «من أكبر مدن الحبشة... قال ومن زيلع إليها نحو عشرين مرحلة وعمارة وفات متفرقة دار الملك على تل والقلعة على تل... وأهلها مسلمون[4]»، وهي التي حظيت بالشهرة والذيوع فيما بعد، وامتدت هذه الإمارات إلى هرر وبلاد العروسي جنوباً حتى البحيرات مطوقة الحبشة من الجنوب والشرق، وهكذا عزلت الإمارات الإسلامية الحبشة عن البحر الأحمر، وفاقت مساحة الرقعة

---

(١) Trimingham: Op. Cit, PP. 30, 138 - 9.

(٢) Trimingham: Op. Cit, PP. 62 - 3.

(٣) المقريزي: الإلمام: ص ٤، Loc. Cit.

(٤) ابن سعيد نقلا عن المقريزي: الإلمام: ص ٢٦.

الإسلامية مساحة المملكة الحبشية نفسها، بل وانتشرت تجمعات المسلمين في جميع أنحاء المملكة المسيحية فوق الهضبة كما يؤخذ من تاريخ بطارقة الاسكندرية، ومن شواهد القبور التي عثر عليها، ويؤيد ذلك أن بدر الجمالي وزير المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧هـ ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) تدخل في تعيين أسقف معين بالكنيسة الحبشية هو الأب ساويرس سنة (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م) واشترط عليه رعاية جانب المسلمين والاكثار من بناء المساجد بالمملكة المسيحية، ولما نفذ الأسقف الاتفاق ثار البطاركة بالحبشة ضده، وأمر الملك بسجنه وبهدم المساجد السبعة التي بناها وفرض عدّة قيود على نشاط التجار المسلمين مما نجم عنه قطع العلاقة بين مصر والحبشة[١].

على أن ذلك لم يمنع تحول الأحباش إلى الإسلام، كما يؤخذ من تاريخ بطاركة الاسكندرية، وذكر أبو صالح الأرمني (٦٥٦ - ٦١٧هـ): أنه قد أسلم كثيرون في مملكة الحبشة في أواخر القرن السادس الهجري، وأن المسلم كان يدفع الجزية[٢].

وبعد سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وفدت على بلاد البجة والحبشة أشد الهجرات العربية وأكثرها، وهي هجرة عرب جهينة، يقول ابن خلدون: «وانتشروا (عرب جهينة) ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة، وكاثروا هناك سائر الأمم... وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد[٣]».

هجرة الهنود:

وقد انتشر الإسلام في المراكز التجارية الهندية منذ القرن الأول

(١، ٢) نقلا عن: Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 63 - 5.

(٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر: جـ٢: ص٢٤٧.

الهجري بسبب التجارة وفتح المسلمين لها[1]. وهاجر الهنود المسلمون إلى شرقي أفريقية تجاراً ومهاجرين، واستقر بعضهم بها، وتزوجوا من الأفريقيين ونبغوا في التجارة، وقاموا بدور بارز في نشر الإسلام هناك[2].

هجرة النبهانيين العرب:

وسقطت الدولة النبهانية في عُمان سنة ٦٠١هـ، فهاجرت جماعات كبيرة بزعامة الملك النبهاني سليمان بن سليمان بن مظفر، إلى جزيرة (باتة) بشرقي أفريقية[3]. فلما وصلوها وجدوا بها خليطاً من العرب والفرس كانوا قد سبقوهم إلى الإقامة بها. لكن لما كان الملك النبهاني يتمتع بشخصية عظيمة استقبله العرب ـ وكان معظمهم من أقليم عُمان ـ بحفاوة وتكريم. وكان أول ما فعله أن تزوج من ابنة حاكم الجزيرة السواحلي والمسمى اسحاق، والذي تنازل لابنته ولصهره عن حكم الجزيرة، فأسس الأسرة النبهانية التي تولت حكم شطر كبير من ساحل شرقي أفريقية حتى القرن الثالث عشر الهجري[4].

ولم يقتصر الأمر على هجرة المسلمين إلى شرقي أفريقية للمنازعات السياسية أو المذهبية التي أخذت تمزق أحشاء الدولة الإسلامية وبصفة

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢٠ ـ ٤٢١، ٤٢٤ وما بعدها.

(٢) طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة: ص ٤٤،

Coupland: East Africa, PP. 26 - 27 and Becker: Islam studien 11, P. 63.

(٣) بعض المدن العربية بشرقي أفريقية، محاضرة للدكتور عبد الرحمن زكي ص ٨٢ بمجلة الجمعية الجغرافية ١٩٦٤.

(٤) استقرار العرب بشرق افريقية، بحث للدكتور جمال زكريا قاسم، نشره بحوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر) ص ٣١٢.

ويذكر د. حسن محمود: أن الملك النبهاني سليمان هذا كان قد تزوج أميرة سواحلية ابنة اسحاق حاكم بات، فلما مات إسحاق، انتقل الحكم إلى زوج ابنته، الذي نقل مقر حكمه من عمان إلى جزيرة بات، وذلك سنة ١٢٠٣م.

انظر: الإسلام والثقافة العربية ص ٤٠٠.

خاصة في عهد الخلافتين الأموية والعباسية، بل ان الكوارث الاقتصادية التي كانت تحل بالعالم الإسلامي جعلت العرب بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة يشدون الرحال إلى شرقي أفريقية التماساً لمهجر جديد يطيب فيه المقام وتستقيم الحياة[1] كما كان للأحداث السياسية الخطيرة التي اجتاحت العالم الإسلامي أبلغ الأثر في هجرة المسلمين إلى شرقي أفريقية، ومن ذلك سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) واجتياحهم لفارس والعراق والشام، مما دفع المسلمين إلى الهجرة والفرار وكانت منطقة شرقي أفريقية هي المنطقة المألوفة للمهاجرين المسلمين ليسر الحياة فيها ولبعدها عن تسلط الحكام وسطوة الخلفاء، وحيث ينعم بالحياة فيها اخوان لهم يجدون منهم كل عون، وفي جوارهم وحماهم كل طمأنينة وأمن، كما أن العرب مهنتهم التجارة وكانت مزدهرة بأسواق شرقي افريقية، والتي كانت تفيض بشتى المتاجر والبضاعات التي أتى بها العرب وغيرهم إليها من كل مكان في العالم[2].

لعله قد تبين دور التجارة والفتح والهجرة في استقرار المسلمين من العرب والفرس ثم الهنود ببلاد البجة والحبشة وشرقي أفريقية واختلاطهم بالأفريقيين ومصاهرتهم.

وننتقل الآن إلى الباب الثالث لنناقش كيف انتشر الإسلام في شرقي افريقية ـ بالدعوة أم بالقوة ـ وما الوسائل التي نشرته؟ وما العوامل التي ساعدت على انتشاره؟.

---

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة: ص ٣٩٧ وجيان: الوثائق: ص ٧١ وجمال زكريا: دولة بوسعيد ص ١٤.

(٢) المرجع السابق والأخير: نفس الصفحة.

البَابُ الثّالِث

اِنتشار الإسْلام في شرقي أفريقيَة

وفيه فصلان

الفصل الأول

العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام

الفصل الثاني

الوسائل التي نشرت الإسلام في شرقي افريقية



الفصل الأول

العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام



انتشار الإسلام بين الدعوة والقوة:

هل انتشر الإسلام في شرقي أفريقية بالدعوة أم بالقوة؟

قبل أن أجيب على هذا السؤال يجب أن أجيب على سؤالين هما:

أ ـ هل الإسلام يجبر الناس على اعتناقه؟

ب ـ وماذا كان سلوك المسلمين في شرقي أفريقية في دعوة الأفريقيين إلى الإسلام؟

وللإجابة على السؤال الأول:

نجد أنه ليس من مبادىء الإسلام اجبار الناس على اعتناقه، بل انه يكفل حرية الدين والعبادة للناس قاطبة[1] ولو رعايا ضعفاء في ظل حكمه أو عبيداً لأتباعه أو أسرى مهزومين تحت سطوة جيشه. فلقد سار الإسلام حيال الحرية الدينية على أسس سمحة نبيلة، إذ قرر أربعة مبادىء هي أسمى ما يمكن أن يصل إليه تشريع في حرية الأديان والمعتقدات[2].

---

(١) أنظر: الخراج والنظم المالية ص ١٦٦ وما بعدها، والإسلام: ص ١٧٦ وما بعدها وما بعدها، وحقوق الإنسان في الإسلام ص ٢٦٠.

(٢) حقوق الإنسان ص ٢٢٠.

أولاً: إنه لا يجبر أحداً على ترك دينه ليعتنق الإسلام، إذ﴿لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي[1]﴾. فالناس أحـرار فيما يعتقدون ﴿لكم دينكم ولي دين[2]﴾. وخاطب الله تعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[3] منكراً عليه أن يكره أحداً على اعتناق الإسلام. وأمر رسوله ﷺ أن يدعو الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[4]. واحترم الإسـلام معتقدات مخـالفيه ودور عبادتهم وكفل لهم الحرية والأمان. بل ان الإسلام ـ بالرغم من جعله القوامة للرجل على المرأة فيما يحقق مصلحة الأسرة والصالح العام ـ لم يجز للمسلم المتزوج من كتابية أن يمنعها من أداء عبادتها وشعائر دينها، بل رأت بعض المذاهب أنه ينبغي له أن يصطحبها إلى حيث تؤدي هذه العبادات والشعائر في كنيستها أو بيعتها[5].

ثانياً: لم يكتف الإسلام بأن أعطى الناس حرية الدين والعبادة، بل منحهم حرية المناقشات الدينية، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين بالتزام جادة العقل والمنطق في محاجة الخصوم، وأن يكون عمادهم في مناقشاتهم قرع الحجة بالحجة، بلطف وحكمـة، ﴿أدع إلى سبيل ربـك بالحكمـة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[6]، ويقول مخاطباً المؤمنين: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ [7] ويقول لأهل الديانات

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦.
(٢) سورة الكافرون: الآية ٦.
(٣) سورة يونس: الآية ٩٩.
(٤) سورة النحل: الآية ١٣٥.
(٥) وافي: حقوق الإنسان في الإسلام: ص ٢٢١.
(٦) سورة النحل: الآية ١٣٥.
(٧) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

الأخرى: ﴿قل: هـل عندكم من علم فتخـرجوه لنـا﴾[1] ﴿قل: هـاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[2]. وكان الخلفاء يسمحون بها بل ويشجعون عليها ويحضرونها بأنفسهم بخاصة خلفاء بني العباس[3].

ثالثاً: إن الإيمان الصحيح ـ في نظر الإسلام ـ هو ما كان منبعثاً عن يقين واقتناع، لا عن تقليد واتباع ومن ثم ذهب بعض علماء التوحيد إلى أن إيمان المقلد غير صحيح، قال الشيخ محمد عبده: «إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين. وان المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن رُبِّيَ على التسليم بغير عقل وعلى العمل ـ ولو صالحاً ـ بغير فقه، فهو غير مؤمن»[4].

رابعاً: إن الإسلام أباح الاجتهاد في فروع الشريعة لكل قادر، وهو المتمكن من الكتاب والسنة واللغة العربية وقواعد الاستنباط، فمن المقرر شرعاً أن المجتهد ـ ولو أخطأ ـ مشكور مأجور[5].

وهنا يجيء موضع السؤال الثاني وهو:

إذا كانت تلك هي مبادىء الإسلام فهل ترسمها المسلمون في دعوة شعوب شرقي أفريقية إلى الإسلام؟.

إن تتبعنا لتاريخ انتشار الإسلام في شرقي أفريقية ـ كما عرض في الباب الثاني ـ قد أوضح بغير جدال أن الإسلام قد انتشر هناك بالدعـوة وحدها، بل ان الكثيرين من الأفريقيين قـد اعتنقوا الإسـلام دون أن

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١١.

(٣) وافي: المرجع السابق: ص ٢٢١.

(٤، ٥) المرجع السابق. ص ٢٢٣.

يدعوهم إليه أحد، وإنما لما لمسوه فيه كدين، ولما رأوا عليه معتنقيه من سلوك حسن.

فالثابت تاريخياً - كما سبق[1] - أن الإسلام قد انتشر هناك في ركاب التجار والمهاجرين المسلمين الذين ضووا إلى تلك الجهات سعياً وراء الرزق أو فراراً من اضطهاد مخالفيهم في المذهب الديني أو الحزب السياسي، أي أنهم قوم مستضعفون آووا إلى سكان شرقي افريقية احتماء بهم، أو طلباً للنجاة بجوارهم، وعملوا فيما يعمل فيه أولئك السكان من التجارة وغيرها من وسائل العيش، دون أن يحاولوا إكراههم على اعتناق الإسلام. أو إرغامهم على ترك دينهم، حتى بعد أن كونوا سلطنات وممالك إسلامية يحكمها سلاطين وملوك مسلمون على امتداد ساحل شرقي افريقية[2].

فالإسلام قد انتشر في شرقي أفريقية بالدعوة السلمية وحدها دون ضغط أو إكراه على اعتناقه كما هو ثابت تاريخياً، وهذه شهادة مؤرخين مسيحيين تؤكد ذلك:

قال توماس أرنولد عن قبائل الجالا والسومال: «فبينما يقال ان بعضهم أدخلوا كرهاً في المسيحية، نجد أن عدم وجود أي سلطة سياسية في أيدي المسلمين يدحض امكان القيام بأي نشاط في تحويل الناس إلى الإسلام على هذا النحو[3]».

وبعد أن وصف كيف دخل الإسلام أفريقية قال: «من هذا الوصف المجمل نستطيع أن نرى أن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية في أفريقية[4]».

---

(١) الباب الثاني كله، وهذا الباب أيضاً.

(٢) أنظر: الفصل الأول من الباب الثالث.

(٣) الدعوة إلى الإسلام: ص٣٨٤ (ط٢).

(٤) المرجع السابق ص: ٣٩٠.

ثم قال: «لدينا الدليل القاطع الذي شهد به الرحالون وغيرهم على نشر الدعوة بالطرق السلمية وقيام الداعي المسلم بأعمال تنطوي على الرفق والأناة، تلك الأعمال التي عملت في سبيل انتشار الإسلام انتشاراً سريعاً في أفريقية الحديثة أكثر مما عمل أي أسلوب من أساليب العنف.

وربما استأصل الإسلام حقاً شأفة مقاوميه بالبسالة الحربية، ولكنه عن طريق الأساليب الأولى، بصفة خاصة، أنجز عملية تحويل الناس إلى الإسلام. ولعل نشاط التحول لا يزال يتقدم في كثير من الأقاليم الساحلية والداخلية»[1].

وبعد أن عدد العوامل التي نشرت الإسلام قال: «وليس في القول بأن الإسلام يتقدم بقوة السلاح إلا قليل جداً من الحقيقة، بل الأمر على العكس»[2].

وقال هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بأفريقية حتى سنة ١٩٥٠م «إن انتشار دعوة الإسلام في غالب الظروف لم تقم على القسر، وإنما قامت على الاقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلا ايمانهم العميق بدينهم، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقه الأرستقراطية، وهي هدف الدعاة الأول، تبعتها بقية القبيلة[3]».

وقال الدكتور يوسف عبده يوسف: «فالعربي المسلم ـ ولم يكن مبشراً بالمفهوم الحالي ـ الذي كانت مهمته التجارة كان ينشر الإسلام حيثما حل عن طريق الاتصال والاحتكاك بالآخرين. كما كان في طبيعة الإسلام ما

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص: ٣٩١.
(٢) المرجع السابق ص: ٤٠٠.
(٣) الديانات في أفريقية السوداء: ص ١٢٨ (ترجمة أحمد صادق حمدي) ط (الألف كتاب رقم ٥٢ سنة ١٩٥٦م).

يجعله قريباً من قلب الأفريقي، فهو قادر على تقديم الاحتياجات الروحية التي يتطلبها الافريقي[1]».

ثم قال بعد أن عدد بعض ما في الإسلام من ميزات جذبت الافريقيين إليه: «فأصبح الإسلام بالنسبة لهم (الافريقيين) ليس قبول دين جديد فحسب بل ارتباطاً بعالم أكبر من هؤلاء المسلمين المنتشرين في أماكن كثيرة يسمعون عنها لأول مرة في حياتهم، ولذلك انتشر الإسلام في الداخل»[2].

وقرر أنه؛ «لم يحاول العرب فرض طريقة معيشتهم أو حضارتهم أو دينهم عندما كانت لهم السيطرة الكاملة قبل وصول الأوروبيين بل نشروا حضارتهم عن طريق الترغيب فأسسوا المدارس لتحفيظ القرآن وكتابته بالعربية فانتشرت الألفاظ العربية والدين الإسلامي بحكم الاختلاط وليس عن طريق القوة»[3].

والحق ان المسلمين في شرقي أفريقية لم يحاولوا اجبار أحد على تغيير دينه ولو كان وثنياً، وإنما انتشر الإسلام بانتشارهم بين الأفريقيين، ووصل إلى حيث وطئت أقدامهم، واعتنقه الأفريقيون لاختلاطهم بالمسلمين واتصالهم بهم دونما ضغط أو اكراه. ولم يحدث أن أكره المسلمون سواهم على اعتناقه إلا ابان الحروب الصليبية الدامية التي أشعل مسيحيو الاحباش نارها، إذ حاول كل من المسيحيين والمسلمين أن يجبر الغالب منهم المغلوب على اعتناق دينه، وكان ذلك بتأثير الروح الصليبية التي سادت العالم آنذاك ونأت بالإنسانية على تسامح الأديان. وعلى كل فكان فعل المسلمين ذلك

---

(١) الكنيسة والحركات القومية في شرق أفريقية (رسالة دكتوراه غير منشورة) بآداب القاهرة ص١٥ وانظر: Richter, D. Julius: Tanganika and its Future: P. 54.

(٢) المرجع السابق ص: ١٦.

(٣) المرجع السابق ص ٤ ـ ٥.

ليس نابعاً عن مبدأ إسلامي مقرر أو اتباعاً لأوامر الإسلام، بل رداً على سياسة مسيحيي الحبشة وحلفائهم البرتغاليين المتعصبين في اكراه المسلمين على اعتناق المسيحية.

ومما يؤكد أن الأفريقيين قد اعتنقوا الإسلام رغبة فيه لا رهبة من أهله وعن حب له لا عن اكراه من ذويه - انتشاره بين الأفريقيين في ظل سيادة دول أوروبا المسيحية المستعمرة بل والمناهضة للإسلام[١]، فقد وجدوا في الإسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم وجديرة بتكييف مطالبهم ومطامحهم، ولذلك كان بعيداً كل البعد على السيادة الأوروبية أن تعوق نشاط الدعاة المسلمين، بل ان انتشار هذه السيادة قد ساعد إلى حد كبير على تقدم الإسلام[٢].

وقال ادوارد ألندورف: «لدعوة الإسلام العالمية جاذبية عظيمة في جميع تلك الأنحاء حيث مسيحية الأحباش اليعقوبية رسالة قومية خاصة»[٣].

ولم يقل أحد ممن أرخوا للإسلام في شرقي أفريقية - فيما أعلم - ان المسلمين أكرهوا الأفريقيين على الدخول في الإسلام. بل أكدوا جميعاً أن الإسلام قد انتشر على نطاق واسع في ظل الحكومات الاستعمارية المسيحية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين[٤].

وبهذا اثبت أن الإسلام قد انتشر في شرقي أفريقية بالدعوة وحدها لا بطريق آخر.

---

(١) هوبير ديشان: الديانات في أفريقية السوداء: ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص: ٣٩٩.

(٣) ديشان. The Ethiopians,P. 114 (Ox. Univ. Pr. 1960).

(٤) ديشان المرجع السابق: ص ١٣١، وانظر: Coupland: East Africa and its Invaders and G. Parrinder; Religion in Africa (East Sudan and Eastern Africa) and James Kritzech: Islam in Africa (Tanzania by franz)... Also.. Franz: Parole et Mission (Jan 1971).

وساعد على انتشاره عدة عوامل:

أولاً: بساطة الإسلام[1] وسمو مبادئه وتشريعاته:

والإسلام - كما قال هوبير ديشان - دين فطرة بطبيعته سهل المتناول لا لبس ولا تعقيد في مبادئه وسهل التكييف والتطبيق على مختلف الظروف، . . . ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر؛ اذ لا يتطلب من الشخص لاعلان اسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين. ولم يفرض الإسلام على الزنوج أن يغيروا من نظام معيشتهم . . .

هذا إلى أن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام لم تكن غريبة عليهم، بل تتمشى مع عقيدتهم القديمة في الاعتقاد بوجود اله خالق. وقد حبب الإسلام إليهم مظاهره البعيدة عن التكلف، مثل الثوب الفضفاض، والمسبحة، والكتابة العربية، والوقار الديني، وشعائر الصلاة؛ مما يضفي على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة.

فالذي يدخل في الاسلام ولو في الظاهر يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه تزود بكثير من القوة الحيوية.

ولما كان الزنجي جماعياً بنشأته ومعتزاً بانتسابه إلى جمعياته الدينية القديمة فقد وجد في جماعة المسلمين وأخوتهم خير بديل عنها، بخاصة في الأيام الأولى للدعوة، عندما كان المسلمون قلة، ثم حلت عنده جماعات الطرق الصوفية وجمعياتها الكثيرة محل الجمعيات الدينية الماضية في صورة أوسع وأعظم[2].

---

(١) وقد تناولت مبادىء الإسلام وحضارته في الباب الخامس.

(٢) الديانات في أفريقية السوداء: ص ١٢٨ - ١٢٩.

والاسلام يناسب الجماعات المختلفة في أمزجتها وأذواقها، فبعضها ترى فيه نظاماً سياسياً يناسب تقاليدها فتؤمن به ليشد أزرها في كفاحها ضد عدوها المستعمر، وأخرى ترى فيه نظاماً اجتماعياً واقتصادياً راقياً فتعتنقه تحضراً ورقياً.

والاسلام دين وثقافة معاً، يدفع معتنقيه إلى الامام ويرقيهم في سلم الحضارة أعلى الدرجات ويفتح الباب أمام المسلمين للوصول إلى أعلى الدرجات في أمور الدين والدنيا، وليس هناك فجوة بين العالم والمتعلم[1]، وينظر الوثنيون هناك إلى اعتناق الاسلام على أنه دليل على الترقي إلى حضارة ومنزلة اجتماعية أسمى مما هم فيها، وأنه خطوة متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقلياً وخلقياً ومادياً[2].

ولم يأخذ الاسلام المجتمعات الافريقية بالطفرة، ولم يطالبهم بالتخلي عن قوميتهم، ولا أوطانهم وأهليهم. وانما أمدهم بالعزة والنشاط والاعتماد على النفس واحترام الذات، لا كالمسيحيين والوثنيين من بني جلدتهم[3].

وبينما بغضت التفرقة العنصرية الافريقيين في المسيحية، نجد الاسلام قد آخى بينهم وبين سائر الأجناس وكفل لهم الحرية والأمان وسواهم بغيرهم في كل شيء، بل ربما فضلوا الجميع بإيمانهم. حتى أصبح الأفريقيون ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود وإلى المسيحية على أنها دين البيض[4]. وفي الحق فإن الإسلام لم يعامل السود قط على أنهم من طبقة منحطة كما كانت الحال في كثير من الأحيان في العالم المسيحي[5].

---

(١) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص ٤١ - ٤٢.

(٢، ٣) ارنولد: الدعوة إلى الاسلام: ص ٣٦٦، وانظر ص: ٣٩٤ - ٣٩٦.

(٤) يوسف عبده: المرجع السابق ص: ١٩، وأرنولد: المرجع السابق ص ٣٩٤ - ٣٩٥: و Becker Islam Studien, 11, P. 200

(٥) ارنولد: المرجع السابق ص: ٣٩٤

ولدعوة الاسلام العالمية جاذبية عظيمة في جميع تلك الانحاء حيث لمسيحية رسالة قومية خاصة[1].

ثانياً: موقف الإسلام من الرق وأثره في نشر الاسلام:

لم يحرم الإسلام الرق دفعة واحدة، اذ كان دعامة ترتكز عليها جميع نواحي الحياة الاقتصادية وتعتمد عليها جميع فروع الانتاج في مختلف دول العالم، لكنه أباحه في صورة مقيدة تؤدي إلى القضاء عليه بالتدريج دون أن يحدث ذلك أي ضرر أو اضطراب في المجتمع[2].

وقد كانت روافد الرق في العصر الذي ظهر فيه الاسلام كثيرة متنوعة يرجع أهمها إلى ثمانية[3]:

(١) انتماء الفرد إلى شعب معين أو طبقة معينة كان يجعله رقيقاً في نظر شعوب أخرى كثيرة كالعبريين واليونان والرومان.
(٢) الحرب بجميع أنواعها كانت تجعل الأسرى أرقاء أو يقتلوا.
(٣) القرصنة والسبي والخطف.
(٤) ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل وَالزنا والسرقة كانت عقوبتها استرقاق الجاني لصالح المجنى عليه أو لصالح الدولة.
(٥) عجز المدين عن الوفاء بدينه في موعده كانت عقوبته استرقاق الدائن له.
(٦) سلطة الوالد على بنيه تعطيه حق بيع أحدهم رقيقاً في حالة عوزه وفاقته.

---

(١) Edward Ullendorff: The Ethiopians P. 114 (london 1960)

(٢) علي عبد الواحد وافي: حقوق الإنسان في الإسلام ص ٢٠١ (ط ٤ سنة ١٩٦٧) ومحمد عبد الله دراز: في الدين والاخلاق والقومية ص ٤٧ ـ ٥٢ (ط سنة ١٩٦٧).

(٣) حقوق الانسان: ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ (بتصرف).

(٧) تنازل المرء عن حريته نظير ثمن معين.
(٨) تناسل الرقيق: فكان ولد الأمة رقيقاً ولو كان والده سيد الأمة نفسه.

وقد أدى رد المسلمين عدوان أعدائهم عليهم إلى استرقاق بعض اعدائهم بخاصة في عهد الامام أحمد الذي اكتسح الحبشة كلها، «وكان الواحد من المسلمين يأسر عشرة من الكفار»[١].

وكان هؤلاء الرقيق وأولئك، يعايشون الإسلام عن كثب، ويختلطون بالمسلمين فتبهرهم عظمة الإسلام، ويدهشهم تمسك المسلمين به؛ فيعتنقونه ويتزوجون من المسلمين، خصوصاً بعد أن وجدوا في الإسلام سموا روحياً، وكمالاً خلقياً، وبعد أن بهرهم سمو مبادئه حين يسوي العبد بمولاه، ويجعل المفاضلة بين البشر بقربهم من الله تعالى[٢]: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم[٣] ﴾ بل بعد أن وجدوه يحفظ عليهم كرامتهم كأناس. ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾[٤] ويحفظ عليهم حياتهم ويسويهم بسادتهم «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه، ومن أخصى عبده أخصيناه»[٥].

ويؤاخي بينهم وبين سادتهم، ويأمر سادتهم بمساواتهم بهم في كل شيء «اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، والا فأعينوهم»[٦]، بل أمرهم بالاحسان اليهم مقترناً بأمرهم بعبادته

---

(١) فتوح الحبشة: ص ١١٣.
(٢) محمد كرد علي: الاسلام والحضارة العربية: جـ١ ص ٩٩ - ١٠٠ (ط ٣ سنة ١٩٦٨م).
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٧٠
(٥) الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي.
(٦) البخاري (حديث أبو زرد).

وحده ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحسانـاً، وبذي القربى واليتامى والمساكين والجـار ذي القربى والجـار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم[1]﴾.

والحق: ان المسلمين كانوا يصدرون في معاملتهم للعبيد عن خلق اسلامي رفيع، فيأخذون على عاتقهم اطعامهم مما يطعمون، وكسوتهم مما يلبسون، وحمايتهم. كما كان على كل سيد أن يمد عبده بأنثى، وأن يرعى لـه ذريتـه، وكـانـوا يتـزوجـون الامـاء، ويعلمـون عبيـدهم وامـاءهـم ويثقفونهم[2].

فـ «العلائق» بينهم (العرب) وبين رقيقهم كانت انسانية إلى حد بعيد.

فقد كتب ديوارت باربوسا سنة ١٥١٨م، وتجارة الرقيق لا تجارة غيرها آنذاك: «حال الرقيق في منبسي تدل على ما لأسيادهم العرب هناك من انسانية يعجز الواحد أحياناً أن يميزهم عن أسيادهم، إذ يبيح هؤلاء لهم أن يقلدوهم في اللباس وفي غيره من شؤون العيش[3]...».

وفضلاً عن ما وضعه الاسلام من مبادىء وقوانين ترفع العبد إلى مستوى سيده فقد جعلها الإسلام اجراء مؤقتاً، ريثما ينسمهم عبير الحرية وشذاها، إذ وضع جهازاً ضخماً مركباً من ثلاثة أجهزة لتحرير الأرقـاء[4].

الجهاز الأول: لتجفيف روافده المتعددة، والتي كانت تتمثل قبل الإسلام في أمور ثمانية[5] حرمها الإسلام، ولم يبق إلا على حالتين منها

(١) سورة النساء: الآية ٣٦.
(٢) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٩٩ (طـ ٣ سنة ١٩٦٨م).
(٣) نقلاً عن بازل دافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة (ترجمة جمال محمد أحمد لسنة ١٩٦١م ص ١٧) ط بيروت) من مقدمة المترجم.
(٤) انظر: وافي: حقوق الانسان في الإسلام: ص ٢٠٢ ـ ٢٠٦، ودراز: نظرات في الإسلام ص ١٠١ ـ ١٠٦.
(٥) المرجعين السابقين: ٢٠٢ ـ ٢٠٤، ١٠٣ ـ ١٠٤.

بصورة مقيدة تدعو إليها الضرورة، وهما: رق الوراثة ورق الحرب الإسلامية المشروعة. ولقد قيد الإسلام الرافد الأول فاستثنى منه أولاد الجواري من مواليهم. واذا لاحظنا أن الغالب أن يقتني الأغنياء الجواري لمتعهم الخاصة، أدركنا أن الإسلام قد وضع نظاماً لينضب معين هذا الرافد في زمن قصير.

وقيد الرافد الثاني، فاستثنى منه أسرى الحرب بين طائفتين من المسلمين، ولم يبح استرقاق الأعداء إلا إذا بدأوا بالعدوان، وخير الامام بين المن أو الفداء «فإما منا بعد وإما فداء[1]»، أي أن الاسترقاق أو القتل بالنسبة لمن يخشى خطرهم على أمن وسلامة الدولة الإسلامية[2].

والجهاز الثاني:[3] هو توفير الحياة الكريمة لهؤلاء الذين استرقوا - وقد تناولت المبادىء والقوانين التي وضعها الإسلام لذلك قبل قليل. حتى يتنسم هؤلاء عبير الحرية.

وأما الجهاز الثالث: فهو الأبواب[4] الواسعة الكثيرة التي فتحها الإسلام لاخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية، وأول مفتاح لها هو مفتاح القلوب، فأخذ الإسلام يحرض الأفراد على عتق الأرقاء ويرغبهم في ذلك بشتى الوسائل﴿ فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة ﴾[5].

قال الرسول ﷺ: «من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار[6]»، ومفتاح آخر، هو مفتاح خزائن الدولة، فخصص جزءاً من ماليتها كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين[7]: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين... وفي الرقاب﴾[8].

---

(١) سورة محمد: من الآية ٤.
(٢) دراز: نظرات في الإسلام: ص ١٠٤ - ١٠٥.
(٣، ٤) دراز: المرجع السابق: ص ١٠٣ - ١٠٧.
(٥) سورة البلد: الآيات ١١، ١٢، ١٣.
(٦) رواه الإمام أحمد في الترغيب والترهيب.
(٧) دراز: نظرات في الإسلام: ص ١٠٥ - ١٠٦.
(٨) سور التوبة: الآية ٦٠.

ومفتاح آخر هو مفتاح قانون الكفارات، والذي يجعل عتق الرقاب فريضة لمحو خطيئة من الخطايا، كالحنث في اليمين، والفطر في رمضان عمداً، والقتل الخطأ وغير ذلك. بل جعل الإسلام كفارة اهانة السيد لعبده قولاً بسبه أو عملاً بتكليفه ما لا يطيق مراراً أو ضربه وإصابته كفارة ذلك عتقه[1] «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه[2]».

بل مجرد تلفظه له بكلمة العتق ولو مزاحاً ملزمة للسيد أن يعتق عبده «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والعتاق[3]».

لذلك نجد أن هؤلاء الرقيق لم يضمروا العداء للمسلمين الذين أسروهم فقد وجدوا في الاسلام ما عوضهم.

ولقد قابل (دواتي Daughty) رجلاً ينتمي إلى قبائل الجالا أُعْتِقَ بعد أن سُرِقَ من بلده في صغره وبيع رقيقاً «قابله في خيبر، وسأله: ألا تزال تضمر السخط والعداء لمن أسروك وأسلموا حياتك للعبودية في أقاصي الأرض»؟.

فأجاب: «إن شيئاً واحداً قد عوضني، وهو أني لم أعد غارقاً في الجهل بين عبدة الأوثان! ما أعجب عناية الرحمن! تلك التي جئت بفضلها إلى بلاد الرسول ﷺ هذه، وتوصلت بها إلى معرفة الدين! آه! ما أشد حلاوة الإيمان! صدقني أيها الرفيق العزيز، إنه أمر يعجز كل قلب عن الافصاح عنه، كم أتمنى أن يهديك الله إلى تلك المعرفة السماوية، ولكني موقن أن الله سيرعاك حتى لا تهلك قبل أن تدخل هذا الدين. حقاً كم

---

(١) دراز: المرجع السابق: ص: ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٢) فيض القدير: جـ ٦ ص ٢١٩ (ط أولى سنة ١٩٣٨).
(٣) كشف الخفاء ومزيل الالباس: جـ ١ ص ٣٢٦ (ط سنة ١٣٥١هـ)

يكون جميلاً أن أراك مسلمًا، وأن تصبح واحداً منا، ولكني أعرف أن الأجل بيد الله: يفعل ما يشاء»[1].

بل ان بعض هؤلاء الرقيق الذين اعتنقوا الإسلام قد رجع إلى بلاده ونشر الإسلام بين أهله ومواطنيه. وهناك قصة تصور كيف دخل الاسلام إلى احدى بلاد الزنج على يد ملكها نفسه الذي أسره التجار سنة **٩٢٢م** وباعوه رقيقاً في شبه جزيرة العرب، ولكنه أسلم وتفقه في الدين وعاد هارباً إلى بلاده بعد أن تجشم الصعاب ولاقى الأخطار مرات. ولما رجع إلى مملكته علم قومه دين الاسلام. ولما وقع آسروه في قبضته لم يصنع بهم شيئاً سوى أن قال لهم: «أنا اليوم فرح مسرور لما مَنّ الله به علي وعلى أهل دولتي من الإسلام والإيمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام. وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني.. فعرفوا المسلمين أن يأتونا فإنا نحن قد صرنا اخواناً لهم مسلمين مثلهم»[2].

وهكذا نجد أن موقف الإسلام من الرق كان ذا أثر كبير في تحويل عدد كبير من الافريقيين إلى الإسلام.

ثالثاً: تمسك مسلمي شرقي أفريقية بالإسلام حكاماً ومحكومين:

كوّن المسلمون إمارات إســلامية بشرقي أفريقية. ولقد نشأت هذه الإمارات صغيرة أولاً ثم كبرت بمضي الزمن، وكانت الحكومات الإسلامية المتربعة على عروشها تسوس رعية بعضها مسلمين وبعضها الآخـر غير مسلمين، بل ربما أغلب رعاياها من غير المسلمين، ومن هنا كان دورها في

---

(١) أرنولد: الدعوة للإسلام ص ٢٨٥.

(٢) انظر: بزورك بن شهريار: كتاب عجائب الهند: بره وبحره وجزايره (ط ليدن سنة ١٨٨٦م) ص ٥٠ - ٦٠.

تحويل هؤلاء الرعايا إلى الإسلام بل من كان يتردد على تلك الممالك من غير المسلمين للاتجار مع رعاياها أو للعيش بينهم من القبائل المجاورة.

لكن! ما هو الدور الذي قامت به هذه الممالك والسلطنات الإسلامية لنشر الإسلام؟

معظم هذه الحكومات المسلمة كانت تحكم طبقاً لشريعة الإسلام، وكان معظم حكامها يترسمون هدي الإسلام ويسترشدون بتعاليمه، وكان معظم أفراد رعيتهم المسلمين صورة مجسدة للمجتمع المسلم[١]. وهو ما شهد به الرحالة والمؤرخون الذين كتبوا عن تلك الممالك أمثال المقريزي والعمري والقلقشندي وابن بطوطة وعرب فقيه وبنيامين النطيلي وغيرهم.

قال المقريزي عن عمرو لشمع حاكم أوفات: «ولاه الحطِّي مدينة أوفات وأعمالها فحكم بها مدة طويلة (منذ سنة ٦٨٤هـ/ سنة ١٢٨٥م)، وصارت له بها شوكة قوية، وشكرت سيرته حتى مات[٢]».

وقال عن سعد الدين أبو البركات حاكم أوفات منذ سنة ٧٧٦هـ/ سنة ١٣٧٤م: «فمضى على سيرة أخيه حق الدين في جهاد أمحرة الكفرة لكن بتؤدة وسياسة حسنة، فكثرت عساكره وتعددت غاراته، واتسعت مملكته[٣]». ثم قال عنه أيضاً: «ومضى من فوره إلى زلّان، وفتح تلك البلاد وغنم أموالها فبلغت حصة السلطان لخاصة نفسه أربعين ألف بقرة فرقها بأجمعها على الفقراء والمساكين وعلى العسكر حتى لم يجد ما يأكله إلى

---

(١) اذن ـ فإن كلام ترمنجهام عن المهاجرين المسلمين بأنهم «كانوا مجموعات صغيرة نسبياً من التجار والمغامرين واللاجئين من ذوي العقيدة التي فقدت عناصر الحيوية» ـ هذا الكلام يتعارض مع ما ذكره وشهد به الرحالة والمؤرخون الذين دونت أقوالهم عن الحكام والمحكومين المسلمين. انظر كلامه في: Islam in Ethiopia, P. 33.

(٢) الالمام: ص ٩

(٣) الالمام: ص ١١

أن أطعمته إحدى زوجاته، وحصل لسليم بن عباد زوج ابنته اثنتا عشرة ألف بقرة فأمره أنْ يخرج زكاتها فامتنع فتغير عليه[1]»، وقال أيضاً عن مظاهر تمسكه بأهداب الدين هو ورعيته: «فعندما تلاقى الجمعان توضأ هو وأصحابه وصلوا ركعتين، وسأل الله تعالى النصر وهم يؤمنون على دعائه، ثم ركب بمن معه وقاتلهم فهزمهم الله ونصره عليهم[2]».

ووصف المقريزي روح الجهاد الاسلامية التي كانت تسيطر على المسلمين فقال: «فلقيه سعد الدين بنفسه ومعه الفقهاء والفقراء والفلاحون وجميع أهل البلاد وقد تحالفوا جميعاً على الموت، فكانت بينهم وقعة شنيعة»[3].

ثم وصف جمال الدين محمد بن سعد الدين الذي قتل في جمادى الآخرة سنة ٨٣٥ هـ بعد حكم دام سبع سنين فقال: «وكان خير ملوك زمانه، ديناً ومعرفة وقوة وشجاعة ومهابة وجهاداً في أعداء الله تعالى بحيث انه ملك كثيراً من بلاد الحطِّي(*) وأعماله ودخل جماعات من عمال الحطي وولاة أعماله في طاعته وقتل وأسر من أمحرة الكفرة ما لا يدخل تحت حصر[4]».

ثم قال عنه: «وكان يصحب الفقهاء وأهل الفقر من الصالحين وينشر العدل في أعماله حتى في أهله وولده[5]»، بل بلغ من شدة عدله أن اقتص من ابنه لابن أحد الرعية بالرغم من عفو صاحب الحق[6].

---

(١) الالمام: ص ١٢.
(٢) الالمام: ص ١٣.
(٣) المرجع السابق والصفحة.
(*) الحطي هو لقب ملك الحبشة.
(٤) المرجع السابق: ص ١٣.
(٥) المرجع السابق: ص ١٧ - ١٨.
(٦) المرجع السابق: ص ١٨.

وقال عنه: «ومع هذه الفتوحات العظيمة لقد أسلم على يديه عالم من أمحرة لا يحصى عددهم[1]»، كما كان لتسامح بعض الحكام مع الأعداء أكبر الأثر في جذبهم إلى الإسلام، فحين هاجم منصور بن سعد الدين جداية الحبشة وقع في يده نحواً من ثلاثين ألف أسير، خيرهم بين الإسلام والعودة إلى قومهم، فأسلم منهم عشرة آلاف وعاد الباقي إلى قومهم[2].

وذكر العمري أن لمسلمي الحبشة الجوامع والمساجد التي تقام بها الخطب والجمع والجماعات، وقال عن ممالك الحبشة الإسلامية: «وعند أهلها محافظة على الدين[3]» ومن يطالع كتاب فتوح الحبشة لعرب فقيه يلمس صورة حية لحاكم مسلم عادل ورعية مسلمة متمسكة بأهداب الدين ترسمها السطور التي ضمتها دفتي الكتاب، فكان الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول الذي حكم الحبشة بأسرها من سنة ١٥٢٦م إلى سنة ١٥٤٣م «يجلس ويلطف بالمساكين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ويعطف على الأرملة واليتيم وينصف المظلوم من الظالم حتى يرد الحق إلى مكانه ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان مداوماً على الفرائض[4]»، «وحكم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقطع قطاع الطريق واصطلحت الرعية في زمانه واستولى على ملكه وأحب الاشراف والعلماء والفقهاء والفقراء والمشايخ[5]»، كما كان المسلمون في الحبشة - معظمهم - متمسكون بالإسلام، ويؤيد ذلك روح الجهاد التي سيطرت عليهم وما اصطبغت به حروبهم مع الأحباش والمستعمرين[6].

---

(١) انظر: الالمام: ص ١٨ - ١٩.
(٢) الالمام: ص ١٥.
(٣) نقلاً عن القلقشندي: صبح الأعشى: جـ ٥ ص ٣٢٤.
(٤) عرب فقيه: فتوح الحبشة: ص ١٦.
(٥) المرجع السابق: ص ١٤.
(٦) الالمام وفتوح الحبشة: أماكن متفرقة.

وإذا كان الراعي والرعية تتحرى الاسلام(*) في سلوكها، وتصطبغ حياتها به في الحكم والاقتصاد والاجتماع، وتتخذ شريعته دستوراً لحياتها، فلا شك أن ينعكس ذلك على غير المسلمين سواء الرعايا أو من يترددون على المسلمين ويتعاملون معهم «ورجال من النصارى من أهل بالي نازلين إلى بلاد المسلمين ليسلموا»[1] أو من الوثنيين، «ودخل من الكفرة ناس كثير في دين الإسلام ونزلوا معه (الإمام أحمد القرين) إلى بلاد المسلمين»[2].

هذا عن دور دولة الحبشة المسلمة في نشر الإسلام في الجزء الشمالي من شرقي أفريقية أما ممالك المسلمين في الجزء الجنوبي فنرى ابن بطوطة قد وصف[3] سلطان مقدشو ورعيته المسلمة بصورة إسلامية مشرقة وضاءة، صورة حية لحاكم مسلم عادل وحكومة مسلمة رشيدة ورعية تعيش حياة إسلامية رائعة، وقال عن سكان جزيرة منبسي: «وهم شافعية المذهب أهل دين وصلاح وعفاف، ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان[4]». وعن سكان مدينة كلوة (أي سلطنة كلوة): «وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج. والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب[5]». وكان لسلطانها «تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف[6]»، «وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى[7]».

(*) ولا ينافي ذلك روح التعصب الصارخ التي اتصفوا بها في حروبهم مع مسيحيي الحبشة، اذ ان سلوكهم هذا ينم عن غيرة شديدة على الإسلام وتمسك شديد به، فضلاً عن أنه كان رداً للعدوان بالمثل، وهو شيء تقره كافة الشرائع.

(١) عرب فقيه: فتوح الحبشة: ص ٨٢.

(٢) عرب فقيه: المرجع السابق: ص ٧٧.

(٣) انظر: الرحلة (ط بيروت سنة ١٩٦٤) ص ٢٥٤ - ٢٥٧ (مقدشو).

(٤) المرجع السابق: ص ٢٥٧.

(٥) المرجع السابق: ص ٢٥٨.

(٦،٧) ابن بطوطة: المرجع السابق: ص ٢٥٨.

تلك هي صورة المجتمعات المسلمة التي تجاور قبائل وثنية ويعيش فيها أفراد وثنيون، لا بد وأن تؤثر تلك الحياة الإسلامية عليهم جميعاً من يعيش فيها ومن يتردد عليها.

ولقد اعتنت هذه السلطنات بإنشاء المدارس الدينية لتحفيظ القرآن وتعليم أصول الدين والشريعة واللغة العربية، وكان بها القضاة والفقهاء والعلماء الذين كانوا يرحلون إليها من سائر أنحاء العالم الإسلامي[١]، فقاضي مقدشو ابن البرهان مصري الأصل - كما ذكر ابن بطوطه[٢]. وكانت هذه الممالك ترسل الدعاة لنشر الاسلام، فضلاً عن عتق الارقاء وأغلبهم كانوا يسلمون. ولقد بلغت شأواً في الحضارة[٣] بعيد المدى أذهل البرتغاليين حين قدموا إلى تلك الجهات في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل السادس عشر، وكسروا شوكة القبائل الداخلية الهمجية التي كانت تغير على ممالكهم من وقت لآخر، مما جعل تجار المسلمين ومهاجريهم أيضاً يتوغلون في الداخل ويروّضون تلك القبائل على الحياة المتحضرة المستقرة ويحولون بعضهم إلى الإسلام[٤].

وعندما ضمت الحكومة المصرية بعض مناطق من شرقي أفريقية إليها، بعثت اليها العلماء والوعاظ فأدخلوا كثيراً من الإفريقيين في الإسلام، بخاصة بعد أن رأوا المصريين المسلمين يعملون على تمدينهم وإصلاح شأنهم وتوفير الحياة الكريمة لهم، لا كما يفعل الأوروبيون المسيحيون بهم[٥].

(١) Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 61-62 and 138.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة: ص ٢٥٤.

(٣، ٤) انظر: الالمام، وفتوح الحبشة، وابن بطوطة: في أماكن متفرقة.

(٥) شوقي عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) ط الجمعية المصرية للدراسات التاريخية: ص ٤٥، ١٠٢ (ملاحظة)، وحراز: افريقية الشرقية: اماكن متفرقة.

رابعاً: غموض المسيحية وسوء سلوك المسيحيين بشرقي أفريقية:

تقوم المسيحية على عقيدة التثليث التي تتنافى مع عقيدة التوحيد التي يقبلها العقل وألفها الأفريقيون، وعلى مبادىء الحب والتسامح، وقيام مملكة الله حيث المساواة والعدالة[1].

وإذا كانت تلك هي مبادىء المسيحية، فإلى أي مدى تمسك بها دعاة المسيحية بين الأفريقيين، والدول المسيحية التي بعثتهم وظاهرتهم بالمال والعتاد؟

إذا رجعنا إلى دعاة المسيحية بين الأفريقيين نجدهم لم يتزوجوا من زنجيات حتى لا يثيروا شعور أبناء جنسهم عليهم، ناهيك عن التفرقة العنصرية التي أنزلت بسببها ولا تزال تنزل دول أوروبا المسيحية - والمتبنية لحركة التبشير - بالأفريقيين ممن تنصروا ألوان العسف والاضطهاد والتعذيب، بما يتنافى وأبسط المبادىء الانسانية[2].

ولقد حمل هؤلاء المبشرون المسيحية للأفريقيين على أنها دين الأسياد وأما المسيحية التي تعلموها فأوحت إليهم بأنهم أقل وأحط منزلة ممن علموهم وأكثر خضوعاً لهم، بل ان الأدب المسيحي نفسه يكره الزنوج ويحط من قدرهم. والمسيحية تدعو الزنوج إلى الإيمان ولكنها تضعهم في مكان منحط، أما الإسلام فيدعوهم إلى الإيمان، ويجعل وصولهم إلى أسمى الدرجات أمراً سهلاً. والهوة سحيقة بين المعلم المسيحي ومن يتلقى العلم عليه[3]. بل ان المبشرين أنفسهم كانوا يحتقرون الزنوج ويعاملونهم على أنهم من طبقة منحطة[4] وقد فرضوا الحضارة الغربية المادية على

---

(١) يراجع كتاب المسيحية للدكتور أحمد شلبي.

(٢) ارنولد: الدعوة إلى الإسلام: ٣٩٩.

(٣) يوسف عبده: المرجع السابق: ص ١٣ - أرنولد: المرجع السابق: ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٤) وأرنولد نفس الصفحة. Becker: Islam studien 11, P. 200.

الأفريقيين فرضاً وحاولوا القضاء على حضارتهم وثقافتهم مما أثار الأفريقيين عليهم[1].

والدول الأوروبية المسيحية والمتبنية لحركة التبشير بين الأفريقيين استعمرت شعوب أفريقية، واستنزفت ثرواتها، واستولت على خيراتها، وأنزلت بها العذاب والنكال، وكأن المبشرين ـ أداة الدول المستعمرة ـ يخدرون الشعوب الأفريقية بمبادىء الحب والتسامح والخضوع، حتى تركن إلى حياة الذلة والدعة ليتسنى لدولهم الاستعمارية المسيحية استعبادهم واستعمارهم، والاستيلاء على ثرواتهم وخيرات بلادهم. مما جعل الأفريقيين يكرهون المبشرين ويخافونهم ويبغضون ما أتوا به من دين، لأنهم أداة الاستعمار وأعوانه، ولأنهم نسوا رسالتهم الأصلية واهتموا بالأمور المادية[2].

ودخلت تلك الدول الأوروبية الاستعمارية في صراع مع بعضها البعض من أجل السيادة واحتلال الشعوب الأفريقية، ووجد الإفريقيون الأوروبيين منقسمين على أنفسهم متعادين فيما بينهم.

ولم تختلف دول أوروبا هذه ـ التي تبنّت حركة التبشير ـ سياسياً فقط بل اختلفت مذهبياً، وانقسم المبشرون إلى كاثوليك وبروتستانت وانتقل الصراع التقليدي بين الكنائس الأوروبية إلى كنائس أفريقية، وأصبح الأفريقيون في حيرة بين تلك الكنائس المتضاربة المتصارعة[3].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل انقسمت دول أوروبا ثقافياً،

---

(١) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية في شرق افريقية ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية في شرق أفريقية ص ١٧، ١٨ ـ ٢٥ ومحمد عبد المنعم يونس: أوغنده: ص ١٩٧ (دار القلم رقم ١١).

(٣) أرنولد: المرجع السابق: ص ١٣٧ ـ ١٣٨ Franz: Parole et Mission (1971) P. 85.

وأصبحت لغة التبشير والتعليم تختلف باختلاف الـدول. وكما اختلفت الدول الأوروبية على هذا النحو اضطربت مناهج المبشرين ووسائلهم، وأفقد تعليمهم الافريقيين صفتهم القومية، وزلزل ايمانهم بالمسيحية اذ ان الافريقيين رأوا أن الأوروبيين الذين يعيشون بينهم لا يطبقـون مبادىء المسيحية، بل لا يحترم المبشرون عادات البلاد. وفي الناحية الاجتماعية، قطع هذا التعليم صلة الناس بماضيهم وحارب تقاليد اجتماعية سرت في جسمهم مسرى الدم، حتى أصبح الأفريقي الذي تعلم على أيديهم لا يصلح للحياة بين الأفريقيين أو الأوروبيين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اضطربت نظم الأسرة، وتعقدت مشاكلها الاجتماعية، وخلق هذا التعليم هوة سحيقة بين الرجل والمرأة، اذ عنى بالرجل وترك المرأة، مما صرف الرجال المثقفين عن الزواج من غير المتعلمات[1].

وبينما فرض المبشرون والاستعمار المسيحية على الأفريقيين بالتهديد والوعيد، اعتنق الأفريقيون الإسلام اعجاباً به وبما عليه ذووه[2].

وكان أول عهد الناس بهذا الصراع المذهبي حين تدخل البرتغاليون سنة ٩٥٠هـ في الصراع الناشب بين المسلمين والمسيحيين في الحبشـة، ونصروا المسيحيين على المسلمين، فقد استغلوا فرصة ضعف المسيحيين الأحباش واحتياجهم إليهم آنئذ، وتدخلوا في شؤونهم الدينية والسياسية معاً، وحاولوا تغيير مذهب الأحباش اليعقوبي الأرثوذكسي إلى مذهبهم الكاثوليكي[3].

وقد شغل البرتغاليون منصب المطران في الحبشة منذ سـنة ٩٤٥ هـ

---

(١) حسن محمود: المرجع السابق: ص ٣٧، ويوسف عبده: المرجع السابق ص : ٢٤ - ٢٥.

(٢) نفس المصدرين.

(٣) الدعوة إلى الإسلام: ص ١٣٨.

ـ وكانت مصر هي التي تنصب مطران الحبشة من المصريين ـ وعملوا جادين على اتمام كثلكة الحبشة، فأرسلت حكومة البرتغال عدداً كبيراً من القساوسة الجزويت إلى الحبشة لتوجيه الجانب الروحي من عملية تحويل الأحباش إلى المذهب الكاثوليكي[١].

ولقد استقبل الأحباش هؤلاء القساوسة استقبالاً ودياً، وفي سنة ١٦٢٢م تمكن أقدر هؤلاء القساوسة بدرو بايز (Pedro Paez) من اقناع الملك سونيوس (١٦٠٧ ـ ٣٢) باعتناق المذهب الكاثوليكي وحاول هذا بدوره أن يقنع شعبه باعتناق هذا المذهب ففقد ولاء الشعب وأثار عليه رجال الدين. وأخذت تستثير الأحباش التعاليم الكاثوليكية واجراءات تطبيقها على الشعب داخل الكنائس وخارجها، مما أدى إلى قيام ثورة شاملة من جميع طوائف الشعب[٢] لدرجة أن أحد زعماء الأحباش أعلن صراحة: أنه يفضل اعتناق الإسلام عن أن يخضع لهؤلاء البرتغاليين، بخاصة وأن الظروف التي كانت تضطر الأحباش ورجال الدين منهم إلى السكوت كانت قد تقشعت غيومها، وساد الحياة لون من الهدوء النسبي. وتأزمت الأمور مما اضطر الأمبراطور إلى اصدار بيان على شعبه يعتذر فيه عن اعتناقه للمذهب الكاثوليكي ويعلن عودته وعودة شعبه إلى مذهب آبائهم اليعقوبي، ويعلن عن تخليه عن العرش لابنه فاسيلا داس (١٦٣٢م ـ ١٦٦٧م)[٣].

وترتب على ذلك طرد الجزويت من الحبشة واخراج جميع المسيحيين الأجانب منها سنة ١٦٣٢م[٤]. وعندما وصلوا إلى جوا بالهند أرسلوا إلى

---

(١) بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة: ص ١١.

(٢) فتحي غيث: الإسلام والحبشة: ص ١٧٢ ـ ١٧٣، وأرنولد: ص ١٣٨.

(٣) Trimingham: Islam in Ethiopia. P. 99

(٤) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ١٣٩.

ملك إسبانيا ـ وكانت قد فاقت البرتغال آنذاك ـ يقولون ان الـوسيلة الوحيدة لتحويل الأحباش إلى المذهب الكاثوليكي هي تجريد حملة عسكرية عليهم[١]. ولقد اهتزت كنيسة روما لتلك الأحداث فحاولت التـدخل وأرسلت بعض الرسل الفرنسيين مما أزعج الأمبـراطور الحبشي فـاسيلا داس، ودفعه إلى عقد اتفاقية مع الولاة العثمانيين في سواكن ومصوع لاعدام جميع القسس الذين يحاولون دخول الحبشة، وذلك سنة ١٦٤٨م وكان قد وثق صلته بجيرانه المسلمين بأن أرسل مندوباً إلى إمام اليمن (الموحد بالله) سنة ١٦٤٢م يطلب منه أن يطرد أو يقتل أي برتغالي يمر ببلاده، ثم أرسل مندوباً آخر إلى الإمام الذي تلاه عـلى عرش اليمن (المتوكل على الله) يعرض عليه صداقته ويقترح عليه تبادل السفراء[٢].

وفي غمرة هذا الصراع المذهبي بين المسيحيين كان الإسلام ينتشر بين الأحباش اذ ان هذا الصراع كان قد أثار في الحبشة مناقشات دينية حول الديانات المختلفة والمذاهب المسيحيـة المتناقضـة، مما دفـع بعض المسيحيـين لاعتناق الإسـلام. وبدأ الـوثنيون والمسيحيـون يقارنـون بين المسيحية الغارقة في خضم الخلافات المذهبية وبين بساطة الإسلام ووضوحه وسمو مبادئه ورفعة مثله، وذلـك لأن الوثنيـين الكارهـين في الأمحريـة وحضارتها الحاقدين عليها وجدوا في الإسلام متنفساً فمالوا إليه كرهاً في الأمحرية وحضارتها، فقد كانت موسومـة بالكبـرياء الـديني والعنصري. فتهيأت لهؤلاء الساخطين الفرصة للإنتماء لمجتمع عالمي أوسع والتمتع بأخوة إسلامية أكبر مقاماً وأوفر قوة من دولة الحبشة نفسها، فضلاً عن تجرد الاسلام من حواجز اللون والجنس[٣]. كما أن حالة القلق التي أصابت

---

(١) فتحي غيث: المرجع السابق: ص ١٧٣.

(٢) المرجع السابق: ص ١٧٣ ـ ١٧٥. Trimingham: Op. Cit. P. 102.

(٣) حسن محمود: المرجع السابق: ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

مرافق البلاد في القرن السادس عشر والقرن الذي يليه قد مكنت الإسلام من الإنتشار والبقاء، إذ كانت الكنائس المسيحية مشغولاً بعضها بالتنازع مع بعض انشغالاً لم يمكنها من التفرغ لعدوها المشترك[١]، فدخل الأحباش في الإسلام أفواجاً ليصبحوا اخوة لهذا العنصر المثقف المتحضر. حتى أن مانويل دالميدا (Manuel de Almeida) الذي عاش في الحبشة من سنة ١٦٢٤م - سنة ١٦٣٣م كتب يقول: ان المسلمين كانوا منتشرين في طول البلاد وعرضها وانهم كانوا يشكلون ثلث السكان[٢].

ولم يكن ذلك الصراع المذهبي بين المسيحيين، والذي كان أحد الأسباب في تحول الناس عن المسيحية إلى الإسلام - آخر صراع من نوعه بل كان بداية للصراع الذي نشب بين إرساليات التبشير المسيحية، والتي جاءت إلى شرقي أفريقية لنشر المسيحية هناك، فنشب بينها صراع طويل عنيف لاغتصاب تلك البلاد وضمها إلى مناطق النفوذ للدول الاستعمارية التي قدمت منها الإرساليات.

ومما يؤكد ذلك: أن البروتستانت الذين قدموا من بريطانياً للتبشير بالمسيحية في «أوغندا» في أواخر القرن التاسع عشر - حاولوا اكتساب عطف ملكها «موتزا» وألفوا جماعة من الموالين لهم من أهالي البلاد، أطلقوا عليها «Ba Ingleza» كما عمل الكاثوليك الفرنسيون على تنظيم المناصرين لهم في جماعات أطلق عليها اسم (Ba Fransa)، للعمل على ضم هذه البلاد للمستعمرات الفرنسية. ونشب بين الطائفتين صراع عنيف. وما حدث في «أوغندا» حدث مثله في سائر جهات أفريقية[٣].

(١) ارنولد: المرجع السابق: ص ١٣٩ - ١٤٠.
(٢) غيث: المرجع السابق: ص ١٧٥ - ١٧٦، وترمنجهام: ص ١٠١ مع العلم بأن عدد الوثنيين آنئذ كان يناهز النصف، مما يثبت أن عدد المسلمين منذئذ أخذ يزيد عن عدد المسيحيين.
(٣) محمد عبد المنعم يونس: أوغندا: ص ٢٥.

ولو كان هدف الجماعات التبشيرية هذه دينياً فقط لتعاونت جميعها في جهد مشترك لنشر المسيحية، وأقاموا مملكة الله حيث العدل والمساواة. تلك المبادىء التي جاءوا يدعون الناس إليها وهم أبعد ما يكونون عنها. وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح الإسلام ما كان للمسلمين من تفوق أدبي إذا وزنوا بسائر أهالي الحبشة المسيحيين، بينما كان المسيحيون لا يعلمون أبناءهم إلا عندما يزمعون القيام بأعمال الكهنوت[1].

ولا شك أن جهل رجال الدين المسيحي وجمهرة المسيحيين بأصول دينهم وضيق تفكيرهم صرفهم أنفسهم عن المسيحية إلى الإسلام حتى رأينا قبائل مسيحية كثيرة تحولت إلى الإسلام وإن بقيت أسماؤها المسيحية تدل على دينها السابق[2].

وفوق هذا وذاك فإن سياسة المسيحيين التي اتبعوها في اضطهاد مخالفيهم في الدين أو المذهب، وإجبار المسلمين على التعميد ودفع العشور وإجبار الوثنيين على التنصر، وأصحاب المذاهب المسيحية المخالفة على اعتناق المذهب اليعقوبي في الحبشة والسائد فيما عداها من بقاع شرقي أفريقية، قد بغض هؤلاء جميعاً في المسيحية، وجعلهم يتحولون إلى الإسلام اعتصاماً بعدله وسماحته، بل ان المسلمين الذين أجبروا على التنصر ظلوا على ولائهم للإسلام، واستغلوا كل ما أتيح لهم من إمكانيات لنشره[3].

«فلا عجب إذا عرفنا أن هذه الوسائل التي تقوم على العنف والارهاب لم تؤد إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين جميعاً نحو الدين المسيحي» وقد اغتنم ملك ولاية كافا الصغيرة

(١) أرنولد: المرجع السابق: ص ١٣٩.
(٢) أرنولد: المرجع السابق: ص ١٤٠.
(٣) أرنولد: المرجع السابق: ص: ١٣٨ - ١٤١.

واسمه (Sawo Teheno) فرصة ارتباك الملك جون (١٢٨٥ - ١٣٠٦هـ) الذي هدده الايطاليون وأتباع المهدي في وقت واحد تقريباً، فأعلن استقلاله واعتنق الإسلام ليصير بذلك أقوى نفوذاً فيما يفعل[١]. وما تحول هؤلاء وأولئك إلى الإسلام إلا لسماحة أهله، فقد كان المسلمون في تلك البلاد لا يعرفون التعصب الديني في أي صورة من صوره، ولا يضمرون للمسيحية أي نوع من العداء[٢].

وبينما كانت عادات الأفريقيين وتقاليدهم يمكن أن تتوافق في سهولة ويسر مع العادات والتقاليد الإسلامية بخاصة بعد أن يتناولها الإسلام بالتهذيب تدريجياً، نجد المبشرين يطالبون الأفريقيين بما ليس في مقدورهم ويحرمون عليهم متع الحياة البريئة، ويأمرونهم بتغيير أوضاعهم في مجتمعاتهم وبيئاتهم فجأة، فقد دأبوا على تحريم تعدد الزوجات وعبادة الاسلاف ونحر القرابين والاعتقاد في السحر. كما كافحوا عادات أخرى كالمهر، وسلخوا الافريقيين الذين اعتنقوا المسيحية عن قومهم وعشيرتهم وعن عاداتهم المحببة اليهم، فأصبحوا غرباء عن مجتمعهم[٣].

و «الحقيقة - كما قال ديشان - ان التنصير قد قلب أوضاع حياة الزنوج في بيئتهم ومجتمعهم حتى أنه كثيراً ما يوصف هذا الانقلاب بكلمتي: الموت الشخصي والاحتضار المعنوي[٤]».

هذه العوامل وغيرها صرفت الأفريقيين عن المسيحية إلى الإسلام، وأما من اعتنقها من زعماء القبائل الأفريقية، فلم يفعلوا ذلك عن اقتناع، بل بغية الانتفاع بتأييد البعوث التبشيرية في تمدين شعوبهم وحماية قبائلهم[٥].

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ١٤٢.
(٢) أرنولد: المرجع السابق: ص ١٤٠.
(٣) حسن محمود: الاسلام والثقافة العربية: ص ٥٦ (بتصرف).
(٤) هوبير ديشان: الديانات في أفريقية السوداء: ص ١٧٤.
(٥) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية في شرق أفريقية: ص ١٥ - ١٦

فإفريقية تحتاج إلى إيدولوجية تعطي معنى وهدفاً لحياة سكانها، ولن يحقق لها ذلك سوى الإسلام، فهو الذي يمنحها كلها دولاً وشعوباً طريقة ديناميكية للحياة تهبها النور المرشد في فترات حضارتها الزاهرة، والملاذ في أوقات محن الاستعمار والشدائد التي تحل بها[١].

وهكذا يتبين لنا أن الإسلام قد انتشر في شرقي أفريقية بالدعوة وحدها، وأن هناك عوامل قد ساعدت على انتشاره، ناقشنا كلاً منها على حدة.

لكن إذا كان الإسلام قد انتشر هناك بالدعوة وحدها فما هي الوسائل التي نشرته إذن؟ وما دور كل منها؟

هدا ما سنجيب عليه في الفصل الثاني..

---

(١) Toward, Freedom and Dignity, (c) 1970, London Islamic Circle, P. 35.



الفصل الثاني

الوسائل التي نشرت الإسلام في شرقي أفريقية



أولاً: التجار(*) والمهاجرون المسلمون ودورهم في نشر الإسلام بشرقي أفريقية:

نزل التجار والمهاجرون المسلمون على امتداد الساحل الشرقي لأفريقية، بالمدن التجارية التي كانوا يترددون عليها قبل الإسلام، ولكنهم أتوا إليها بدين جديد ذي مناسك وعبادات وأخلاق غيرت منهم في السلوك والتعامل، مما حبب الأفريقيين في هذا الدين، وكثير من هؤلاء المهاجرين علماء ومحدثون وفقهاء سخطوا على ما وصل إليه حال المسلمين في بلادهم، وفيهم قادة دينيون وسياسيون اختلطوا بالأفريقيين في الأسواق، إذ كان بعض أفراد من قبائل البجة والسومال والجالا والبانتو يغشون تلك الأسواق للحصول على ما يحتاجونه منها أو لبيع حاصلاتهم وما عندهم من الرقيق والعاج والمعادن وأشياء أخرى، وكان لهذا التعامل والاختلاط أثره في اعتناق هؤلاء الأفراد الإسلام، ثم في العودة به إلى عشيرتهم فاعتنقه بعضهم، فبذلك انتشر الإسلام بين بطون تلك القبائل منذ عصر مبكر(1).

(*) انظر: رحلات التجار المسلمين بالفصل الأول من الباب الثاني.

(1) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٩٧، وآدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٧٧ وما بعدها.

= G. Parrinder: Riligion in Africa, P. 193.

ولم يقف الأمر عند رحلة أفراد من القبائل الأفريقية ليختلطوا بالمسلمين في المدن الساحلية تلك، بل رحل بعض المهاجرين المسلمين والتجار للداخل سعياً وراء الرزق أو للحصول على مواد التجارة، واستقر بعضهم بين الأفريقيين بالداخل واشتغلوا فيما يعملون فيه من الزراعة والرعي والتجارة لأنهم أتوا من أماكن ذات حضارة وعلى علم بالزراعة وغيرها من الصناعات، وكان لاحتكاكهم أثر كبير في تحويل الأفريقيين إلى الإسلام، وأنشأوا مراكز استقرار لهم بالداخل وأسواق وتزوجوا من تلك القبائل، وأدت المصاهرات إلى زيادة التقارب والتفاهم والتعمق في فهم الإسلام، والقبائل الأفريقية هذه تعيش على الرعي والنقلة فنشرت الإسلام حيث حلت وشارك تجار الكارم بجهد كبير في نشر الإسلام في شرقي أفريقية، واتضح كيانهم التجاري في عصر الدولة الفاطمية، إذ ذكر القلقشندي: أن «الفواطم قد أعدوا أسطولاً بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب فيحميهم الأسطول منهم[1]». وكان لنجاح الأيوبيين في اقرار النفوذ المصري الإسلامي في البحر الأحمر، وفي تنظيمهم شؤون التجارة في بلدان البحر الأحمر وموانيه - ضمان استقرار هؤلاء التجار ونمو تجارتهم في تلك المناطق الاسلامية. إلّا أن عظمتهم التجارية قد تجلّت وتأكدت عندما قاموا بدور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب منذ القرن الخامس الهجري، وأصبحوا التجار الرأسماليين المتوفرين على تجارة الشرق[2].

= وانظر: دافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة ص: ٢٧٨، ٢٨٤ - ٢٨٥.

(١) صبح الأعشى: جـ ٣ ص ٥٢٤.

(٢) التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، بحث للدكتور صبحي لبيب بالمجلة التاريخية المصرية ص ٧ العدد الثاني، مايو سنة ١٩٥٢م.

وقد أثرت الحروب الصليبية وما أنتجت من صراع بين الشرق والغرب تأثيراً عميقاً في تشكيل تلك الطائفة. فكانت هذه الطائفة القوية المتماسكة من التجار المسلمين ومن أراد أن ينضم اليهم من غير المسلمين فلا بد أن يتحول إلى الإسلام. فتحزبوا حول دينهم وتجارتهم وثقافتهم الإسلامية[١].

ولقد توفر الكارمية على تجارة التوابل. وذكر ابن سعيد الجغرافي العربي الذي عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي - أن سواكن كان لها نشاطها التجاري المرموق، وأن ملكها من البجة المسلمين، وأن له ضرائب على مراكب الكارمية المارة بين الحجاز واليمن وعيذاب. وأما زيلع فكانت أهم ثغر للحبشة، وكانت تتجمع فيها المتاجر التي يحملها الكارمية ليوزعوها على الأسواق العالمية. وكذلك دهلك[٢].

وكان تجار الكارمية هؤلاء مسلمين، يخدمون الإسلام والعالم كله بنشاطهم المالي والتجاري، ويبذلون من مالهم في سبيل نشر الثقافة الإسلامية، وينهلون من علوم الإسلام وثقافته، وينشرونها في دروب الأرض ما وسعهم الجهد[٣]، فنشروا الإسلام وثقافته في شرقي أفريقية، بل انهم حملوا طلاب العلم وبنوا لهم المدارس وبيوتاً لاقامتهم. وكانوا على جانب كبير من التقوى والورع، وكان منهم محدثون وفقهاء، وقراء اتخذوا التجارة حرفة لهم[٤]. وقد حدثنا باربوسا في سنة ١٥١٨م عن أكبر مرفأ جنوب شبه جزيرة العرب آنذاك قال: كان يتلقى فيه تجار المحيط الهندي كلهم يبيعون ويشترون ويتبادلون ما يعرفون من ثقافة وما يحذقون من علم[٥].

---

(١) المرجع السابق: ص ١٢ وما بعدها.
(٢) نقلاً عن التجارة الكارمية، المرجع السابق: ص ١٩.
(٣) المرجع السابق: ص ٣٩.
(٤) المرجع السابق: ص ٣٩ - ٤١، وحسن محمود: الإسلام والثقافة العربية ص: ٥٥ - ٥٦.
(٥) نقلاً عن: دافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة: ص ٢٧٤ (مترجم).

وكان التجار المسلمون يوطدون صلاتهم بالطبقة الحاكمة، وكان الأمراء والحكام يرحبون بهم ترحيباً عظيماً، فهم وسيلتهم للكسب والثراء، وكانوا يساعدون التجار على تصريف ما معهم وشراء ما يحتاجونه وكانت الصداقات تنقلب إلى دعوة للإسلام ، وكثيراً ما كانت تنجح فيسلم الأمير وتتبعه حاشيته، ثم تتأسى به الرعية[1].

وإذا كان نفوذ التجار المسلمين قد بلغ هذا المدى في البلاد التي لم تكن للمسلمين فيها سلطة سياسية فأي مدى بلغ نفوذهم في البلاد التي كان لهم فيها الكلمة والسلطان؟

لقد كان التجار المسلمون عدة الدعوة الإسلامية، فقد لعبوا الدور الأول في نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، بل بنظام حياتهم الإسلامية بين الأفريقيين، فقد كانوا يخالطون الناس وينشرون الإسلام، ويتزوجون منهم. وكان الأفريقيون يرحبون بهذا التصاهر، لتفوق المسلمين عليهم[2].

وكان هؤلاء التجار يفتحون الكتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الثقافة الإسلامية لأبناء المسلمين والوثنيين معاً، إذ كانوا يقبلون على تلك المدارس بشغف. وأكثر من هذا فإن هؤلاء التجار كانوا يرسلون المتفوقين من الطلاب إلى مساجد العلم ومدارسه في القاهرة والحرمين ودمشق وغيرها للتعمق في دراسة الإسلام يرتشفون من معين لا ينضب. وكان العالم الإسلامي حفياً بهؤلاء الطلاب، فقد خصص لهم أماكن في دور العلم ومساجده، كالأزهر ومسجد دمشق الجامع وغيرهما، للإقامة وطلب العلم، وأمدهم بالعطاء حتى يتمكنوا من طلب العلم والتعمق في دراسة الإسلام:

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: نفس المكان.

Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 62, 138

عقائده وعباداته وتشريعاته وأخلاقه[1]، ليعودوا فينشروه بين سكان البلاد التي أتوا منها، وليوضحوا لأهلهم وذويهم مبادئه وأحكامه. وقد قام من رجع منهم بدور الداعية والقاضي والفقيه والزعيم أيضاً، بل أوجدوا نهضة علمية وثقافية ساعدت على نشر الإسلام في شرقي أفريقية والحبشة[2].

ثانياً: الدعاة والمعلمون:

كان المسلمون الذين استقروا بشرقي أفريقية، تجاراً ومهاجرين، أو الذين توافدوا عليها في فترات معينة للاتجار مع أهلها، على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم كانوا جميعاً دعاة للإسلام بين الأفريقيين، بطريق مباشر عن طريق تحمسهم لدينهم ودعوتهم الناس إليه، إذ ان كل مسلم داعية إلى دينه أو بطريق غير مباشر، لتمسكهم بأهداب الدين ومبادىء الخلق القويم، فكانت حياة غالبيتهم وسلوكها نموذجاً حياً يتجسد فيه الإسلام بعظمة مبادئه وسمو أخلاقه، مما جذب الأفريقيين إلى الإسلام جذباً، لإعجابهم الشديد به وبرقي معتنقيه[3].

وفي الحق فإن قليلاً من المسلمين المتمسكين بدينهم تمسكاً صحيحاً، والذين يتصلون بالكفار يومياً، يهملون ما أوصاهم به نبيهم (عن الله عز وجل)- : ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[4]. ومن ثم نجد إلى جانب أرباب الدعوة المحترفين أخباراً تاريخية لنشر العقيدة الإسلامية، تتضمن سجلاً بأسماء رجال ونساء من جميع طبقات المجتمع - من الملك إلى الفلاح، ومن كل الصنائع والحرف - قاموا بأعمال ابتغاء

(١) نفس المكان، ورحلة ابن بطوطة: ص ٩٠

(٢) زاهر رياض: الإسلام في أثيوبيا: ص ١٥١، Op. Cit. PP. 138

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٩١ - ٣٩٢.

(٤) سورة النحل: الآية ١٢٥.

نشر دينهم، بل ان الأسير ليغتنم الفرصة لدعوة زملائه في الأسر إلى الإسلام[1]، إذ ان طبيعة الإسلام تجعل كل مسلم داعية لدينه فلا كهنوتية في الإسلام.

فالتاجر المسلم يجمع بين الدعوة إلى الإسلام وبيع سلعته، وطبيعة مهنته توثق صلتة بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام دون شك في حسن نواياه. وبمجرد أن يدخل مثل هذا الرجل قرية وثنية سرعان ما يلفت الأنظار إليه بكثرة وضوئه وانتظام أوقات الصلاة والعبادة التي يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائناً خفياً. وفوق ذلك فإن ما يتحلى به من سمو عقلي وكمال خلقي ليفرض على الأهالي الوثنيين احترامه والثقة به. والذين يبدي لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في أن يمدهم بمزاياه ومعارفه السامية[2].

والحاج الذي عاد من مكة مليئاً بالحماسة من أجل نشر الإسلام، ويقف على ذلك كل جهوده، متنقلاً من مكان لآخر، يعيش على صدقات المؤمنين الذين يبدون ضروب العون والحب والتآخي أمام الوثنيين[3].

والعالم الذي تفقه في الدين والشريعة الإسلامية، يقابل بأوفى مظاهر الحفاوة والتكريم والتبجيل في كل مكان، يزاول الطب أحياناً، ويكتب تعاويذ وآيات قرآنية تطوى في قطع من الجلد أو القماش وتعلق على الأذرع أو حول العنق، وهي مهمة يستغلها لإكثار عدد المتحولين إلى الإسلام[4].

ويحظى هؤلاء المعلمون الدينيون بأوفى نصيب من التقدير. وفي الدول التي اتخذ فيها القرآن أساساً للحكم في المسائل المدنية تحتاج الدولة

(١) أرنولد: المرجع السابق: ص ٤٥٠ ـ ٤٥٣ (طـ٣).
(٢، ٣، ٤) أرنولد: المرجع السابق: ص ٣٩١ ـ ٣٩٣ (بتصرف).

لهم احتياجاً شديداً ليفسروا معاني القرآن الكريم. وبلغ من اجلال الناس لهم أنه لا يتعرض لأحدهم بسوء إذا جاسوا خلال بلاد أمراء بينهم عداوة أو مشتبكين مع بعضهم في حروب فعلية. ويجلهم الناس ويحترمونهم لا في البلاد الإسلامية وحدها، بل وفي البلاد الوثنية أيضاً، والتي يؤسسون فيها مدارسهم، لأنهم يعتبرونهم معلمي أبنائهم وواسطة بينهم وبين الله في قضاء حاجاتهم ودرء المصائب عنهم[1].

وقد درس كثيرون من هؤلاء الدعاة في مساجد القيروان وفاس وطرابلس وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية، بخاصة الأزهر الذي صار قبلة أبناء العالم الإسلامي أجمع خصوصاً بعد أن ورثت القاهرة بغداد في مركزها الديني والثقافي والعلمي بعد أن تم إحياء الخلافة العباسية فيها سنة ٦٥٩هـ / سنة ١٢٦١م، على أثر إسقاطها في بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ / سنة ١٢٥٨م، وأضحت مصر بذلك حامية الخلافة الإسلامية وحارسة الإسلام، ولذلك حرص كثير من ملوك المسلمين وأمرائهم على تفويض بالحكم من الخليفة العباسي، وعلى استرضاء سلاطين المماليك باعتبارهم أكبر قوة حربية وسياسية في العالم الإسلامي أجمع، والمتمتعين ببيعة الخلافة والقائمين على حمايتها، ومنهم أمراء الممالك الإسلامية بأفريقية الشرقية أيضاً. ونزح إلى الأزهر طلاب العلم من جميع بقاع العالم الإسلامي ومنها شرقي أفريقية، ينهلون من معين لا ينضب، لاعتقادهم أن العلم يوجد حيث توجد الخلافة. ومن بين طلاب العلم الذين وفدوا على الأزهر عدد كبير من مسلمي الحبشة وشرقي أفريقية والذين خُصِّصَت أروقة بالأزهر لاقامتهم والقيام بأمرهم[2]. واستمر نزوحهم الى الأزهر قروناً طويلة. ولا زالوا يأتون اليه، فمن أولئك الأحباش الذين جاوروا بالأزهر

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٩٢ (بتصرف)
(٢) سعيد عاشور: بعض أضواء جديدة على علاقة مصر بمسلمي الحبشة: ص ٦ - ٧
Trimingham: Islam In Ethiopia: P. 62.

وبرزوا في ميدان العلم الامام الزيلعي فخر الدين عثمان بن علي، شارح الكنز، والمتوفى سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٢م)، والمحدث الزيلعي جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد المتوفى سنة ٧٦٢هـ (١٣٦١م)، والعارف بالله الشيخ علي الجبرتي الذي اعتقد السلطان قايتباي في ولايته وصلاحه، وغيرهم كثيرون. وقد عاد معظم هؤلاء الذين أتموا دراستهم بالأزهر إلى بلادهم حيث قوبلوا بمظاهر الحفاوة والتكريم، وتولوا المناصب الدينية الكبرى: كالقضاء والافتاء وغيرهما، بل كان لبعضهم الزعامة الدينية والسياسية أيضاً، وعملوا على نشر الإسلام وثقافته بين مواطنيهم[١].

وأنشأ بعض هؤلاء الدعاة مدارس في المدن التي زاروها، حيث اختلف اليها أطفال الوثنيين والمسلمين على السواء، فحفظوا القرآن وتفقهوا في الإسلام، فإذا نجح الداعي المسلم على هذا النحو بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة الساميتين، فإنه لا يتوانى عن أن يؤثر تأثيراً كبيراً في الناس الذين جاء ليعيش بينهم، ويساعده على ذلك مشابهة عاداته وطباعه لعاداتهم وطباعهم وبتزوجه منهم واستقراره بينهم، تنتشر بينهم معارف الإسلام شيئاً فشيئاً بطريقة طبيعية[٢].

ولم يكن هؤلاء العلماء والدعاة من أبناء البلاد فقط، بل كان يفد كثير من العلماء والدعاة من أرجاء العالم الإسلامي على الممالك الإسلامية بإفريقية الشرقية، وكانت لهم مكانة سامية رفيعة لدى سلاطينها وشعوبها معاً، فيحدثنا ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي، بأن قاضي مقدشو ابن البرهان مصري الأصل، وأن مكانته لدى السلطان والشعب

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق: ص ٧ ـ ٨.

(٢) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية في شرق أفريقية: ص ١٥ ـ ١٦، وأرنولد: المرجع السابق: ص ٣٩٣.

Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 62 and 138

معاً فاقت كل وصف[1]، فضلاً عن الأئمة والعلماء والفقهاء الذين هاجروا إلى هناك لاضطهادهم في أوطانهم.

وبالرغم من أنه لا يعرف عن جهود العلماء والدعاة الوافدين في العصور الأولى شيء إلا أننا نعلم أنه في سنة ٦٩٩ هـ رحل الشيخ أبو عبد الله محمد إلى الحبشة ودعا أهلها إلى الإسلام، ووحد صفوفهم وتزعمهم لدفع تعدي الأحباش المسيحيين عليهم. ومنذ العصور الأولى لا بد أن أفريقية الشرقية كانت مسرحاً لدعاية إسلامية نشطة، لقربها من شبه جزيرة العرب مهد الدعوة الإسلامية[2]، فابن بطوطة قد ذكر، أن الأشراف والعلماء كانوا يأتون إلى تلك الممالك الإسلامية بشرقي أفريقية، وقد رآهم بنفسه في مقدشو وكلوة سنة ٧٣١ هـ. وذكر أن سلاطين تلك الممالك كانوا يحتفون بهم ويقدمون لهم الهدايا والهبات[3].

ولقد أرسل الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي (٩١٢ ـ ٩٥٠هـ) الدعاة إلى كل مكان انتصر فيه على القوة السياسية لدولة الحبشة المسيحية، ليشرحوا لأهلها مبادىء الإسلام[4].

وفي القرن التاسع الهجري، وفد على الحبشة جماعة من حضرموت، مكونة من أربعة وأربعين داعياً عربياً يدعون أهلها إلى الإسلام، ونزلوا في بربرة على البحر الأحمر، ومنها انتشروا في بلاد الصومال يدعون الناس إلى الإسلام. وقد شق أحدهم ـ وهو الشيخ أبو زرباي ـ طريقه إلى مدينة هررحول سنة ٨٣٥هـ، واكتسب هناك كثيرين من الذين تحولوا إلى

---

(١) الرحلة: ص: ٢٥٤.
(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٩١٦.
وأرنولد: المرجع السابق ص ٣٨٧.
(٣) الرحلة: ص: ٣٥٨.
(٤) عرب فقيه: فتوح الحبشة: أماكن متفرقة.

الإسلام، ولا يزال قبره موضع تعظيم في هذه المدينة. وبالقرب من مدينة بربرة جبل يسمى جبل الأولياء تخليداً لذكر هؤلاء الدعاة الذين كانوا يجلسون هناك في خلوة للعبادة، قبل أن ينتشروا في طول البلاد وعرضها داعين إلى الإسلام[1].

ومن المؤكد أن جماعات أخرى من جميع أرجاء العالم الإسلامي قد أتت إلى شرقي أفريقية لتدعوا الناس إلى الإسلام على امتداد القرون، فقد وفد على مملكة الفنج[*] بسنار في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين. جماعة من رجال العلم والصوفية، عملوا على نشر العلم والثقافة الإسلامية في مملكة الفنج بخاصة وفي ممالك شرقي أفريقية الإسلامية بعامة مما ساعد على نشر الإسلام بتلك الأنحاء.

ومن هؤلاء العلماء: الشيخ إدريس محمد أحمد، والشيخ حسن ولد حسونة الأندلسي، والشيخ إبراهيم برجال البولاقي من مصر، وهو أول من درس مختصر الشيخ خليل المالكي ببلاد الفنج، ونفع الله به خلقاً كثيراً، ووفد كذلك الشيخ محمد المصري، ودخل سنار، وأقام ببربر، ودرس فيها سائر العلوم، وتولى القضاء وباشره بعفة ونزاهة. والشيخ تاج الدين البخاري من بغداد وعنه اشتهر طريق الصوفية ببلاد الفنج[2].

وفي القرن الثالث عشر الهجري، نهض دعاة الإسلام المشهورون من أمثال الوهابيين والمهدويين والسيد أحمد بن إدريس الفاسي. وقد امتد تأثير هؤلاء الدعاة حتى شمل جميع القبائل التي تتكلم اللغة التيجرية، بالإضافة إلى قبائل بني عامر وباقي فروع البجة، التي سبقتهم إلى الإسلام

---

(١) أرنولد: المرجع السابق ص: ٣٨٧.

(*) وردت هكذا في هذا المخطوط أيضاً (الفونج).

(٢) محمد أبو بكر مكي: تاريخ النوبة والفنج (مخطوط مصور بآداب الاسكندرية رقم ٢٣١٩ ب) ص: ٤. (ذي الحجة سنة ١٢٩٦هـ).

بتأثير مملكة الفنج السودانية. وقد بلغ نشاط دعاة الإسلام أولئك ذروته في عهد محمد عثمان الميرغني. وما أن فتحت مصر شرقي أفريقية في النصف الثالث عشر الهجري حتى تم إسلام معظم سكان تلك الأنحاء[1].

والحق أن أفريقية الشمالية الشرقية تمثل لنا صورة لنشاط ذي حيوية وحماسة رائعتين في نشر الإسلام من قبل المسلمين منذ بداية القرن الثالث عشر الهجري، إذ تفد عدة مئات من شبه جزيرة العرب كل عام يدعون الناس إلى الإسلام[2]، وكذلك من جميع أنحاء العالم الإسلامي بخاصة مصر، فقد استقدمت الحملات المصرية كثيرين من علماء الأزهر، وأسست المساجد والمدارس التي أصبحت مراكز اشعاع للإسلام وثقافته، وأشاعت الأمن وعممت النظام ومهدت الطرق. واستطاع التاجر والداعية من المسلمين أن يشقا طريقهما إلى مناطق كانت مغلقة في وجههما حتى ذلك الوقت، وحوّلا الوثنيين إلى الإسلام بسهولة[3].

ولما استعمرت الدول الأوروبية شرقي أفريقية، وبسطت سيطرتها على القبائل الأفريقية البدائية المتبربرة بالداخل، ومهدت الطرق، ومدت السكك الحديدية ساعدت بذلك على نشر الإسلام من حيث لا تريد، إذ ان القبائل المتوحشة كانت تغير على المناطق الإسلامية الساحلية من حين لآخر، فأهل كلوة (المسلمين) «أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج»[4] فكانت همجيتهم تلك تحول بينهم وبين الدعاة والتجار المسلمين وهو السبب الأول في بطء انتشار الإسلام بالمناطق المحاذية

---

(١) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ: ص: ١٨٤.

Q. Parrinder: Religion in Africa, P. 194.

(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٣) شوقي عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣ - ٧٩) ص ١٠٢، وص ٤٥، ٤٦، ٨٢، ٨٧، ١٣٩. (ط أولى)، وأرنولد: نفس المكان.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة: ص ٢٥٨.

للساحل من شرقي أفريقية. ولكن الاستعمار - لأنه كان يسعى لاستغلال الداخل وقد أتى بقوة حربية منظمة مسلحة بأسلحة فتاكة لا قبل لتلك القبائل بها - استطاع التوغل في الداخل إلى حيث يريد ممهداً الطرق ومادًا السكك الحديدية، وبذلك يسر الطريق للتاجر والداعية المسلمين أن يصلا إلى التجمعات الداخلية وأن يحولاها إلى الإسلام بعد أن شاع الأمن وأنشئت حكومات أكثر استقراراً. بالإضافة إلى أن تلك الحكومات أسندت آلاف الوظائف إلى المسلمين - لأنهم الطبقة المثقفة في البلاد - فاستغلوا نفوذهم في تحويل قرى وثنية بأجمعها إلى الإسلام، كما جعلت مدرسي مدارس الدولة مسلمين فكرسوا جهودهم لنشر الإسلام وثقافته وتحويل تلاميذهم إلى الإسلام، بل ومواطنيهم أيضاً. وجعلت جيشها من القبائل الإسلامية، وزادت بذلك من شهرة الإسلام بين الوثنيين. ولم يتوانَ المسلمون عن استغلال هذه الظروف فحولوا الوثنيين إلى الإسلام. وقد أثر هؤلاء في الزعماء وغيرهم من الشخصيات الهامة التي اتصلت بهم لدرجة أن بات الدخول في الإسلام هو التصرف السليم الوحيد للذين اشتغلوا في الدوائر الرسمية وبعد فترة وجيزة دخل الناس في الإسلام أفواجاً[1]. ولقد حقق الدعاة المسلمون نجاحاً مستمراً، واستطاع الداعية المسلم أن يحول جموعاً إلى الإسلام أكثر بمجهود أقل من مجهود المبشرين[2] وتصور عبارات توماس أرنولد تفاني الدعاة المسلمين وحماسهم الشديد لنشر الإسلام إذ قال: «الشواهد لا تعوزنا على وجود جهود منظمة في نشر الدعوة، كتلك الجهود التي قام بها معلم مسلم، ذكر أنه كان يزور منطقة في بلاد كلمنجارو زيارة منتظمة، وظل على ذلك خمسة شهور، يدعو إلى الإسلام،

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٨٢ - ٣٨٣، ٣٩١ - ٣٩٣

Becker: Islam studien, 11. Passim

(٢) المرجع السابق: ص ٣٨٦، ٣٤٣ - ٣٤٤، وانظر:

G. Parrinder, Religion in Africa, p. 194.

وقد رحب بجهوده، الأهالي الذين كان يقيم لهم ولائم يقدم لهم فيها طعام الأرز وغيره.

ومما يلفت النظر في هذه الدعوة الحماسية أن الدعـاة لم يقصروا اهتمامهم على الوثنيين وحدهم، بل سعوا أيضاً إلى كسب متحولين إلى الإسلام من بين الأهالي المسيحيين»[1]. وساعد المسلمين على نشر دينهم ما كان لهم من تفوق أدبي على سائر السكان.

يقول روبل: «إنه كثيراً ما لاحظ خلال رحلاته في بلاد الحبشة أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص الذي يشغلها أميناً كل الأمانة موثوقاً به تمام الثقة، كان اختيارهم دائماً يقع على شخص مسلم»[2]. ولقد ارتبط الإسلام بالعلم وكان لهذا الارتباط أثـره في حياة الأفـريقيين، إذ لا يكـاد المرء يسلم حتى يتعلم القـراءة والكتابة، ويرتفع قدره اجتماعياً كلما زادت ثقافته. وفي كل مكان تسرب إليه الإسلام انتشرت الكتاتيب والمدارس، وأقبل الأفريقيون عليها لرغبتهم في تعلم القراءة والكتابة والتزود بالعلم والثقافة. والتاريخ الإسلامي حافل بالعلماء السودانيين الذين تعلموا ووصلوا إلى درجة القضاء والفتيا والإمامة أيضاً، وذاعت مؤلفاتهم في العالم الإسلامي أجمع[3].

ومما ساعد هؤلاء الدعاة والمعلمين أيضاً ـ كما يرى ترمنجهام ـ أن رجال الدين المسلمين يمكن اعدادهم بعد تدريب بسيط، بحفظ سور من القرآن الكريم أو معرفة أصول الدين، ثم هم لا يختلفون عن سكان البلاد الأصليين في شيء، ومن الممكن أن نجد في القرية الواحدة أكثر من

(١) أرنولد: المرجع السابق: ص ٣٨٣.
(٢) نقلاً عن أرنولد: ص ١٣٩ (ط ٢)
(٣) حسن محمود: المرجع السابق: ص ٤١ ـ ٤٢.

معلم من هؤلاء الناس على حين نجد الكهنوت الغربي برسومه وتقاليده معقداً غاية التعقيد[1].

وساعد هؤلاء الدعاة أيضاً أن اللغة العربية انتشرت على نطاق واسع هي واللغة السواحلية التي هي مزيج اختلاط البانتو بالعربية الوافدة وأصبحتا لغتي التفاهم والعلم والثقافة الإسلامية في شرقي أفريقية[2].

ومن الأسباب التي يسرت جهود الدعاة المسلمين في نشر الدعوة: أن الاعتقاد بوجود الله مع انكار الوحي والأديان (Deism) وهو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الأوثان - يمكن أن يتحول في سهولة إلى عقيدة التوحيد وكذا بعض مظاهر في فلسفتهم الدينية. وهكذا فإن نظرتهم إلى الحياة وكثيراً من شرائعهم الدينية يمكن أن تصطبغ بصبغة إسلامية[3].

وقد قدم هؤلاء الدعاة المسلمون إلى الوثنيين نصيباً من مزايا الحضارة المادية مع الدين الإسلامي، وبذلك وجدوا استجابة سريعة منهم دائماً، فقد استطاع الداعية المسلم أن يمدهم بكثير من الحقائق المتعلقة بالله والانسان تصل القلب وتنمي الإدراك. بل استطاع ان يمنحهم ترخيصاً بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية، تخولهم حق الحماية والمساعدة في مسافة تمتد من المحيط الأطلنطي إلى سور الصين. «وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك داراً إسلامية يجد الأسود الذي تحول إلى الإسلام والذي يستطيع أن يسرد أركان عقيدته، واثقاً من المأوى والقوت والنصيحة،

(١) نقلاً عن المرجع السابق والصفحة.
(٢) المرجع السابق والصفحة، وعوامل انتشار الإسلام في شرق أفريقية، مقال لعبد السلام شحاته، بمجلة نهضة افريقية (٥/٥٩) اكتوبر سنة ١٩٦٢م ص ٢٩. وديشان: الديانات في أفريقية السوداء: ص ١٣٤.
(٣) ديشان: الديانات في أفريقية السوداء: ص ١٢٨ - ١٢٩، وأرنولد: ص ٣٩١.

وسرعان ما يجد نفسه في بلاده عضواً في طبقة ذات نفوذ إن لم يكن في الطبقة المتسلطة»[1].

ولقد كان هؤلاء الدعاة والمعلمون المسلمون صورة حية للإسلام في سمو مبادئه، مما جعل لهم تأثيراً كبيراً على السكان فتحولوا إلى الإسلام[2].

ثالثاً: الطرق الصوفية ودورها في نشر الإسلام:

تجد الطرق الصوفية رواجاً في البيئات الساذجة والمجتمعات البسيطة، حيث تقل تبعات الحياة وهمومها ومشاغلها، وحيث تكون الفطر خالية من الانغماس في الحياة المادية بكل ضروبها. ومن هنا وجدت بين المجتمعات الأفريقية رواجاً منقطع النظير، فوجد الوثنيون في شيخ الطريقة إماماً مزوداً بقوى علوية ينفرد بالكرامات ومعرفة الأسرار ـ وهو ما يتفق مع اعتقادهم في الكهنة ـ وصادف الاعتقاد في الأولياء وكراماتهم هوى في نفوسهم، لاعتقادهم في أرواح السلف، فانخرطوا في الطرق الصوفية واعتنقوا الإسلام. وأشبع تنوع تلك الطرق واختلافها نزعتهم الطائفية التي تبعث في نفوسهم طمأنينة وحمية معاً[3].

وكان لتلك الطرق الفضل في تثبيت ايمان المسلمين وايقاظ عزائمهم بعد عصور طويلة من الاضطهاد الذي عانوه على يد الأحباش المسيحيين والبرتغاليين منذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ثم على يد

(١) أرنولد: المرجع السابق ص: ٣٩٣ ـ ٣٩٤، ونفس المكان.
(٢) المرجع السابق: ص ٣٩١ ـ ٣٩٢، ونفس المرجع.
(٣) هوبير ديشان: الديانات في أفريقية السوداء: ص ١٣٥، ١٤٦.
Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 233 — 234

الأحباش والاستعمار الأوروبي منذ القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) حتى الآن[١].

لكن: متى دخلت الطرق الصوفية شرقي أفريقية؟ وما الطرق التي دخلتها؟ وما الجهود التي قامت بها في نشر الإسلام؟

دخلت الطرق الصوفية شرقي أفريقية مع اليمنيين والحضارمة بخاصة والمسلمين بعامة قبل زيارة ابن بطوطة لها بوقت طويل، ويعتقد سكان مصوع أن عبد القادر الجيلاني نفسه مات بها (سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) وله مسجد يحمل اسمه هناك وبذلك نشر طريقته بنفسه قبل ذلك الوقت[٢]. وقد رأى ابن بطوطة بجامع مدينة حَلِي بساحل اليمن - والتي زارها سنة ٧٣١هـ / ١٣٣٠م تقريباً - جماعة من الفقراء المنقطعين للعبادة[٣]، كما قابل بعض كبار الصوفية باليمن، كالفقيه الصوفي المحقق أبي العباس الأبياني والفقيه القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن الصوفي والفقيه أبي الحسن الزيلعي[*] وهو من كبار الصالحين، ويقود حجاج اليمن، وأهل البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه، وقد أنزله بزاويته وأكرمه ثم بعث معه أحد الفقراء[٤].

وكانت لليمن صلات ثقافية واقتصادية وسياسية بمسلمي الحبشة بخاصة وشرقي أفريقية بعامة وكثيراً ما هاجر الصوفية في ركاب مهاجري

---

(١) السيد محمد رجب حراز: أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي: أماكن متفرقة.

(٢) وذكر ترمنجهام ووافقه الدكتور حسن محمود أن القادرية أقدمها لم تدخل شرقي أفريقية قبل القرن الرابع عشر الميلادي: ص ٤٩٠ و

Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 239 P. 234. 40.

(٣) الرحلة: ص ٢٤٦، كلمة الفقراء كانت تطلق على الصوفية، وكذلك الصالحون والمشايخ.

(*) أي من مسلمي زيلع مما يؤكد تصوف علماء مسلمي الحبشة، ولا شك انه كان لهم أتباع ومريدون.

(٤) الرحلة: ص: ٢٤٨ - ٢٤٩.

المسلمين إلى شرقي أفريقية، وأصبح لهم هناك أتباع ومريدون[1].

فقد قال ابن فضل الله العمري عن مسلمي الحبشة - كتب عنهم فيما بين سنتى ٧٣٢ و ٧٣٩هـ (١٣٣٢ و ٣٨)م - : «وفيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء[2]».

وقال المقريزي عن سعد الدين أبي البركات الذي تولى حكم وفات الإسلامية بالحبشة سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م - حين لقي الحطِّي[*] في معركة: «ومعه الفقهاء والفقراء والفلاحون[3]» ثم يصف نهاية المعركة بقوله: «استشهد فيها من المشايخ الصلحاء أربعمائة شيخ كل شيخ منهم له عكاز وتحت يده من الفقراء والمساكين عدد عظيم[4]».

وبهذا فإن الطرق الصوفية عرفت طريقها إلى شرقي أفريقية بعامة والحبشة بخاصة قبل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى انتشرت وأصبح لها كل هؤلاء الأتباع والمريدين في النصف الثاني من ذلك القرن.

وانتشرت الطرق الصوفية في شرقي أفريقية انتشاراً واسعاً منشئة

---

(١) الرحلة: ص ٢٤٧. ولم يذكر ابن بطوطة شيئاً عن النشاط الصوفي بالحبشة لأنه لم ينزل إلا بزيلع التي لم تعجبه فبات في البحر على شدة هوله. انظر الرحلة: ص ٢٥٢.

(٢) نقلاً عن القلقشندي في كتابه: صبح الأعشى: جـ ٥ ص ٣٢٤ (ط الأميرية سنة ١٩١٥م) وأما قول العمري: «إلا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا ربط ولا زاوية» فلا يدل على عدم وجود صوفية بالحبشة، لأنه لم يذهب اليها ولم يحط بها خبراً، ولأنه لا يعقل أن يجد ابن بطوطة قبله هذا النشاط الصوفي باليمن دون أن يؤثر بالحبشة.

(*) الحطِّي: ملك الحبشة.

(٣) الالمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الإسلام: ص ١٢.

(٤) المرجع السابق: ص ١٣.

المدارس والزوايا التي خرّجت كثيرين من الدعاة والذين كان يرسل أكثرهم استعداداً للتعمق في الإسلام وثقافته إلى مراكز العلم ومساجده، في الحرمين والأزهر ومسجد دمشق الجامع والقيروان وفاس وغيرها. وقاموا بجهود كبيرة في نشر الإسلام بعد عودتهم[1]، فكانت الطرق الصوفية ترسل الدعاة إلى جميع الجهات لينشروا الإسلام ومبادىء الطريقة وتعاليمها، وبمجرد زيارة أحد دعاتها لقرية وثنية واستقراره بها كان الوثنيون يعمدون إلى زيارته، للاستعانة بالتعاويذ الإسلامية أو طلباً للبرء من مرض عضال على يديه، وسرعان ما تجذبهم تقواه وورعه إلى الإسلام، فيأخذون في تقليد الصلوات الإسلامية وبصفة خاصة بعد أن أكد لهم هؤلاء الدعاة أنها تجلب السعادة الأبدية، وبهذا الاقتراب من الداعي المسلم والشعائر الإسلامية يتحولون إلى الإسلام في سهولة ويسر.

وفضلاً عن ذلك كان قيام أصحاب تلك الطرق بأداء شعائرها متجلية في حلقات الذكر وألوان العبادة والتبتل ـ يجذب الأفريقيين إلى الإسلام جذباً، ويستولي على قلوبهم وعقولهم معاً، فيعتنقونه ويتحمسون له ويصبحون دعاة مخلصين له وأتباعاً للطريقة.

وفي الحق! فقد تجلى الإسلام كخلق ودين سمح يفيض حباً للناس جميعاً واحتراماً لهم مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ودياناتهم، وفي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وحسن معاملة ومجاورة أهل الكتاب، بل والناس جميعاً، تجلى كل ذلك بشكل يدعو للاعجاب حقاً في حياة

---

(١) محمد أبو بكر مكي: تاريخ النوبة والفنج (مخطوط مصور بمكتبة آداب الاسكندرية) ص ٤. وحسن ابراهيم: انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى: ص ١٦ ـ ١٧ (ط سنة ١٩٥٧م).

وسلوك أتباع تلك الطرق(*)، مما كان له تأثير السحر في تحول الأفريقيين إلى الإسلام[1].

وسوف أتناول الطرق الصوفية التي دخلت شرقي أفريقية وانتشرت بها كلاً على حدة.

(أ) : القادرية

وهي أقدم الطرق الصوفية وأوسعها انتشاراً، أسسها أشهر أولياء الله وأعظمهم هيبة، سيدي عبد القادر الجيلاني (٤٧٠/١٠٧٧ - ٥٦١ هـ/١١٦٦م) في العراق. ويتعبد أتباعه على مذهب الإمام مالك، ولهم أوراد وحلقات ذكر جماعية (الحضرة)، ولهم المسبحة الكاملة (مائة حبة)، ويستغرق تعبدهم ساعات طويلة من اليوم[2].

والقادرية هي أقدم طريقة دخلت شرقي أفريقية مع التجار والمهاجرين اليمنيين والحضارمة ويعتقد سكان مصوع أن عبد القادر الجيلاني نفسه قد زار مصوع ومات بها حيث بنى مسجداً يحمل اسمه ولا يزالون يحتفلون بزيارته كل عام في ١١ من ربيع الأول.

(*) ولا يعترض بما صاحب دعوة الحاج عمر التجاني في غربي أفريقية من حروب ضد الوثنيين واكراهه لبعضهم على الدخول في الإسلام، إذ قد حاول دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ولكنهم حاربوه وحاولوا القضاء عليه وعلى دعوته وعلى أتباعه، فكانت حروبه دفاعية، كما أن حالات الاكراه قليلة ووقعت من أناس لم يتعمقوا في الدين. وليس ذلك من مبادىء التجانية فضلاً عن الاسلام. وعلى كل فليس الحاج عمر ممثلاً لكل الطرق كما أنه لم يحدث منها كما حدث منه.

(١) محمد أبو بكر مكي: تاريخ النوبة والفنج (مخطوط مصور بآداب الاسكندرية رقم ٢٣١٩ ب) ص ٤، وحسن ابراهيم: انتشار الإسلام: ص ١٦ - ١٨ و ٢٦ - ٢٧.

(٢) هوبير ديشان: الديانات في أفريقية السوداء: ص ١٣٥ (ترجمة أحمد صادق حمدي في سلسلة الألف كتاب رقم ٥٢).

وانتشرت بالمدن الساحلية كمصوع وزيلع ومقدشو، ودخلت إلى هرر أيضاً على يد الشريف أبي بكر عبد الله العيدروسي، الذي توفي بعدن سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م حيث أعطاها أمراؤها الصفة الرسمية[١]. ثم انتشرت في الحبشة كلها مع فتوحات الإمام أحمد بن إبراهيم (٩١٢/١٥٠٦-١٩٥٠هـ/١٥٤٣م) فنرى الطابع الصوفي الروحي واضحاً في مسيرة جنده[٢]. ويبدو أنها انحسرت بانحسار فتحه، ثم انتشرت بين مسلمي الجلا في منطقة العروسي وأخذت تنتشر في كل مكان، فدخلت جنوب غربي الحبشة على يد شيخ صومالي[٣]. كما انتشرت ببلاد الفنج وشمال الحبشة على يد الشيخ تاج الدين البخاري منذ بداية القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي[٤]). وأعتقد أنها قد شقت طريقها إلى المنطقة الجنوبية من شرق أفريقية قبل زيارة ابن بطوطة لها ـ كما مر[٥] في ركاب المسلمين المهاجرين.

ولقد قام أتباع الجيلاني بشرقي أفريقية بنشاط ديني وعلمي، فأنشأوا المدارس في البلاد والتي خرجت جماعات من المريدين والفقهاء المثقفين[*]، الذين اضطلعوا بنشر الإسلام بين الوثنيين، فانتشر أتباعها بين قبائل الجلا. ولها زوايا كثيرة في أغلب المدن الكبرى بارترية والحبشة

(١) Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 234-40

(٢) انظر: عرب فقيه: فتوح الحبشة: أماكن متفرقة.

(٣) Trimingham: Op. Cit. P. 240.

(٤) محمد أبو بكر مكي: تاريخ النوبة والفنج (مخطوط مصور بمكتبة آداب الاسكندرية) ص ٤.

(٥) في التمهيد للطرق الصوفية قبل بضع صفحات.

(*) ولعل أحد هؤلاء الفقهاء الصوفية أبو الحسن الزيلعي، الذي قابله ابن بطوطة باليمن، وقال عنه: «هو من كبار الصالحين ويقدم حجاج اليمن إذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه» ثم يقول: «وقد أنزلنا بزاويته وأقمنا عنده ثلاثة أيام في خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا أحد الفقراء». انظر الرحلة: ص ٢٤٩.

والصومال[1]، وتانزانيا وباقي أنحاء شرقي أفريقية[2].

وكانت هذه المدن تؤلف مراكز الاشعاع الروحي والثقافي للإسلام وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم فقهاء ومعلمين وكتاب تمائم. وتسلط نفوذهم على من كان يحيط بهم شيئاً فشيئاً، وسرعان ما تطور دخول الأفريقيين في الإسلام من حالات فردية إلى جماعات صغيرة، وكان يرسل أكثرهم استعداداً إلى مراكز الطائفة الرئيسية أو إلى الحرمين والأزهر ومسجد دمشق وغيرها من مساجد العلم ومعاهده، لاتمام دراستهم في الإسلام وثقافته. وبعد سنوات عادوا مزودين للعمل على نشر الإسلام بين مواطنيهم[3].

وقد انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً على أيديهم. وكان هؤلاء المعلمون - حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي - يؤسسون المدارس، ويقومون بالانفاق عليها، هؤلاء المعلمون الذين تربوا في كنف القادرية وفي سلك نظامهم الذي أقاموه على التفاني في دعوة القبائل الوثنية إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يكون الواحد منهم قدوة لغيره - كان نظامهم هذا يعتمد على نشر الثقافة الإسلامية وإظهار مبادىء الإسلام وأخلاقه نظرياً وفي واقع حياة أتباع الطريقة مما كان له أبلغ الأثر في جذب الأفريقيين إلى الإسلام جذباً، ويعتمد نظامهم أيضاً على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه. وكانوا في معاملتهم لأهل الكتاب يتأسون بشيخ الطريقة الجيلاني نفسه، فلم توجد في كتبه ومواعظه ما يبين عن سوء نية أو عداوة لهم. وكان كلما تكلم عنهم لم يزد عن أن يعبر عن أسفه على ما هم عليه من باطل، ويدعو الله لهم بالهدى والرشاد للحق، وأوصى

---

(١) Trimingham: Op. Cit: PP. 240-41

(٢) Becker: Islam Studien, 11, P. 127.

(٣) الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٦٥ - ٣٦٦.

تلاميذه بأن يسلكوا هذا السلوك السمح الذي كان حلية أتباعه على مر العصور[1].

(ب) : الشاذلية

أسسها أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، ويتصل نسبه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولد ببلاد المغرب ٥٩٣هـ / ١١٩٦/ ١١٩٧م[2] وبعد أن أتم دراسة علوم الدين ساح في البلاد الإسلامية، وتتلمذ في الطريق الصوفي لعبد السلام بن مشيش، ثم استقر به المقام في الاسكندرية امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ له في الرؤيا. «وصار يدعو الخلق إلى الله تعالى، فتصاغر وخضع لدعوته أهل المشرق والمغرب قاطبة وكان يحضر مجلسه أكابر العلماء من أهل عصره[3]».

ومات في (حميثرة(*)) بصحراء عيذاب، ودفن بها سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م وهو في طريقه إلى الحج مع أتباعه وأعطى الخلافة لأبي العباس المرسي قبل موته[4].

وكان مسلمو الحبشة بخاصة وشرقي أفريقية بعامة على صلة وثيقة بمصر، فكانوا يفدون اليها لطلب العلم، ولا بد أنهم نقلوا الطريقة الشاذلية معهم منذ ذلك الوقت المبكر. يدل على ذلك أن عرب فقيه يقول عن الإمام أحمد «فقد أشار إليه سيدي الشيخ القطب الجامع. . . ولي الله

---

(١) حسن ابراهيم: انتشار الإسلام والعروبة: ص ١٧ ـ ١٨، وأرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٦٦.

(٢) عبد الحليم محمود: أبو الحسن الشاذلي (ط وزارة الثقافة ـ القاهرة سنة ١٩٦٧م) ص ١٦ و ٤٧.

(٣) ابن عباد: المفاخر العلية (مخطوط لدى الدكتور / عبد الحليم محمود) ص ١٥.

(*) بين قنا والقصير في مصر.

(٤) عبد الحليم محمود: المرجع السابق: ص ٤٣ ـ ٤٤.

شمس الدين على بن عمر الشاذلي[1] . . .» وإن كنا لا نعرف عن جهودها - في نشر الدعوة الإسلامية ولا عن مدى انتشارها في تلك البلاد - كثيراً. وقد انتشرت في المنطقة الجنوبية في تانزانيا وغيرهـا من مناطق شـرقي أفريقية[2].

(جـ) : الأحمدية

أسسها السيد أحمد بن إدريس الفاسي (١١٧٣ - ٧٤هـ - ١٢٥٣هـ / ١٧٦٠ـ ١٨٣٧م ، ولم يكن الفاسي صوفياً فحسب، بل كان مصلحاً دينياً، وكان يكره الوهابيين ويحمـل عليهم وعلى معتقـداتهم[*]. وجرد الصوفية من كثير من بِدَعِهَا، ونادى بالاعتماد على الكتاب والسنة، اذ هما طريق السالكين.

ولقد اضطر إلى الهجرة إلى عسير، لأن علماء مكة عارضوا تعاليمه بشدة ومات بها سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٨م. ولكن آراءه في الاصلاح لم تمت بموته، فحمل الطريقة إلى شرقي أفريقية شيخ صومالي يسمى علي مايي دروجبة Ali Maya Durogba، والذي اتبعها عندما كان يؤدي فريضة الحج سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، فلقيت نجاحاً لا نظير له خصوصاً في الصومال

---

(١) فتوح الحبشة: ص ٤، بالرغم من أن ترمنجهام لم يذكر الطريقة الشاذلية ضمن الطرق الصوفية بالحبشة: انظر
Islam in Ethiopia, P. 234 وما بعدها

(٢) Becker: Islam Studien, 11, P. 127

(*) انظر: عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني: تاريخ اليمن المسمى: «فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن» ص ٣٣٨ و ٣٤٠(ط القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ)، لا كما قال الأستاذ الدكتور حسن محمود عنه: انه: «كان مصلحاً يستهدي تعاليم الوهابية ويتأثر بها»، الاسلام والثقافة العربية: ص ٤٩١ وكذلك Trimingham في كتابه Islam in Ethiopia ويؤيد رأي صاحب تاريخ اليمن ما حدثني به الشيخ محمد الحافظ شيخ الطريقة التجانية في ٢٥/ ٣/ ١٩٧١م.

إذ التف حولها الصوماليون، لأنها صادفت هوى في نفوسهم، وامتدت إلى القبائل التي تتكلم اللغة التيجرية والى بني عامر وباقي فروع البجة[1].

وقد اهتم أتباعها بنشر الإسلام الصحيح وثقافته بين السكان جميعاً، مما كان له أثر في عودة المسلمين إلى الإسلام الصحيح، وهداية غيرهم إلى الإسلام [2].

(د) : الميرغنية (الختمية):

أسسها محمد بن عثمان الميرغني (١٢٠٧ - ٨/ ١٧٩٣ / ١٢٦٨ - ٦٩ هـ/١٨٥٢م) وكان تلميذاً لأحمد بن إدريس، أرسله إلى مصر والسودان لينشر طريقته، ولكنه بعد موت أستاذه أسس طريقة خاصة به، ونشرها بين بني عامر سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م. وقد بلغ نشاط دعاة الإسلام في عهده الذروة. وحمل طريقته من بعده ابنه الحسن إلى مدينة سواكن، وانتشرت بين الحلانقة والحباب. وأنشئت مدينة الختمية في كسلا. واكتسبت الطريقة كثيرين من الأنصار في أرترية، ثم نقلها إلى مصوع السيد هاشم الميرغني سنة ١٢٧٦ هـ/ ١٨٦٠م، وامتد تيار الميرغنية إلى جنوبي غربي الحبشة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري[3].

(هـ) : التجانية

أنشأها أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن أحمد الشريف التجاني العالم الفاضل المتصوف (١١٥٠ - ١٢٣٠هـ/ ١٧٣٧- ١٨١٥م)، أحد

(١) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ: ص ١٨٤، والمراجع السالفة الذكر.

(٢) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص ٤٩١،

Triminigham: Islam in Ethiopia, P. 242

(٣) المرجع السابق: نفس المكان.

أهالي قرية (عين ماضي) ببلاد الجزائر، وبعد أن أتم علومه في (فاس) تنقل في المدن الإسلامية، وتتلمذ على شيوخها[١].

وقد انخرط في سلك الطرق الصوفية كالقادرية والطيبية والخلوتية ثم أسس طريقة جديدة وبعد جولات عاد لفاس سنة ١٢١٣هـ، واتخذها مركزاً لنشر دعوته. وقضى معظم حياته متنقلاً لتنظيم شؤون طريقته.

وقد انتشرت طريقته في العالم الإسلامي وفي شرق أفريقية، واتبعها سلطان جمة أبا جفار، والرأس على نائب الأمبراطور الحبشي، وعملا على نشر الإسلام بين الوثنيين والمسيحيين الأحباش[٢]، ونجحا نجاحاً منقطع النظير. فتحول معظم سكان الولايات الوسطى والشمالية إلى الإسلام[٣].

(و) : السمانية

أسسها الشيخ محمد بن عبد الكريم السماني (١١٣٠ - ١١٨٩هـ)، ودخلت من السودان إلى الجبرت على هضبة أرترية على يد الشيخ آدم الكناني، وأصبح لها أتباع في جنوب الحبشة حيث دخلتها على يد أحد التجار ويسمى الشريف حسين حوالى سنة ١٣٣٨هـ. كما أن لها بعض الأتباع في ليمو أناريا[٤] (Limmu Enarya).

---

(١) محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: ص ٣٧٨ (ط القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ).

(٢) محمد الحافظ التجاني: حديث شفهي في ٢٥/٤/١٩٧٠.
Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 240

(٣) أرنولد: المرجع السابق: ص ١٤٠ - ١٤١.

(٤) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص ٤٩٢،
Trimingham: Op. Cit, P. 247

(ز) : السنوسية:

أسسها الفقيه الجزائري، السيد: محمد بن علي السنوسي سنة ١٨٣٧م. وتهدف تلك الفرقة الدينية إلى إصلاح شأن الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية. ولم يمت السنوسي سنة ١٨٥٩م حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينية بفضل قوة عبقريته الصافية واستخدام كل وسائل الترغيب في نشر دعوته. ويدين أتباعه لهذه الدولة بالطاعة والولاء، ويلتزمون القيام بأوامر القرآن الكريم في دقة بما يتفق وأكثر مبادىء التوحيد المطلق، تلك المبادىء التي تفرد الحق عز وجل بالتعبد، وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريماً تماماً. وقد حرموا على أنفسهم التدخين وشرب القهوة، وأسهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة حين يعجزون عن تكريس أنفسهم لخدمتها، وأوقفوا نشاطهم كله على تقدم الإسلام ومقاومة الخضوع للنفوذ الأوروبي مستخدمين كل ضروب الاغراء والسلام في خدمة الدعوة ونشر الإسلام[1].

ولما كان النجاح الذي تحقق على أيدي دعاة تلك الطائفة المتحمسين النشطين عظيمًا، فقد تفرقوا في جميع أنحاء العالم الإسلامي وبلاد الصومال كافة[2].

وفي مركز السنوسية الرئيسي بواحة جغبوب بصحراء ليبيا كان يتعلم مئات الدعاة كل عام، ثم يرسلون إلى جميع الجهات ومنها شرقي أفريقية،

---

(١) انظر: شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: جـ ٤ ص ٢٨١ - ٢٨٥ (ط أولى سنة ١٩٦٣م) وحسن ابراهيم: المرجع السابق: ص ٢١ وقد ذكر أنه كان متأثراً بتعاليم ابن عبد الوهاب إلا أن الشيخ محمد الحافظ التجاني انكر هذا حديث شفهي في ٥/ ٥/ ١٩٧٠م.

(٢) أرنولد: المرجع السابق: ص ٣٧١.

لينشروا الإسلام بين الناس ومبادىء الطريقة. بل ان هذه الجماعة كانت تشتري العبيد، وترسلهم إلى جغبوب ليتعلموا الإسلام ومبادىء الطريقة ويتفقهوا في الدين، حتى إذا ما أتموا دراستهم وأجادوا، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم كي يدخلوا اخوانهم ومواطنيهم في الإسلام(١).

وانتشرت زوايا تلك الطائفة في كل مكان حتى بلغت ١٢١ زاوية فرعية كانت جميعها تتلقى التعليمات والأوامر من المركز الرئيسي في جغبوب في جميع المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع تلك الدولة الدينية التي كانت تضم آلافاً من الأشخاص من شتى الأقطار والأجناس والألوان في نظام رائع واخوة إسلامية صادقة(٢).

ويقوم دعاة السنوسية بدعاية نشطة في بلاد (الجلا Galla) فيرسلون إليها دعاة جدداً من هرر كل عام، حيث تتمتع السنوسية فيها بنفوذ كبير لدرجة أننا نجد أن جميع الرؤساء في بلاط الأمير منهم بلا استثناء. ويستعين دعاتهم على نشر دعوتهم بفتح مدارس لتعليم الذكور، وأخرى لتعليم الفتيات أيضاً مستغلين ما كانت تحدثه النساء من نفوذ قوي بين بعض القبائل الأفريقية(٣).

ومع أن السنوسية كانت في بداية أمرها حركة إصلاح داخلية في الإسلام نفسه إلا أنها أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر الإسلام، حتى أضحت عدة قبائل أفريقية ـ كانت من قبل وثنية أو مسلمة إسلاماً إسمياً بحتاً ـ مسلمين متحمسين منذ أن حل بهم دعاة السنوسية(٤). وهكذا ينظر إليها على أنها من الطرق الصوفية، إذ ليس التصوف الحق اعتزال الدنيا ومن عليها، خلافاً لمن أخرجها من دائرة التصوف.

(١، ٢) شلبي: المرجع السابق: جـ ٤ ص ٢٨٥.
(٣) حسن إبراهيم: المرجع السابق: ص ٢٢ ـ ٢٣، وأرنولد: المرجع السابق ص ٣٧٢.
(٤) حسن ابراهيم: المرجع السابق: ص ٢٢ ـ ٢٣.

(ح) : الصالحية (الرشيدية)

أسسها إبراهيم بن الرشيد وابن عمه محمد بن صالح، وقد انتشرت في الصومال البريطاني، وعملت أيضاً على إحياء الروح الإسلامية وتعميق فهم الصوماليين للإسلام، وإشعال أرواحهم وتذكية نفوسهم، ونشر الإسلام وثقافته بين القبائل الوثنية(١).

(ط) : الرفاعية:

وقد انتشرت بتانزانيا وجهات شرقي أفريقية، إلا أننا لا نعرف عن تاريخ دخولها، ولا عن ما قامت به من جهود لنشر الإسلام هناك(٢).

رابعاً: تحركات القبائل وهجراتها في شرقي أفريقية:

الحياة القبلية حياة تنقل وارتحال. وقد هاجرت شعوب أو قبائل مسلمة أو كانت قد اعتنقت الإسلام من أوطانها بشرقي أفريقية إلى أوطان أخرى بها، سعياً وراء الرزق، أو التماساً لموطن آمن جديد لتعرضها في وطنها القديم لضغوط سياسية أو دينية، أو لتفرض دينها وسلطانها على جيرانها. ونشرت دينها الإسلامي حيث حلت واستقرت، لاحتكاكها بسكان البقاع التي رحلت اليها واختلاطها بها. وطبقاً لقاعدة التأثير والتأثر بخاصة وأنها كانت قبائل بدوية تتدفق غيرة وحماسة لدينها، كما كانت أقوى

---

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص ٤٩٢،
Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 239.

(٢) Becker, Islam Studien, 11, P. 127
مع العلم بأن ترمنجهام لم يذكرها ضمن الطرق الصوفية بالحبشة انظر:
Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 234.
وكذلك حسن محمود: انظر: الإسلام والثقافة العربية في أفريقية ص ٤٩١ وما بعدها.

من سكان تلك الأماكن وأكثر ثقافة ورقياً باعتناقها الإسلام، فكان يرجح جانب تأثيرها فيمن سواها.

فالبجة قد انتشر الإسلام بينهم منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) - كما رأينا[١] - ولكن لظهور مملكة النوبة عليهم ومطاردتها لهم ولجفاف أرضهم وصعوبة الحياة عليهم، اضطرت قبائلهم إلى الهجرة شمالاً نحو حدود مصر، وشرقاً على سهول شرقي السودان، وجنوباً إلى أرترية وشمالي الحبشة، فحفل تاريخهم بحركات توسعية صوب تلك الأنحاء، فاستطاعت قبيلة الزنفاج البجاوية في نهاية القرن السابع الميلادي (سنة ٨١هـ) أن تخترق هضبة أرترية عن طريق وادي بركة، وأغارت على حدود الحبشة، وخربت أغلب أقليم الحماسين، واضطرت الكثيرين من الأحباش إلى الهجرة صوب الجنوب[٢].

وما أن جاء القرنان الأول والثاني الهجريان اللذان دخل الإسلام فيهما مصر، وثبتت أقدامه فيها حتى كانت هجرات البجة إلى الشرق قد بلغت أشدها، وصارت البجة حاجزاً منيعاً في شمالي الحبشة يجعل اتصالها بالعالم الخارجي متعذراً عن هذا الطريق عدة قرون[٣].

وقد استطاع هؤلاء البجة أن يمعنوا هجرة صوب الجنوب في القرن الثالث الهجري، اذ يتبين من رواية اليعقوبي[٤] أنهم استطاعوا في هذا الوطن الفسيح الممتد من الحدود الجنوبية لمصر حتى الحدود الشمالية لمملكة أكسوم ومن البحر الأحمر شرقاً حتى نهر النيل غرباً، استطاعوا أن يؤسسوا خمس ممالك مستقلة، انتشر الإسلام في ربوعها شيئاً فشيئاً بمرور الزمن،

---

(١) انظر: «هجرات العرب المسلمين إلى بلاد البجة» بالباب الثاني الفصل الثاني.

(٢) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص ٣٧٩ - ٣٨٠. والإسلام والحبشة ص٢٤.

(٣) فتحي غيث: الإسلام والحبشة: ص٢٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي: جـ٣ ص٢١٧.

وتأثر بهم من جاورهم واعتنق الإسلام، كما أثر فيهم العرب المسلمون ونشروه بينهم من قبل.

والزيديون الشيعة استقروا بساحل بنادر بالقرب من موقع مدينة (مقدشو) في أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، وبسطوا نفوذهم عليه زهاء قرنين من الزمان، ولكن أدت هجرة عرب الإحساء إلى شرقي أفريقية في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) واستقرارهم بساحل بنادر وتأسيسهم مدينة مقدشو وتحالفهم مع الصوماليين أدى ذلك إلى هجرة الشيعة الزيدية إلى الداخل حين عجزوا عن مقاومة خصومهم السنيين، فاختلطوا بالزنوج وتزوجوا منهم، وتأثروا بعاداتهم ولكنهم أثروا فيهم وحولوهم إلى الإسلام، وكسبوا للإسلام موطناً جديداً بالداخل بعد أن كان قاصراً على الساحل[1].

وقبائل الدناكل والصومال كانوا يقيمون في المناطق شبه الصحراوية بين الهضبة الحبشية والبحر الأحمر وخليج عدن، واعتنقوا الإسلام منذ وقت مبكر من ظهور الدعوة لقربهم من شبه جزيرة العرب مهد الإسلام من جانب، ولاحتكاكهم بالتجار والمهاجرين المسلمين إلى شرقي أفريقية من جانب آخر. وكانت ظروف الحياة في موطنهم الصحراوي القاحل تدفعهم إلى الهجرة إلى أماكن الخصب والكلأ غرباً وجنوباً وشمالاً، ولا شك أنهم نقلوا إسلامهم معهم إلى حيث هاجروا وحلوا، ونشروه حيث استقروا بين من اختلطوا بهم من قبائل.

وبلغت هجرتهم أقصاها في حركة الجهاد الأكبر التي تزعمها الإمام أحمد بن إبراهيم في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)

---

(١) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص٣٩٩، وأرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص٣٧٨، وجيان: ص٨٥.

يعضدونه وينصرونه بعددهم وعتادهم وينشرون الإسلام في ربوع الحبشة كلها من أدناها إلى أقصاها[1].

وقبائل الجالا، التي اعتنق بعضها الإسلام في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، شاركت بعض قبائلها المسلمة في حركة الفتوح الإسلامية التي تزعمها الإمام أحمد، واستغل الآخرون فرصة الفراغ الذي أحدثه خروج الصومال والدناكل مع الإمام أحمد لفتح الحبشة، وهاجروا إلى مواطنهم، وغمروا جنوبي الحبشة وشرقيها، ثم استغلوا فرصة ضعف الحبشة وانتهاك قواها بعد غزوة القرين وعدم قدرة الأحباش على ردهم فصعدوا في الهضبة الحبشية نفسها، ولاحتكاكهم بالمسلمين، وعنجهية الأمحريين وصلفهم دخل معظمهم في الإسلام، واشتغلوا بالزراعة والرعي واستقروا في سائر أرجاء الحبشة ونشروا الإسلام حيث استقروا وكانوا كثرة، فصاروا يشكلون نصف مجموع سكان الحبشة[2].

وقد انتشرت قبائل الجالا هذه في جميع أنحاء الحبشة، وحملت إسلامها معها إلى حيث استقرت، واشتغلت القبائل التي استقرت فوق الهضبة بالزراعة، واشتغلت قبائل أخرى بالرعي، ودخل أفراد من هذه وتلك في الجيش الحبشي، بل سيطروا على العرش الأمبراطوري وكان أغلبهم قد اعتنق الإسلام فنشروه بين سكان تلك الأنحاء الأصليين[3].

وكان لتحركات قبائل البانتو في الجزء الجنوبي أثر كبير في نشر الإسلام أيضاً، إذ كانت القبيلة تعتنق الإسلام لاحتكاكها بالمسلمين أو

(١) أنظر: فتوح الحبشة: لعرب فقيه وحسن محمود: الإسلام والثقافة ص٣٨١.
(٢) حسن محمود: المرجع السابق: ص ٤٤٠ ـ ٤٤١، وفتحي غيث: الإسلام والحبشة: ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٣) حسن محمود: الإسلام والثقافة: ص ٤٤٠ ـ ٤٤١، وفتحي غيث: الإسلام والحبشة: ص ١٦٤، ١٦٥.

بتأثير الدعاة المسلمين، ثم تهجر وطنها بحثاً عن موطن آخر أيسر حياة وأرغد عيشا. فتنشرة بين سكان المناطق التي رحلت إليها.

وهكذا لعبت التحركات القبلية، أو هجرات القبائل المسلمة بداخل شرقي أفريقية دوراً كبيراً في نشر الإسلام، ولم يتوقف أثرها على هجرات القبائل التي اعتنقت الإسلام، بل ان هجرة القبائل الوثنية بالقرب من تجمعات المسلمين أو تأثيرهم كان يجعلها في فترة وجيزة تعتنق الإسلام أيضاً.

لعله قد تبين ـ من خلال ذلك الفصل ـ أهم الوسائل التي نشرت الإسلام في شرقي أفريقية، ودور كل منها، ووضح أنها هي التي نشرت الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

لكن ما المدى الذي وصل إليه الإسلام في انتشاره؟ وهل تحول إلى الإسلام كثيرون أم لا؟

هذا ما سنناقشه في الباب الرابع.

الباب الرابع

المناطق التي انتشر فيها الإسلام في شرقي أفريقية

وفيه فصلان

الفصل الأول

الإمارات والسلطنات الإسلامية بشرقي أفريقية

الفصل الثاني

التوسع الإسلامي في شرقي أفريقية





الممالك الإسلامية بشرقي افريقية قبل استعمار الدول المسيحية لها في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي



الفصل الأول

الإمارات والسلطنات الإسلامية بشرقي افريقية



مقدمة:

كون المسلمون الذين هاجروا إلى شرقي أفـريقية واستقـروا فيها إمارات وممالك إسلامية على امتداد الساحل الشرقي وبالجزر المواجهة له، وبالداخل أيضاً. يحكمها مسلمون من العرب أو الفرس أو الأفريقيين المسلمين منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي). فأنشأ أزد عُمان بزعامة سعيد وسليمان ابني عباد الجلندي إمارة لامو، أقدم الإمارات الإسلامية ظهوراً في شرقي أفريقية، وذلك منذ سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م. وفي سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٣م تربعت أسرة بني نبهان على عرش لامو وباته، وفرضت سلطانها على جزء كبير من الساحل والجزر المواجهة له.

وتربعت أسرة عربية تنتمي إلى قبيلة مخزوم القرشية - التي ينسب إليها خالد بن الوليد - على عرش سلطنة شوة الإسلامية، في قلب هضبة الحبشة، منذ سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م. وأسس بنو الحارث العرب «سلطنة مقدشو» بساحل الصومال الحالي، منذ سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م.

وأنشأ الحسن بن علي الشيرازي وبنوه «سلطنة كلوة»، منذ سنـة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، وبات لها سلطان كبـير ونفوذ عـلى معظم الإمـارات الإسلامية في المنطقة الجنوبية.

وكون مسلمو الحبشة «ممالك الطراز الإسلامي»، واشتهر منها سبع هي: وفات، ودوارو، وأرابيني، وهدية، وشرخا، وبالي، ودارة، كما ذكر ابن فضل الله العمري، في كتابيه: «مسالك الأبصار» و «التعريف» ونقل عنه القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» جـ ٥ وذكر ذلك المقريزي في كتابه «الالمام».

وقد ذكر هؤلاء المؤرخون أن هذه الممالك الإسلامية كانت موجودة في القرن السابع الهجري.

وقد ذكروا أن كلا منها كانت مملكة مستقلة بها ملك مستقل، وأن الرقعة الإسلامية فاقت الرقعة المسيحية، غير أن مملكة وفات كانت أقواها جميعاً، واستطاعت أن تخضع مملكة شوة لسلطانها في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي وبسطت هذه الممالك نفوذها السياسي والديني على مساحة شاسعة من البحر الأحمر شرقاً إلى منطقة البحيرات العظمى غرباً شاملة مرتفعات شوة ومناطق السيداما في الجنوب وجوجام جنوب غربي بحيرة تانا[١].

وكانت هناك امارات وممالك إسلامية أقل من تلك شأناً كعدل ومورة وهوبت وجداية ولكنها لم تعمر طويلاً لما كان بينها من خلاف وتنافس، فسرعان ما ضمتها مملكة وفات القوية.

واتسم تكوين تلك الإمارات والممالك بالطابع السلمي التجاري أو الاقتصادي عموماً، إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية، ولم تكن في نشأتها وتوسعها سياسية أو عسكرية في أول أمرها على الأقل[٢]، ما عدا إمارة دهلك، إذ فتحها الجيش الإسلامي سنة ٨٣هـ/

---

(١) صبح الأعشى: جـ٥ متفرقات، وعبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب ص١٥٦.
(٢) نفس المصدر، وطرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ص ٣٢ - ٣٣.

٧٠٢م في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وظل بها إلى عصر الخليفة العباسي المأمون[١]، وكانت بها جالية إسلامية كبيرة، يحكمها ملك مسلم يدين بالطاعة لملك الحبشة، ويداري صاحب اليمن[٢].

وسوف أتناول من هذه الممالك الإسلامية تلك التي استمر وجودها وضمت تحت لوائها سواها لأظهر المدى الذي وصل إليه انتشار الإسلام.

---

(١) عابدين: المرجع السابق: ص١٥٨، وطرخان: المرجع السابق ص٣٠.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: جـ٥ ص٣٣٦.

سلطنة مقدشو (٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م)

نهاية القرن الخامس عشر الميلادي

نزل المهاجرون الزيديون بساحل الصومال من شرقي أفريقية، قريباً من موقع مدينة «مقدشو» سنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م. وبسطوا مواطنهم بالتدريج على امتداد الساحل، واختلطوا بالسكان وصاهروهم ونشروا الإسلام بينهم، وسيطروا على سكان الساحل زهاء مائتي عام. حتى قدم سبعة(*) إخوة على رأس مهاجرين من قبيلة الحارث التي كانت تقيم بالخليج العربي، ونزلوا بساحل الصومال، في أواخر القرن الثالث الهجري، وأنشأوا مدينة «مقدشو» سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م، فانسحب الزيديون إلى داخل أفريقية وتركوا الساحل لبني الحارث السنيين[١].

وتحالف بنو الحارث هؤلاء مع الصوماليين سكان البلاد، وأنشأوا مدناً أخرى في هذه المنطقة، مثل «براوة» وهي التي سماها الادريسي[٢] «بروات»، و «مركة» التي تقع عند نهر «ويبي»، و «قرفاوة»، و «النجا» ، و«بذونة» ، وذكر هتشنز مدناً أخرى ظهرت في عهدها مثل «ماندا» في جزيرة

(*) أنظر هجرتي الشيعة ثم بني الحارث بالفصل الثاني من الباب الثاني.

(١) جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ص ٧٢ و ٨٤ ـ ٨٦.

(٢) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٧٣ بلدان تيمور) المجلد الأول ص ٤٧ ـ ٤٨.

«ماندا» و«أوزي» و «شاكه» بالقرب من دلتا «تانا[١]»، و «جليب» و«كندرشيخ» و «جزيرة وراشيخ»[٢].

وقد ظهرت مقدشو عليها جميعاً كمركز تجاري هام ينبض بالحياة ويعج بحركة التجار، فعمها الرخاء وسادها الأمن واتسع بها العمران، وأضحت صاحبة السيادة على سكان الساحل جميعاً زهاء سبعين عاماً حتى أنشئت إمارة كلوة في الجنوب فنافستها السيادة[٣].

وأسس بنو الحارث هؤلاء مملكة قوية ذات شوكة ونفوذ. وانحصر الحكم بطريق التوارث في أسرة شيخ القبيلة الذي كان على رأس جماعة المهاجرين. وأضحت مقدشو سلطنة ذات نظم سياسية ورسوم إدارية وأصابت قدراً عظيمًا من الثروة والجاه حتى قال عنها ابن سعيد: «مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة على ألسنة المسافرين[٤]».

وفي عهد أسرة بني الحارث هؤلاء نمت ثروة مقدشو، وازدهرت ازدهاراً منقطع النظير، وأصبحت بمثابة عاصمة لجميع البلاد المجاورة التي سبق ذكرها. وأصبحت المنطقة الكائنة بين مجرى الجب الجنوبي والبلاد المعروفة الآن باسم «شبلة» عظيمة العمران. يشهد بذلك ما بقي من آثارها التي تدل على ما كانت علية قديماً من الجلال وحسن الرونق، ومن مساجدها الكثيرة التي أصبحت أطلالاً دارسة ولم يبق منها سوى مآذنها القائمة وسط الرمال والأطلال، وإن بقي مسجد منها لازال حافظاً لكيانه الأصلي وعليه كتابة تبين تاريخ تأسيسه وهو سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩م[٥].

---

(١) Islam in East Africa; Islam-To-Day, P.116.

(٢) جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية ص١٨٤.

(٣) جيان: المرجع السابق ص: ٨٥ وحسن محمود: المرجع السابق: ص٣٩٩.

(٤) نقلاً عن جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية ص: ١٤١.

(٥) جيان: المرجع السابق: ص ١٨٥ ـ ١٨٧.

وقد كان الناس يردون على مقدشو في مواعيد معينة من السنة فيجتمعون في مسجدها الكبير ويقيمون به صلاة الجمعة[١]. مما كان يزيد من عظمة الإسلام في نفوس الأفريقيين.

وصارت زيلع في الشمال ومقدشو في الجنوب أهم منفذين لتياري العروبة والاسلام في اختراق الصومال وتسربهما عبر مناطق القبائل من الشرق والجنوب إلى الحبشة.

وكان تجار العرب من أهل مقدشو يقصدون سفالة ويحتكرون تجارة ذهبها كما ذكر الادريسي[٢]، وأسس أبو بكر بن فخر الدين سلطنة وراثية في مقدشو بمساعدة أقوى العشائر العربية الصومالية والتي تدعي نسباً عربياً قحطانياً، وذلك منذ النصف الأخير من القرن السابع الهجري[٣].

وسارت سلطنة مقدشو في طريق النمو والازدهار، حتى زارها ابن بطوطة سنة ٧٣١ هـ وجدها قد بلغت درجة عظيمة من الحضارة والرخاء، وأنها قد حققت قدراً كبيراً من التقدم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأن أهلها على خلق ودين، فالمدينة متناهية في الكبر، وأهلها تجار أقوياء، ولهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم، وعندهم أغنام كثيرة، وكان سلطانها يشرف بنفسه على التجارة ويهتم بها، فمن عوائده أنه متى وصل مركب صعد إليه قارب السلطان وسأل عن المركب من أين قدم ؟ وما حمولته؟ ومن ربانه ومن قدم فيه من التجار؟

---

(١) جيان: المرجع السابق: ص ١٨٥ - ١٨٧.

(٢) نقلاً عن جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية: ص١٣٦.

(٣) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب: ١٥٣ وهذه الرواية أقرب للصواب مما ذكره جيان من أن مقديشو كانت آنئذ تحت حكم اسرة المظفر العربية، لأن ابن بطوطة ذكر أن سلطانها «في الأصل من البربرة، وكلامه بالمقدشي ويعرف اللسان العربي» أنظر: الرحلة: ص٢٥٤.

فيعرف بذلك كله ويعرضه على السلطان، فمن استحسن أن ينزله عنده أنزله، وكذا شأن رغيته مع كل مركب يصل، يصعد اليه شبان من أهل مقدشو، فيقدم كل منهم طعاماً لتاجر ويقول له: أنت نزيلي فيبتاع منه ما معه، ويبيعه ما هو في حاجة إليه وغير هذا البيع مردود عندهم، ولهم منفعة في ذلك[1].

وأشاد ابن بطوطة بروعة نظامها في الحكم والادارة، وكيف أنها كانت تترسم هدي الإسلام وشريعته في أمور الدنيا والدين، فقد كان يعاون سلطانها في الحكم القاضي وكاتب السر والوزراء والأمراء، وهم أهل الشورى، والفقهاء أهل الحل والعقد[2].

وقد خصص السلطان يوم السبت للنظر في مظالم الناس وشكاياتهم بعد أن يؤلف قلوبهم باطعامهم «إذا كان يوم السبت يأتي الناس إلى باب الشيخ (السلطان) فيقعدون في سقائف خارج الدار، ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور[*] الثاني، فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويكون القاضي على دكانة وحده، وكل صنف على دكانة تخصهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه، ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره، ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون، ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون، وان كانوا ضيوفاً جلسوا عن يمينه، ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون. ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعداً بالمجلس، ويأكل الشيخ معهم. وإن أراد تشريف أحد من أمرائه بعث

---

(١) الرحلة: ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٢) الرحلة: ص: ٢٥٧.

(*) لعله قصد به الفناء الثاني للدار.

إليه فأكل معهم، ويأكل سائر الناس بدار الطعام، وأكلهم على ترتيب مثل ترتيب دخولهم على الشيخ. ثم يدخل الشيخ إلى داره، ويقعد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات: فما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى، وهم الوزراء والأمراء، وما كان مفتقراً إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيه، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره، وتلك عادتهم دائماً[1]».

وسلطان مقدشو الذي قابله ابن بطوطة سنة ٧٣١ هـ هو «أبو بكر ابن الشيخ عمر، وهو في الأصل من البربرة، وكلامه بالمقدشي، ويعرف اللسان العربي[2]» وكان كريماً فاضلاً عادلاً، وهو من أسرة فخر الدين[*] وبلغ من الرخاء والترف اللذين كانتا تنعم بهما سلطنته ان خصص وزيراً يوكل بالضيوف وجهز دوراً وجعلها لضيافة الوافدين: داراً لطلاب العلم والعلماء، وأخرى للتجار وأبناء السبيل، كما خصص داراً للطعام يطعم فيها رعيته كل يوم سبت كما مر. وكانت تقدم في تلك الدور أشهى الأطعمة كما كانت تلك الدور مجهزة ومرتبة ترتيباً حسناً. وكان سكان مقدشو في نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها لما هم فيه من حياة الترف والنعيم يلبسون ثياباً فاخرة محلية ومستوردة، وكانت سلطنة مقدشو على عهده تنعم بالأمن والاستقرار، فلم يذكر ابن بطوطة[3]. حروباً قد حدثت أو ستحدث عندما زارها كما ذكر عن كلوة بعدها.

وكانت تهتم بالعلم والثقافة الإسلامية، تستقدم الأساتذة وتساعد

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة ص: ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة ص: ٢٥٤.

(*) أبو بكر فخر الدين ملك مقديشو في بداية القرن الثامن الهجري، وتوارثها أبناؤه بعده، عابدين: بين الحبشة والعرب ص: ١٥٣.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

طلاب العلم من كل مكان، فخصصت داراً لاقامتهم والقيام بأمرهم، وكانوا دائمًا في صحبة استاذهم المصري. وفوق ذلك كانت على علاقات ثقافية واقتصادية ببلدان العالم الاسلامي الفسيح تستقدم العلماء من كل مكان منه، وتوفد أبناءها إلى مراكز العلم فيه، فكان قاضيها ابن البرهان مصري الأصل، وكانت تصدر الثياب المنسوبة إليها والتي لا نظير لها إلى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي وغير ذلك من محاصيلها ومنتجاتها، وتستورد ما هي في حاجة إليه من تلك البلدان(١).

وفي ظل أسرة فخر الدين تلك، في القرنين (الثامن والتاسع الهجريين) بلغت مقدشو أوج عظمتها وازدهارها(٢).

وقد استولى النبهانيون على عرش سلطنة باته في مستهل القرن (السابع الهجري) وبسطوا نفوذهم على شطر كبير من شرقي أفريقية والجزر المواجهة له. ونشطت الحركة التجارية في عهدهم نشاطاً عظيًما وتوافد على سلطنتهم التجار المسلمون من كل مكان. وسارت قوافل المسلمين التجارية من مَنْبَسَّى مارة بموشى ونيروبي الحالية حتى وصلت إلى بحيرة فيكتوريا وغربي أفريقية، فقد ذكر ابن ماجد الملاح العربي المشهور - في القرن التاسع الهجري - : إن طريق التجار لاستجلاب الفلفل «قديماً» هو بلاد الكانم(٣).

وكون المسلمون مستقرات وأسواق لهم بالداخل واختلطوا بالأفريقيين وصاهروهم ونشروا الإسلام بينهم(٤).

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

(٢) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب: ص١٥٣.

(٣) نقلًا عن التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، بحث للدكتور صبحي لبيب، بالمجلة التاريخية (المجلد الرابع العدد الثاني) مايو سنة ١٩٥٢م ص٦.

(٤) عبد العزيز كامل: جغرافية الإسلام في أفريقية: ص٤٥.

وبالرغم مما تعرضت له الأسرة النبهانية من صراع حول السلطة إلا أنها استطاعت أن تحقق انتعاشاً كبيراً في شرقي أفريقية مما كان له أثر كبير في نشر الإسلام بين الأفريقيين[1].

---

(١) حوليات آداب عي شمس (المجلد العاشر) ص ٣١٢ - ٣١٣.
بحث للدكتور جمال زكريا عن استقرار العرب بساحل شرق أفريقية.

سلطنة كلوة (٣٦٥-٩٠٢ هـ / ٩٧٥-١٤٩٩ م)

أسسها(*) علي بن الحسن بن علي، ابن صاحب شيراز، وأبناؤه الستة، وذلك في النصف الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي، على الأرجح[١]. وقد اتخذ مدينة كلوة عاصمة لدولته وبنى بها القلاع والحصون(**). وكان أبناؤه الستة قد نزلوا على امتداد الساحل الشرقي لأفريقية والجزر المواجهة له، كل بموضع معين، واعترفوا بسيادة أبيهم عليهم، نزل أحدهم في جزيرة منبسى وبنى بها مدينة منبسى، ونزل الثاني في جزيرة زنجبار، والثالث في جزيرة شاكة، والرابع في جزيرة بمبه، والخامس في جزيرة مافيه[٢].

ولما شعر علي بن الحسن بقوته وعزة جانبه أخذ يمد سلطانه على

(*) أنظر: هجرة الفرس الشيرازيين، الفصل الثاني من الباب الثاني.

(١) W. Hichens: Islam in East Africa, Islam-To-Day, P.117. note.2.

(**) هناك مكانان يحملان اسم كلوة: جزيرة كلوة التي اتخذها علي بن الحسن عاصمة لدولته، وبلدة كلوة التي تقع على الساحل الأفريقي شمال الأولى، وقد انتقل الحكم إليها، كما يؤخذ من كلام ابن بطوطة: «وهم سكان كلوة أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج «الرحلة»: ص٢٥٨.

(٢) محي الدين الزنجباري، السلوى في أخبار كلوة، نشره: A. Strong. في (J.R.A.S.) 1895.P.P. 411 — 19

بعنوان: A History of Kilwa

الأمم المجاورة فأرسل أحد أبنائه إلى جزيرة انجوان من جزر القمر، وأرسل آخر إلى جزيرة منفية ولقب هذا الابن الشاب بالسلطان. واستطاع علي هذا أن يؤسس مملكة قوية سيطرت على جزء كبير جداً من ساحل شرقي أفريقية والجزر المواجهة، امتد قبل وفاته من سفالة جنوباً إلى منبسى شمالاً، مما ساعد على انتشار الإسلام بتلك الأنحاء. واستمر حكمه أربعين عاماً[1].

ولقد وصل الإسلام تلك الأماكن قبل هجرة الشيرازيين إلى شرقي أفريقية بوقت طويل[2] بل غلب المسلمون على جزيرة مدغشقر منذ نهاية الخلافة الأموية وبداية الدولة العباسية كما ذكر ذلك المسعودي[3].

وبسطت دولة كلوة سيطرتها على مناجم الذهب والحديد في روديسيا[*] (الحالية) منذ عهد ثاني سلاطينها، وبلغت في عهده ذروة قوتها، فأخذت تمد نفوذها على المدن المجاورة وأخضعت لحكمها الجزر القريبة مثل بمبة وزنجبار ومافيه والبعيدة مثل جزر القمر. وكان حكام المدن والإمارات والسلطنات العربية الممتدة على طول الساحل من مقدشو شمالاً إلى سفالة وموزمبيق جنوباً يعترفون بسلطان كلوة على أنه أعظمهم مقاماً ورفعة[4].

وسارت سلطنة كلوة في طريقها نحو الازدهار، ونمت ثروتها، وحققت شهرة بحرية وتجارية منقطعة النظير في القرن (السادس الهجري).

---

(١) الزنجباري، المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) قد ناقشت ذلك في نهاية الفصل الأول من الباب الثاني (تاريخ وصول المسلمين إلى سفالة)، (بداية دخول الإسلام جزيرة مدغشقر).

(٣) مروج الذهب (تحقيق محيي الدين عبد الحميد) جـ١ ص٩٨.

(*) كان اسمها القديم مملكة (مونو موتابا).

(٤) حراز: أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي ص ٤ ـ ٥.

وباتت لها صلات اقتصادية وثقافية بدول العالم الإسلامي الفسيح، فكان أسطول كلوة يحمل ذهب سفالة وغيره من منتجات الساحل ويوزعها على أسواق العالم الإسلامي، كما كانت دولة كلوة توفد أبناءها لتلقي العلم في مساجد العالم الإسلامي ومعاهده في الحرمين ودمشق والقاهرة وغيرها(١). وبنيت المساجد في كل مكان، واحد في كيزاماكي في زنجبار، كتب عليه بالخط الكوفي «أسسه السيد أبو عمران موسى بن الحسن سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م». ومسجد عظيم في كلوة على الطراز القديم لا تزال آثاره باقية حتى اليوم، يؤرخ من حكم محمد بن سليمان بن الحسن سنة ٧٨٧هـ، وهناك مساجد وبقايا دور جميلة، تشهد برقي الحضارة الإسلامية التي وفدت على الساحل(٢).

واشتغل المسلمون هناك بالتجارة وأثروا منها ثراء واسعاً، وزاد اختلاطهم بالأفريقيين وتزاوجهم معهم، وكانت نتيجة ذلك الاختلاط بروز الشعب السواحلي بلغته ومقوماته، وعلموا قبائل الداخل التي احتكت بهم حياة الأمن والاستقرار وحولوهم إلى الإسلام(٣).

ويبدو أن تجار العرب السنيين هم الذين نشروا الإسلام هناك قبل رحيل الفرس الشيعيين اليهم، وأن سلاطين كلوة الشيعيين لم يحاولوا فرض مذهبهم على الافريقيين، يدل على ذلك أن المذهب السني هو الذي ساد دولة كلوة، كما أن السلطان قد انتقل إلى مسلمين سنيين، ومما يؤكد ذلك أن ابن بطوطة حين زار كلوة سنة ٧٣١هـ قال عن أهلها «والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب(٤)»، وعن سكان جزيرة منبسى

---

(١) Trimingham: Islam in Ethiopia, P.62 and Islam in East Africa, P.12.

(٢) W. Hichens: Islam in East Afica, Islam-To-Day, P.118 (1942)

(٣) Coupland: East Africa and its Invaders, PP. 28-29 and Becker: Islam studein, 11, P.170.

(٤) الرحلة: ص ٢٥٨.

«وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح[1]» وهذا يدل على أن التأثير الشيعي كان ضعيفاً.

وقد ساعدت القوة السياسية والعسكرية لدولة الزنج العرب على التوغل في داخل القارة للحصول على ثرواتها وللاتجار مع أهلها ونشر الإسلام بينهم حتى أضحى لهم في قلوب الزنوج رعب عظيم ومهابة، كما ذكر ذلك السيرافي[2] ثم الإدريسي[3]. وجابت قوافلهم التجارية المناطق الداخلية، وسارت من دار السلام إلى أوجيجي على بحيرة تنجانيقا مارة بطابورة واتخذ التجار مستوطنات وأسواقاً لهم بالداخل، واختلطوا بالأفريقيين وأصهروا إليهم ونشروا الإسلام بينهم[4].

وقام المسلمون باستخراج الذهب والحديد من مناطق روديسيا (الحالية) واتجروا فيهما.

قال الإدريسي: «بلاد سفالة يوجد في جبالها معادن الحديد الكثيرة، وأهل جزاير الرانج وغيرهم من سكان الجزاير المطيفة بهم يدخلون اليهم، ويخرجونه من عندهم إلى ساير بلاد الهند وجزايره، فيبيعونه بالثمن الجيد[5]».

وزادت دولة كلوة غنى وتنوعت مشروعاتها الاقتصادية لدرجة أذهلت ابن بطوطة حين زارها، فقد أدهشه الرخاء المادي الذي كان يرفل فيه أهلها والحضارة اليانعة التي ازدانت بها[6]، وصور الحياة فيها تصويراً يعيد

---

(١) الرحلة: ص٢٥٧.
(٢) رحلة السيرافي: ص ١٠١.
(٣) نزهة المشتاق (مخطوط مصور) المجلد الأول، ص٤٨.
(٤) عبد العزيز كامل: جغرافية الإسلام في أفريقية: ص ٤٥ - ٤٧، Coupland: East Africa, P.30.
(٥) نزهة المشتاق (مخطوط مصور) المجلد الأول: ص٥٤.
(٦) الرحلة: ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

مجد دولة الإسلام في ظل حكومة الخلفاء الراشدين، وكانت حكومة كلوة ذات نظم سياسية وادارية راقيتين، تحكم وفق شريعة الإسلام[1]. مما ساعد على انتشار الإسلام بين الأفريقيين.

وتعاقب على حكمها قبل مجيء البرتغاليين ثلاثون سلطاناً، آخرهم الملك فضيل بن سليمان الذي تولى الحكم سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م[2]. وقد انتقل الملك من بيتِ علي بن الحسن الشيرازي إلى بيت أبي المواهب، فأخذ الحسن بن طالوت الملك قهراً، وكان مشهوراً بالشجاعة والرأي، واستمر في الحكم ثمانية عشر عاماً ثم مات، فتولى بعده أبو المواهب الحسن بن سليمان المطعون بن حسن بن طالوت المهدلي، وكان قد حج إلى مكة، وتلقى العلوم في عدن، وكان عالماً فاضلاً موصوفاً بالكرم والشجاعة، ولما استقر له الأمر أخذ ثأر أبيه من أهل منفسه، فحاربهم وغلبهم على البلاد، وهو أول من ملك منفسه استقلالاً[3] حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي[4].

وأبو المواهب هذا هو الذي زار ابن بطوطة كلوة في عهده، وأشاد به، وذكر أنه كان كثير المواهب والمكارم كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم، ويخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة فإذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم، فقد كانوا يقصدونه من العراق والحجاز وغيرهما[5].

وبلغ من شدة كرمه أن طلب أحد فقراء اليمن منه أن يخلع ثيابه التي عليه وهو خارج من المسجد، ليعطيها للفقير ففعل، فعظم شكر

---

(١) الرحلة: ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٢) أنظر السلوى في أخبار كلوة: (J.R.A.S.) 1895. P.P. 411-424.

(٣، ٤) A History of Kilwa, (J.R.A.S.) 1895. P. 415-16

(٥) ابن بطوطة: الرحلة: ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

الناس للسلطان على تواضعه وكرمه. ولما أخذها منه ابنه وعوضه عنها بعشرة من العبيد، أمر السلطان للفقير بعشرة أخرى وحملين من العاج، إذ معظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب[1].

ولما توفي هذا السلطان الكريم الفاضل، تولى أخوه داود، فكان على الضد من ذلك، إذ كانت الوفود تقيم ببابه الشهور فيعطيها القليل، فانقطع عن بابه الوافدون[2].

وقد وصف صاحب السلوى[3] في أخبار كلوة السلطان داود بقوله: «وهو الملك الزاهد التقي صاحب البراهين في زمانه»، فربما كان زهده هذا هو سبب امساكه عن تبذير أموال المسلمين.

وما ذكره صاحب السلوى من أن مدة ولايته كانت أربعة وعشرين يوماً[4] تتناقض مع كلام ابن بطوطة من أن الوافدين كانوا يقيمون الشهور الكثيرة عنده فيعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه[5].

وكلام ابن بطوطة [6] ـ بالرغم من أنه زار كلوة في عهد أبي المواهب ـ قبل تولية داود هذا ـ أقرب إلى الصواب، إذ ان المدد التي حددها صاحب السلوى لسلاطين كلوة غير دقيقة، إذ يقول: ان على الشيرازي وأبناءه وصلوا كلوة في منتصف القرن الثالث الهجري ثم يعدد السلاطين الذين تولوا عرش كلوة ذاكراً مدة حكم كل منهم. وتلك المدد إذا جمعت تكون ٢٧٥,٥ سنة تقريباً بالرغم من أنه أغفل مدد حكم أربعة سلاطين منهم. وعلى هذا لا تصل هذه المدد إلى سنة ٩٠١هـ التي حددها بداية لحكم آخر

(١، ٢) ابن بطوطة: الرحلة: ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٣) OP. Cit, PP. 416-17.

(٤) A History of Kilwa (J.R.A.S.) 1895. P.417.

(٥) الرحلة: ص٢٥٩.

(٦) أنظر: السلوى في أخبار كلوة .Op. Cit. PP. 414-424

هؤلاء السلاطين بحال من الأحوال، بل لا تصل إلى منتصف القرن السابع الهجري.

ولقد استولى الحسين بن سليمان المطعون على عرش كلوة وعزل داود، وبعد ست سنوات ونصف من حكمه - كما ذكر صاحب السلوى[١] - خرج إلى قتال كفرة الملل، وجاهد في سبيل الله ثم استشهد فتولى بعده طالوت بن الحسين، وكانت مدة ولايته سنتين وأربعة أشهر وأربعة عشر يوماً، ثم استناب ولده الحسين بن سليمان الملقب «أشزفكي» وسافر هو لأداء فريضة الحج، فلما وصل قريباً من منفسه واتته منيته، فدفن في قرية «تواك»، فأصبح نائبه سلطاناً على البلاد، ومكث في الحكم ثلاثاً وعشرين سنة[٢].

وتولى آخر سلاطين كلوة السلطان فضيل سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م وبقي في السلطنة حتى قدم البرتغاليون كلوة سنة ٩٠٢[٣] هـ/ ١٤٩٨م.

ويلاحظ أن الفترة الأخيرة من حياة سلطنة كلوة اتسمت بالصراع العنيف على العرش، واستئثار الأمير أو الوزير بالسلطة وضعف شخصية السلاطين كما يتضح أن كلوة فقدت سيطرتها على جزيرة زنجبار، إذ كان لها سلطان مستقل. وان بقي الجزء الجنوبي كله تحت سيطرتها حتى سفالة، فكانت المكوس تحمل من سفالة إلى خزائن كلوة. وبالرغم من كل ذلك شاع الرخاء المادي أرجاء السلطنة وضربت في ميدان التقدم الحضاري بنصيب كبير، يدل على ذلك ما وجده البرتغاليون عندما قدموا عليها مما أدهشهم من تجارة أسواقها نافقة ورخاء مادي منقطع النظير ينعم به

---

(١) Ibid, P. 417.

(٢) Loc. Cit.

(٣) Ibid : PP. 425-27.

الأهلون في حياة مترفة، ومبان مشيدة بالحجارة والجص بلغت درجة فائقة في الابداع والتنسيق والاتقان، وأساطيل تجارية ضخمة تجوب المحيط الهندي والبحار تطن كخلايا النحل، وسكان على درجة راقية من حسن الخلق ورقة الطباع والمدنية[1] مما أثر في نشر الإسلام.

(١) أنظر: جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية ص: ٣١٨ وما بعدها.

مملكة شوة الإسلامية
(٢٨٣ - ٦٨٨ هـ / ٨٩٦ - ١٢٨٩ م)

وهي أقدم مملكة إسلامية قامت بالحبشة - فيما أعلم - أسسها مهاجرون من قبيلة بني مخزوم العربية القرشية، منذ سنة ٢٨٣هـ (٨٩٦/٨٩٧م)، في منطقة من أمنع المعاقل، فوق مرتفعات الهضبة الحبشية، حيث تقع مدينة أديس أبابا الحالية[١].

وقد هاجر أسلافهم بزعامة ود بن هشام المخزومي في عهد عمر بن الخطاب - إلى الحبشة -، اثر عزله فارسها الأشهر خالد بن الوليد - رضي الله عنه - من قيادة جيش المسلمين. كما ذكر ذلك ترمنجهام[٢].

ويبدو أن هؤلاء المهاجرين قد اشتغلوا بالتجارة، فأثروا منها ثراء عظيمًا. ولما نبه شأنهم تصاهروا مع الأسرة الحاكمة، فآل الحكم اليهم، أو أن ما وصلوا إليه من ثروة ونفوذ لدى الأسرة المتربعة على عرش الحبشة، دفعها إلى اسناد حكم مملكة شوة الإسلامية إلى أسرة بني مخزوم القرشية. وأياً كانت العوامل التي ساعدت تلك الأسرة المسلمة على اعتلاء عرش مملكة شوة الإسلامية فقد استمرت تحكمها قرابة أربعة قرون. تمتعت خلالها المملكة بالأمن والاستقرار وظلت خلالها في عزلة عن العالم، لما

---

(١) Trimingham: Islam in Ethiopia: 58.

(٢) Trimingham: Ibid, 58, Note: 1.

تيسر لها من عزة ورخاء، لاكتفائها الذاتي واشتغال رعاياها بالزراعة والرعي، مما يتيح حياة الاستقرار، ولقوة الأسرة الحاكمة وما تتمتع به من ثروة ونفوذ.

وظل أمر تلك المملكة الإسلامية المخزومية مجهولاً إلى أن اكتشف المستشرق الإيطالي الدكتور روسيني شيرولِّي - وثيقة عربية، سنة ١٣٥٥هـ، تعرض للأحداث التي مرت بها تلك المملكة في أواخر عهدها من سنة ٦٢٨هـ إلى سنة ٦٨٨هـ، حين دب فيها الضعف، ومزقت أوصالها المنازعات الداخلية على السلطة، والخارجية مع الإمارات الإسلامية المجاورة، التي كانت تبغي التخلص من سيطرة الحروب عليها[١].

وقد كانت تلك المملكة الإسلامية مركزاً لنشر الإسلام وثقافته في تلك المنطقة وما جاورها، وبذل سلاطينها جهوداً كبيرة لنشر الإسلام صوب الداخل سنة ٥٠١هـ في بلاد أرجبة[٢] (Argobba) وأضافوها إلى أملاكهم سنة ١١١٨م كما تشير تلك الوثيقة السالفة. ومن شوة انتشر الإسلام فوق الهضبة[٣].

وكذلك قامت إمارات إسلامية في تلك المنطقة وما يليها شرقاً في عدل (Adal) ومورة (Mora) وهوبت (Hobat) وجداية (Jidaya)، غير أنها لم تعمر طويلاً للخلافات والتنافس فيما بينها، فضلاً عن أن عنايتها كانت منصبة على شؤون التجارة، فسرعان ما طوتها أقوى الإمارات الإسلامية، وهي إمارة أوفات التي استولت على مملكة شوة سنة (٦٨٤هـ) ثم على باقي الإمارات الإسلامية بعد ذلك بسنوات[٤].

---

(١) Trimingham: Op. Cit. P.58.

(٢) Ibid, P. 62.

(٣) Loc. Cit.

(٤) Ibid; PP. 58, 62.

مملكة وفات

من منتصف القرن السابع الهجري حتى سنة ٩٥٠ هـ

وقد كانت تسمى (وفات) أو (جبره) أو (جبرت)، وكانت العامة تطلق عليها لفظ (أوفات). وهي أوسع الممالك التي قامت في الحبشة، إذ تبدأ من ساحل البحر الأحمر ممتدة إلى قلب الحبشة شاملة إقليم شوة الشرقي، كما كانت أقواها، لتحكمها في الطريق التجاري الذي يربط داخل الحبشة بميناء زيلع، ولسيطرتها على تجارة الحبشة[1].

«قال في مسالك الأبصار: قال الشيخ عبد الله الزيلعي: وطول مملكتها خمسة عشر يوماً وعرضها عشرون يوماً بالسير المعتاد، قال: وكلها عامرة آهلة بقرى متصلة، وهي أقرب أخواتها إلى الديار المصرية وإلى السواحل المُسَامِتة لليمن، وهي أوسع الممالك السبع أرضاً، والإجلاب إليها أكثر لقربها من البلاد. قال: وعسكرها خمسة عشر ألفاً من الفرسان ويتبعهم عشرون ألفاً فأكثر من الرجالة»[2].

وقد انتشر الإسلام فيها منذ القرن الأول الهجري، إذ نزل فيها المسلمون أولاً للتجارة والإقامة ومنها انتشر الإسلام في شوة المحاذية لها من

---

(١) صبح الأعشى: جـ٥ ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٢) نقلاً عن صبح الأعشى: نفس المكان.

جهة الغرب. وقد قامت في شوة مملكة إسلامية منذ سنة ٢٨٣هـ[١].

ويدين رعايا وفات بالإسلام ويتعبدون على مذهب الإمام الشافعي مع وجود بعض الأحناف ويتكلمون العربية والحبشية[٢].

وقد أسس مملكة وفات الإسلامية مهاجرون من قريش، من بني عبد الدار أو من بني هاشم، من ولد عقيل بن أبي طالب، قدم أسلافهم من الحجاز، واستوطنوا مدينة أوفات التي تقع غربي زيلع - وهي من أكبر مدن الحبشة، واشتهر قوم منهم بالصلاح والتقوى، إلى أن كان منهم عمر(*) الملقب بـ «ولشمع»، أحد تجار أوفات الأقوياء، فولاه الحطِّي(**) مدينة أوفات وأعمالها، لما نبه شأنه، فحكم بها مدة طويلة، وشكرت سيرته، وصارت له بها شوكة قوية. وذلك منذ منتصف القرن السابع الهجري[٣].

وأول من أشار إلى تلك المملكة من المؤرخين العرب هو ابن سعيد، إذ قال: «ومن زيلع إليها (وفات) نحو عشرين مرحلة وعمارة وفات متفرقة، دار الملك على تل، والقلعة على تل، وهي بعيدة عن البحر جداً، وهي في جهة الغرب عن زيلع... ... ... وأهلها مسلمون[٤]».

---

(١) حسن محمود: الإسلام والثقافة ص٣٩٣، Trimingham: Islam in Ethiopia, PP.51, 138-9

(٢) الإلمام: ص٧، وصبح الأعشى: جـ٥ ص٣٢٤.

(*) قال الدكتور زاهر رياض: في مقال بعنوان (زيلع) بمجلة نهضة أفريقية (١/١١) سبتمبر ١٩٥٨ ص٦٨ - عن عمر هذا: «فكان أول وال مسلم بالحبشة يحكم ناحية من النواحي». لكن! كيف ذلك وحكام شوة المخزومية مسلمون منذ سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م، وليس في كلام المقريزي ولا العمري ما يؤيده..!

(**) «الحطي، بلغة الأحباش، معناه السلطان، وهو الملك الأكبر الحاكم على جميع أقطارهم» صبح الأعشى جـ٥ ص٣٢٣.

(٣) الإلمام: ص٩.

(٤) نقلاً عن صبح الأعشى: جـ٥ ص٣٢٥.

وقد جرد علي بن عمر أربع حملات على مملكة شوة الإسلامية، استطاع في الأخيرة أن يسقط (مالرزا) حاكمها، وأن يضم مملكة شوة إلى أملاكه سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م. وبعد ذلك بسنوات استطاع أن يفرض سلطانه على الإمارات الإسلامية. عدل، ومورة، وهوبت، وجداية. وفي نفس الوقت تقريباً كان الإسلام ينتشر بين السيداما في جنوبي الحبشة وبين سكان شوة على مرتفعات الحبشة(١).

ويغلب على الظن أن (وفات) كانت تابعة لسلطنة شوة المخزومية، تحت حكم بني مخزوم القرشيين في ظل حكم الأسرة الأجوية للحبشة. فلما ضعفت مملكة شوة الإسلامية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، بسبب الفتن الداخلية والحروب الخارجية التي مزقت أوصالها - استقل عمر ولشمع بحكم وفات، ثم أسقط على ابنه الأسرة الحاكمة في شوة، وضم مملكة شوة إلى وفات تحت سلطانه وذلك بعد أن اتفق مع (يكونوا أملاك) رأس الأسرة السليمانية على بذل العون له ليعتلي عرش الحبشة ويسقط الأسرة الأجوية الحاكمة - بعد أن مزقت الحبشة الفتن والحروب - في نظير اطلاق السراح له ليستولي على الممالك الإسلامية بالحبشة ويضمها إلى سلطانه ويظل تابعاً ليكونوا أملاك الذي أصبح امبراطوراً للحبشة(٢).

وكانت مملكة وفات الإسلامية قد خضعت لمملكة داموت الوثنية على مطلع تكوينها على عهد عمر ولشمع هذا ثم خضعت لمملكة الحبشة تحت حكم السليمانيين بعد أن قضت على مملكة داموت الوثنية. ولكن مملكة وفات لم تلبث أن استعادت سيادتها بل واستقلت عن الحبشة فيما بعد،

---

(١) Trimingham: Op. Cit. PP. 38, 62

(٢) زيلع، مقال نشره د. زاهر رياض بمجلة نهضة أفريقة (١/١١) سبتمبر ١٩٥٨م

وتزعمت حركة الجهاد الإسلامي ضد الحبشة المسيحية[1].

وكان سلطان (وفات) أقوى سلاطين الممالك الإسلامية بالحبشة، بل «كلهم متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون إليه[2]» وكانت تتبعه امارتان صغيرتان هما عدل ومورا.

وملك سكانها السفن فحملت متاجرهم عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي والسلاح الوفير ليحموها من القراصنة، كما كان لديهم الرجال المدربون على استخدامه. وأثرى مسلمو وفات بالتجارة ثراء عظيمًا، وكان لتفوقهم المادي والحضاري على بقية السكان أن نبه شأنهم. فانتشر الإسلام بين السكان غير المسلمين.

وتمكن المسلمون هناك بما لديهم من مال وثراء وسفن من إيفاد أبنائهم إلى مراكز العلم ومساجده في مصر والشام والحجاز واليمن، يرتشفون من معين لا ينضب، ويتزودون بثقافة اسلامية متعددة الجوانب، وعاد بعضهم فقام بدور الداعية وتولى آخرون القضاء، وقام بعضهم بالزعامة الدينية والسياسية هناك وساهم هؤلاء وأولئك في نشر الإسلام وثقافته، ففتحوا الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادىء الدين[3].

وقد ذكر القلقشندي أنها كانت خصبة التربة موفورة الماء، تنتج الحبوب كالقمح والشعير والذرة والخضروات والفاكهة وقصب السكر وغير ذلك. .، وكانت الأسعار بها رخيصة لدرجة أن كان عرجون الموز الذي

---

(١) Trimingham; Op. Cit; P.67

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: جـ٥ ص٣٣٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: جـ٥ ص٢٢٦، وزاهر رياض: العصر الأول من الأسرة السليمانية (رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة، لم تنشر تحت رقم ١٢٩) ص٧ - ١٠
Trimingham: Islam in Ethiopia, P.62.

يضم مائة موزة يباع بربع درهم، وطبق اللحم الذي يزن ثلاثين رطلاً بدرهم ونصف، وكان التعامل يجري فيها بدنانير مصر ودراهمها الواصلة إليها صحبة التجار «إذ ليس بأوفات سكة تضرب، بل معاملاتهم بدنانير مصر ودراهمها الواصلة اليها صحبة التجار»[١] كما كانت تتعامل بالذهب الذي كان يجلب إليها من منطقتي داموت وسحام، وتساوي الأوقية منه ثمانين إلى مائة وعشرين درهماً على قدر جودة الذهب. ولم تضرب بها عملة، لأنها لو ضربت عملة، لم ترج في بلاد غيرها[٢].

والظاهر أن تاريخ وفات لم يتضح الا بعد أن مات ولشمع هذا، وترك أربعة أو خمسة أبناء، تولوا عرشها واحداً بعد آخر، الى أن تولى آخرهم صبرالدين محمد بن عمر بن ولشمع[٣] بن منصور بن عمر عرشها «في حدود سنة سبعمائة من سني الهجرة وطالت مدته».

واستمر الملك في نسله من بعده تحت سلطان ملك الحبشة المسيحي وخضوعهم له إلا أن بعض الذين تولوا عرش وفات حاول الإستقلال بها والتمرد على سلطان ملك الحبشة وخلع طاعته بسبب عدوان الحبشة المسيحية على المسلمين[*]. وأول هؤلاء علي بن صبر الدين حفيد عمر ولشمع، وقد اشتهر ذكره في البلاد وخلع طاعة الحطي[**] إلا أنه لم يلبث أن عاد لطاعته إذ خذله البدو وعز ناصروه[٤]، فولى الحطي (سيف أرعد ٧٤٥ ـ ٧٧٣هـ) ابنه أحمد. ولكن أول من استبد من ملوك وفات المسلمين بالأمر وحارب ملك الحبشة وأسر الكثيرين من عساكره وغنم منهم مالاً

(١) القلقشندي: المرجع السابق: جـ٥ ص٣٣١.
(٢) نفس المرجع، والمقريزي: الإلمام: ص ٦ ـ ٧.
(٣) المقريزي: الإلمام: ص٩.
(*) أنظر: مناهضة الغرب للاسلام، الباب الأخير.
(**) الحطي، ملك الحبشة كلها.
(٤) نفس المرجع والصفحة.

كثيراً ـ هو حق الدين، فقد قوي أمره وجمع الناس حوله وهزم جيوش ملك الحبشة سيف أرعد. وهو أول من خرج على أهله وحاربهم بالرغم من اشتهاره في بداية أمره بالصلاح واشتغاله بطلب العلم، وسبب ذلك أن جده علياً كان قد أعرض عنه وكرهه عماه ـ وهما ملا أصفح وأبو بكر ـ كراهية شديدة، وأخرجه من مدينة وفات إلى بعض أعمالها وألزم واليها أن يهينه ويستخدمه، فأخرجه الوالي لجباية مال بعض النواحي فعمل على تدعيم مركزه وجمع الناس عليه حتى قوي أمره وأظهر الخلاف على من ولّاه، فحاربه الوالي فانتصر عليه حق الدين وقتله وغنم ما كان معه وضمّ عسكره إليه بعد أن استمالهم بالمال الجزيل، فاستنجد عمه ملا أصفح بالحطي سيف أرعد، فأمده بعسكر كثير عدتهم ثلاثون ألفاً ـ على ما يقال ـ فانتصر حق الدين عليهم وغنم ما معهم، فاستنجد عمه بالحطي ثانية فأمده بعسكر كثير فهزمهم وقتل عمه وقتل معظم العساكر الذين معه وغنم ما معهم، وسار إلى مدينة وفات فأقر جده عليها وأخرج أهلها بعيالاتهم إلى أرض شوة، وبنى عاصمة لمملكته هناك سماها (وحل)، ومنذئذ تلاشت مدينة وفات حتى خربت[1].

وما زال حق الدين يحارب الحطي سيف أرعد حتى مات سيف أرعد سنة ٧٧٤هـ وتولى ابنه داود فاستمر حق الدين على محاربته والله يؤيده بنصره، فكانت بينه وبين أمحره (الأحباش) الكفرة بضع وعشرون وقعة في مدة تسع سنين، استشهد في آخرها سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م بأرض شوة[2]. وسبب ذلك أن الحطي سيف أرعد ثم ابنه من بعده كان قد انتهج سياسة عدوانية ضد مسلمي الحبشة، فقضى بإعدام من يمتنع منهم عن الدخول في المسيحية[3] جرياً على سياسة ملوك الأحباش المسيحيين

(١، ٢) المقريزي: الإلمام: ص ١٠ ـ ١١، وطرخان: المرجع السابق: ص٣٧.
(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

الذين تأثروا بالحروب الصليبية في الشرق الأوسط الإسلامي(*).

ومنذ ذلك التاريخ صارت الحرب سجالاً بين المسلمين بزعامة ملك وفات وبين الأحباش غير المسلمين، يتبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة، تكيفها روح صليبية تنأى عنها الأديان السماوية جميعاً. واستمرت حتى تزعم المسلمون الإمام أحمد بن إبراهيم (سنة **٩٣٢ - ٩٤٩هـ/ ١٥٢٦ - ١٥٤٣م**) الذي اكتسح الحبشة كلها تقريباً ونشر الإسلام بين الأحباش حتى لم يبق على مسيحيته سوى العشر تقريباً كما ذكر المؤرخ كونزلمان(١).

وفي خلال تلك الفترة كانت مملكة وفات تضعف فتخضع لسلطان ملك الحبشة المسيحي وتدفع له إتاوة، وتقوى أحياناً فتطرح تلك التبعية وتتحلل من قيودها وتستقل عن ملك الحبشة وتمتنع عن دفع الإتاوة له(٢)، وتسمي سلاطينها بـ«أمراء عدل» بعد عودة أبناء سعد الدين العشرة من اليمن، ثم بـ«أئمة هرر» منذ الإمام محفوظ صهر القرين. واشتهر من ملوكها: سعد الدين أبو البركات محمد بن صبر الدين، وقد اتبع سياسة أخيه حق الدين في جهاد أمحرة الكفرة «لكن بتؤدة وسياسة حسنة، فكثرت عساكره وتعددت غاراته واتسعت مملكته»(٣) وقد استشهد في جزيرة زيلع سنة **٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م** بعد حكم دام نحوا من ثلاثين سنة «وكان رجلاً صالحاً»(٤).

والملك جمال الدين محمد بن سعد الدين، وقد تولى الملك صغيراً،

(*) سأتناول ذلك بالتفصيل في الفصل الأول من الباب السادس.
(١) نقلاً عن فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ: ص**٥٣** (ط أولى).
(٢) عرب فقيه: فتوح الحبشة: ص ٢٨، Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 62, 65
(٣) الإلمام: ص١١ وصبح الأعشى جـ٥ ص٣٣٧.
(٤) المرجع السابق: ص١٣.

فخرج عليه البرابر(*)، وامتنعوا عن دفع زكاة أموالهم، فوجه إليهم الأمير «حرب جوش» فعرض عليهم الصلح، فجمعوا لـه الجموع وأبوا إلا محاربته، فحاربهم وهزمهم فانقادوا لأمره ودخلوا في طاعته ودفعوا الزكاة .

وبعد سبع سنين من حكمه حسده بنو عمه، فثاروا عليه وقتلوه سنة ٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م « وكان خير ملوك زمانه ديناً ومعرفة وقوة وشجاعة ومهابة وجهاداً في أعداء الله تعالى؛ بحيث انه م ، كثيراً من بلاد الحطي وأعماله، ودخل جماعات من عمال الحطي وولاة أعماله في طاعته وقتل وأسر من أمحرة الكفرة ما لا يدخل تحت حصر حتى امتلأت بلاد الهند واليمن وهرمز والحجاز ومصر والشام والروم وفارس والعراق من رقيق الحبشة، الذين أسرهم وسباهم في غزواته، وما زال مؤيداً من الله تعالى منصوراً على أعداء الله حتى ختم الله له بالحسنى وكتب له الشهادة. وكان يصحب الفقهاء وأهل الفقر من الصالحين وينشر العدل في أعماله حتى في أهله وولده»[٢] وأسلم على يديه عالم من أمحرة لا يحصى[٣].

والملك شهاب الدين أحمد بدلاي، والذي استرد البالي من أيدي النصارى، ورد إليها ألف بيت من المسلمين، وقد حدث في أيامه سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٦م وباء عظيم مات فيه من المسلمين والنصارى عالم لا يحصى، ومات الحطي نفسه وأقام الأحباش بدله صبياً صغيراً[٤].

ولقد أظهر الملك بدلاي هذا سيرة العدل في مملكته، فأمنت

(*) كان الكتاب والمؤرخون العرب يطلقون هذه التسمية على سكان بربرة بشرقي أفريقية والمنطقة المحيطة بها.

(١) الإلمام: ص١٦.

(٢،٣) الإلمام ص: ١٧ - ١٨.

(٤) الإلمام: ص ١٩ - ٢٠.

الطرقات وانكف الناس عن الظلم من العسكر وغيرهم، ورخصت الأسعار في أيامه[1].

والجراد أبون، وقد «ملك سبع سنين، وأقام الحق وحكم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقتل قطاع الطريق وأبطل الخمور واللعب والرقص بالطبول، وعمر البلاد، وأحب الاشراف والفقهاء والفقراء والمشائخ، واستولى على ملكه وأصلح الرعية»[2].

وأشهر هؤلاء الملوك المسلمين ـ في الحبشة ـ جميعاً، الإمام أحمد ابن ابراهيم القرين (٩٣٢ ـ ٩٤٩هـ/ ١٥٢٦ ـ ١٥٤٣م)، الذي أعاد لحكام مسلمي الحبشة سيرة حكومة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب «رضي الله عنه»، وأدخل الأحباش المسيحيين والوثنيين جميعاً في الإسلام حتى لم يبق على مسيحيته إلا قرابة عشرهم[3].

وبالرغم من انشغاله في الجهاد الإسلامي ورد عدوان الحبشة المسيحية وحليفتها البرتغال على مسلمي الحبشة الا انه لم يدَّخر وسعاً في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، والعمل على توفير حياة حرة كريمة لرعيته، مما جعل حكمه فريداً بين حكم الملوك السابقين، وجعله أشهرهم وأقواهم وأعدلهم على الإطلاق وقد وحد ممالك المسلمين جميعاً تحت سلطانه، بل تربع على عرش الحبشة كلها. وقهر الأحباش الذين كان المسلمون قبله يؤدون لهم الأتاوة وأدخلهم تحت سلطانه، وأدخلهم في الإسلام. ولولا تدخل البرتغاليين ومساعدتهم ملك الحبشة الطريد وفلول جيشه المهزوم ـ وقتلهم الإمام أحمد ـ لظلت الحبشة مسلمة جميعها، إلى يومنا هذا.

---

(١) الالمام: ص ١٩ ـ ٢٠.

(٢) عرب فقيه: فتوح الحبشة: ص ٥.

(٣) عرب فقيه: فتوح الحبشة: ص١٨٩، وصفحات متفرقة وكونزلمان نقلاً عن فتحي غيث: الإسلام والحبشة: ص١٥٣.

ممالك الطراز(*) الإسلامي:

وقد ذكرها المقر الشهابي ابن فضل الله العمري، فيما بين سـني (١٣٤٣ ـ ١٣٤٨م) في كتابيه: «التعريف» و«مسالك الأبصار»، ونقل عنه ما كتبه القلقشندي، في كتابه «صبح الأعشى»، وذكرها أيضاً المقريزي في أول كتابه «الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام».

«ببلاد الحبشة سبعة ملوك مسلمين، لهم سبع ممالك، كل مملكة منفردة بملك، وبها الجوامع والمساجد ينادى فيها بالآذان وتقام بها الجمع والجماعات، وهم مع ذلك تحت أمر صاحب أمحره ملك ملوك الحبشة، يختار لولاية ممالكهم من شاء توليته ولا يردون ويصدرون إلا عن أمره وهي مملكة أوفات والزيلع، ومملكة دوارو، ومملكة أرابيني، ومملكة هدية، ومملكة شرخا، وبالي، وداره. وهذه الممالك تجاور ناصع وسواكن ودهلك»[١].

ويبدو أنها كانت قبل القرن الثامن الهجري، تحت حكم ملوك شوه ثم وفات، ولكنها تمزقت في وحدات صغيرة لما حل بها في القرن الثامن الهجري على أيدي الأحباش المسيحيين، ثم توحدت بعد ذلك على يد الإمام أحمد القرين (٩١٢ ـ ٩٥٠هـ) لتدفع عن نفسها عدوان الأحباش وها هي في القرن الثامن الهجري كما ذكروها.

مملكة بالي:

وكانت تقع جنوب سلطنة دارة، ويحدها شمالاً نهر ويبي، ومن

(*) ويعبر عنها بالطراز الإسلامي، لأنها على جانب البحر كالطراز له: صبح الأعشى جـ٥ ص٣٢٤.

(١) صبح الأعشى جـ٨ ص١١.

الجنوب نهر جرانا إلى دوريا. وبموقعها الجغرافي هذا تحكمت في وادي الصومال. وعنصر السيداما هو أغلب سكانها. ويسكن جنوبه فريق من الجالا. وهذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة وأطيب سكناً وأبرد هواء. ولم يظل الملك فيها محفوظاً في أسرة معينة كبقية الممالك الإسلامية بالحبشة بل انتقل إلى رجل ليس من بيت الملك بمساعدة ملك الحبشة، في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. وأهلها مسلمون أحناف[1].

مملكة هدية:

وتقع جنوب وفات، وتجاور أرابيني، «وطول مملكتها ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام»[2] وتشغل مساحة واسعة بين نهر حواش وجيبي، وتتكون من ثماني مقاطعات، «وصاحبها أقوى اخوانه من ملوك هذه الممالك السبعة، وأكثرهم خيلاً ورجالاً، وأشدهم بأساً على ضيق بلاده عن مقدار أوفات[3]، فله من العسكر نحو أربعين ألف فارس، ومن الرجالة ضعفهم أو أكثر. وطبقة الحكام كانت على الإسلام، ولكن معظم الرعايا كانوا على الوثنية، وهم من السيداما والجوراجي والشابو. واشتهرت هدية بتجارة الخصيان الذين كان السراق يأتون بهم من بلاد الكفار إلى قرية «وشلو» القريبة منها، فيخصونهم فيها بالرغم من تحريم ملك أمحره خصي العبيد وتشدده في ذلك. وكان هؤلاء يعرفون في مصر باسم «الطواشية»[4].

---

(١) صبح الأعشى: جـ٥: ص٣٢٩، وطرخان: المرجع السابق: ص٣٩.
(٢) صبح الأعشى: جـ٥: ص٣٢٧.
(٣) المرجع السابق: نفس الجزء والصفحة.
(٤) المرجع السابق: نفس الجزء: ص٣٢٨.

مملكة دارة:

وتقع على الحدود الغربية لوفات وشمال شرق هدية في منطقة السيداما وتلي بالي، وطولها ثلاثة أيام وعرضها كذلك، وهي أضعف أخواتها حالاً وأقلها خيلاً ورجالاً، فعسكرها لا يزيد على ألفي فارس ومثلهم من الرجالة. وأهلها مسلمون على المذهب الحنفي(١).

مملكة دوارو:

وتقع جنوب شوة، وتمتد حدودها حتى الضفة اليمنى لنهر حواش ممتدة جنوباً حتى نهر ويبي وكانت من أقوى تلك الممالك الإسلامية، وطول مملكتها خمسة أيام وعرضها يومان، وبالرغم من ضيقها فهي ذات عسكر جم نظير عسكر وفات في الرجل والفارس(٢). وأهلها مسلمون على المذهب الحنفي(٣).

مملكة أرابيني:

وهي مربعة: طولها أربعة أيام وعرضها كذلك. ويناهز عسكرها عشرة آلاف فارس، وأما الرجالة فكثيرة للغاية، وأهلها مسلمون على المذهب الحنفي(٤).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: جـ٥: ص٣٢٩.
(٢) المرجع السابق: نفس الجزء: ص ٣٢٦ - ٣٢٧ وحسن محمود: الإسلام والثقافة: ص٤١٢.
(٣) علي طرخان: ص٤١.
(٤) صبح الأعشى: جـ٥: ص٣٢٧.

مملكة شرخا:

وهي تلي هدية، وطول مملكتها أربعة أيام وعرضها ثلاثة أيام. وعسكرها ثلاثة آلاف فارس، وأما الرجالة فضعفهم أو أكثر. وأهلها مسلمون أحناف[1].

ولقد كان بالحبشة ممالك وإمارات إسلامية أخرى لم تحظ بالشهرة والذيوع مثلما حظيت ممالك الطراز الإسلامي منها:

جزيرة دهلك:

وهي تضم مجموعةجزر في بحر القلزم، تجاه ميناء مصوع وغربي مدينة حلي من بلاد اليمن. وقد دخلها الإسلام منذ وقت مبكر جداً صحبة التجار المسلمين. واحتلتها الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان سنة ٨٣ هـ (٧٠٢م) وظلت القوات الإسلامية ترابط فيها إلى عهد الخليفة المأمون العباسي. وكانت مركزاً لتجارة مزدهرة، بخاصة تجارة الرقيق. بل كان لها أسطول تجاري ضخم طالما تغنى به مؤرخو العرب، ومنها نفذ التجار والمهاجرون المسلمون إلى داخل البلاد. ونزلوا بالمدن الساحلية، وكونوا جاليات إسلامية قوية. ولاحتكاك هؤلاء بالسكان وتزاوجهم انتشر الإسلام بين السكان. قال ابن سعيد: وملكها من الحبش المسلمين، وهو يداري صاحب اليمن[2].

مدينة عوان:

وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مقابل (تهامة اليمن)[3].

---

(١) صبح الأعشى: جـ٥: ص٣٢٨.
(٣،٢) المقريزي: الإلمام: ص٧، وصبح الأعشى: جـ٥ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

مناقشة آراء بعض الباحثين حول التوغل الإسلامي في داخل القارة:

أولاً

ذكر بعض الباحثين(*) أن الاستيطان الإسلامي لم يتجاوز الساحل الشرقي لافريقية وان التجار المسلمين لم يتوغلوا في الداخل إلا في القرن الثالث عشر الهجري.

ولكن ما أثبته قبل، يؤكد سيطرة المسلمين على مناطق الذهب والحديد والنحاس بالداخل وتجارتها، منذ (٨٠ ـ ١٨٤هـ) كما ذكر دافدسن[١] أو قبل القرن الخامس الهجري بوقت طويل كما ذكر الادريسي[٢] «بلاد سفالة يوجد في جبالها معادن الحديد الكثيرة، وأهل جزاير الرانج وغيرهم.. (يأخذونه) من عندهم إلى سائر بلاد الهند وجزايره، فيبيعونه بالثمن الجيد» ويؤكد هذا أيضاً أن البحث الأثري في منطقة مناجم (مانيكة) بروديسيا ـ أثبت وجود حضارات أرقى من حضارة البانتو وتتسم بالطابع العربي الفارسي الذي ميز دولة الزنج وهذا يعني توغل المسلمين من العرب والفرس واستيطانهم بتلك الأنحاء منذ العصور الأولى لدولة الزنج[٣].

(*) أمثال د. حسن محمود: الإسلام والثقافة في أفريقية ص٦٨، ود. جمال زكريا: حوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر) ص ٢٨٥-٢٨٦، Franz في بحث له عن تنزانيا Tanzania في كتاب I Kritzech: Islam in Africa و Trimingham في كتابه Islam in East Africa, P. 23-9.

(١) أفريقيات تحت أضواء جديدة ص ١٢ و٢٧٣ ـ ٢٧٤ و ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٢) نزهة المشتاق (مخطوط) المجلد الأول ص٥٤.

(٣) حراز أفريقية الشرقية ص ٤ ـ ٥، وصلاح العقاد: زنجبار: ص٧، ودافدسن: نفس المكان.

ثانياً:

وذكر كوبلاند[1] أن الاستيطان الفارسي أثر في سكان شرقي أفريقية والجزر المواجهة له من الزنوج سلالياً وحضارياً أكثر من الاستيطان العربي.

ولكن الثابت تاريخياً أنه منذ عصر مبكر ساد المذهب السني دولة الزنج[2] التي أسسها الفرس الشيعة - وأن العرب - كما ذكر السيرافي[3] والادريسي[4] كان لهم في قلوب الزنج رعب عظيم ومهابة، وأنهم كانوا سادة التجارة والملاحة. وقد ذكر ذلك المسعودي[5] أيضاً في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حتى إذا زار ابن بطوطة[6] كلوة حاضرة دولة الزنج في القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) وجد حضارتها عربية الطابع إسلامية المنحى وأن أهلها سنيون شافعية.

وهكذا انتشر الإسلام في معظم جهات شرقي أفريقية، واعتنقه معظم سكان تلك الجهات، وأصبح للمسلمين فيها السلطة السياسية، فكونوا دولاً اسلامية شملت تحت لوائها رعايا من غير المسلمين، كما جاورت حكومة مسيحية في الحبشة تربصت بها الدوائر، ومن هنا توسع الإسلام بسلطتيه السياسية والروحية. وهو ما سأعرض له في الفصل الثاني.

---

(١) East Africa and its Invaders, PP. 24-5.

(٢) Trimingham, Islam in East Africa, PP. 10-11 and A History of Kilwa (J.R.A.S.) 1895.

(٣) رحلة السيرافي: (تحقيق علي البصري) ص١٠١.

(٤) نزهة المشتاق (مخطوط) المجلد الأول ص٤٨ وما بعدها.

(٥) مروج الذهب: جـ٢ ص٦.

(٦) رحلة ابن بطوطة ص ٢٥٧ - ٢٥٨.



الفصل الثاني

التوسّع الإسلامي في شرقي افريقية



تمهيد:

أمر الإسلام المسلمين بالدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وحرم إكراه غير المسلمين على الدخول فيه، وحرم الاعتداء على أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم، وأن لا يحال بينهم وبين عقائدهم وشعائر دينهم مهما كان دينهم أو لونهم أو جنسهم، ولكنه أباح للمسلمين أن يردوا عدوان من يعتدي عليهم، وأمرهم بالعفو ومسالمة الأعداء ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً كما مر[1].

وقد اتبع مسلمو شرقي أفريقية تعاليم الإسلام فلم يكرهوا أحداً على تغيير دينه، ولم يبدأوا أحداً بعدوان؛ ولكنهم واجهوا دولة مسيحية عاتية هي الحبشة تشبعت بالأفكار[2] الصليبية ودخلت ميدانها فأنزلت بالمسلمين المجاورين لها حرباً ضروساً دارت رحاها ـ فيما دونه التاريخ ـ منذ

---

(١) أنظر: الباب الثالث، الفصل الأول.
«انتشار الإسلام بين الدعوة والقوة».

(٢) عابدين: ص١٦٧ وما بعدها، والمماليك والفرنج ص ٩ ـ ١٠، ٥٠ ـ ٥٣، بعض أضواء على علاقة مصر بالحبشة ص٢٨ وما بعدها.
وقد أفردت لذلك الفصل الأول من الباب الأخير.

النصف الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر، وان ظلت في صور أخرى حتى القرن العشرين. هذا في شمال شرقي أفريقية.

أما في المنطقة الجنوبية فقد جاور مهاجرو المسلمين وتجارهم الذين استقروا هناك قبائل همجية متبربرة تغير على الساحل من وقت لآخر، يأكل بعضهم الآدميين بأسنانهم كالوحوش، وكان على المسلمين أن يدفعوا عدوان أولئك وهؤلاء، ولم يترتب على جهاد المسلمين مع كفار الزنوج فتوحات إسلامية؛ لأنهم كانوا قبائل همجية تغير على المسلمين في فترات معينة ثم تختفي بسرعة في الأحراش والغابات، وإن كان المسلمون قد أسروا منهم أعداداً كبيرة فتحول هؤلاء الأسرى إلى الإسلام بعد أن اختلطوا بالمسلمين وعرفوا مبادىء الإسلام.

فقد ذكر ابن بطوطة سنة ٧٣١هـ: أن أهل كلوة في جهاد دائم لأنهم في بر متصل مع كفار الزنوج، وذكر أن سلطانها أبا المواهب كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله[١].

وذكر صاحب السلوى في أخبار كلوة أن سلطانها الحسين بن سليمان المطعون خرج إلى قتال كفرة الملل[*]، وجاهد في سبيل الله حتى استشهد[٢] وذلك في الاربعينات من القرن الثامن الهجري. لكن التجارة هنا هي التي فتحت تلك البلاد لتيار الإسلام الدافق وروض التجار المسلمون الافريقيين المتوحشين لمبادىء الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(١) الرحلة: ص٢٥٨.

(*) كفرة الملل: لعلهم قبيلة أو قبائل كانت لا تزال وثنية بالقرب من كلوة.

(٢) نشره (J.R.A.S.) 1895, P.417 Arother strong

ولكن اعتداء الدولة الحبشية المتكرر والمستمر على ممالك المسلمين بالحبشة جعل من رد المسلمين لعدوان الأحباش عليهم فتوحات إسلامية ترتب عليها تحطيم القوة السياسية لدولة الحبشة، فدخل الشعب الحبشي في الإسلام أفواجاً حتى لم يبق على مسيحيته منهم إلا قرابة عشرهم. وهو ما سأعرض له بالتفصيل في هذا الفصل لنرى آثاره في انتشار الإسلام هناك. على أنني سأبرهن على أن الناس قد ظلوا يتحولون إلى الإسلام حتى بعد أن تكالبت أمم الغرب المسيحية على ممالك المسلمين واستعمرتهم وأذلتهم وأمطرتهم بجيوش كثيفة من المبشرين.

الفتوحات الإسلامية في الحبشة:

عندما اعتلى (يكونو أملاك) عرش الحبشة بمساعدة سلطان مملكة وفات الإسلامية القوية، سنة ٦٦٩هـ، هاله ما وصل إليه المسلمون من قوة وثراء عريض، وما وصلت إليه ممالكهم من منعة واتساع، كما وجد أنهم يسيطرون على تجارة الحبشة الداخلية والخارجية وأن الاقتصاد الحبشي تحت رحمتهم، وكانت جميع المنافذ البحرية في أيديهم وتحت سيطرتهم. وفي نفس الوقت كان (يكونو أملاك) هذا قد تشبع بالروح الصليبية التي أذكاها في نفسه اتصالات الغرب الصليبي به وتحريضه على الانتقام من المسلمين وغزو الحجاز وهدم الكعبة[1].

لكل ذلك، اتخذ يكونو أملاك عدة خطوات حاسمة للحد من نشاط المسلمين التجاري، ولتوسيع مملكته على حساب ممالكهم، وبسط سلطانه عليهم واخضاعهم لنفوذه، والحيلولة دون انتشار الإسلام بين

---

(١) سعيد عاشور: بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، بحث بالمجلة التاريخية (العدد١٤) سنة ٦٦/ ١٩٦٧ ص ٢٥ ـ ٢٦، Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 65.

الوثنيين بإدخالهم في المسيحية ـ وكانوا إذ ذاك يشكلون معظم سكان الحبشة ـ فكلف المطران تكلا هيمانوت بذلك، وأقطع الكنيسة الحبشية ثلث أملاك الدولة، وعمل بمساعدة المطران على إيجاد نهضة ديرية واسعة النطاق، واتصل بالامبراطورية البيزنطية فأرسل هدايا الزراف إلى الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس (٦٥٩ ـ ٦٨١هـ)[١].

وبدأ في تنفيذ مخططه، فاضطهد المسلمين في مملكته، وحاربهم وحاول اخضاعهم واذلالهم[٢].

لكن مملكة وفات الإسلامية كانت آنذاك قوية، وقد وحدت تحت لوائها عدة ممالك اسلامية تحت زعامة أسرة ولشمع، وبلغت درجة عظيمة من القوة والاتساع والغنى، ودانت لها قبائل الأعفار بالطاعة والولاء، وكونت حلفاً إسلامياً ضخماً، امتد نفوذه على مساحة تفوق مساحة الامبراطورية الحبشية المسيحية نفسها، فتزعمت الممالك الإسلامية لدفع عدوان المسيحيين عليهم[٣].

ويعنينا من الصراع بين الأباطرة المسيحيين المتعصبين وبين ممالك المسلمين بالحبشة ـ في هذا الفصل ـ ذلك الذي ترتب عليه فتح المسلمين بلاد الحبشة أو اجزاء منها، واخضاعها لسلطانهم، وانتشار الإسلام بين سكانها ويمكن تسميتها بـ «الفتوحات الإسلامية في الحبشة».

فكرد فعل لما أنزله مسيحيو الحبشة بالمسلمين حشد الشيخ أبو عبدالله محمد(*) جيشاً جراراً من عناصر الجالا والصومال، وأعدهم للجهاد وغزا الحبشة سنة (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م)، فاضطر ملكها للتنازل للمسلمين

---

(١) Budge: A History of Ethiopia, Vol; 1, P.285 and Trimingham,PP. 65-6, 69-70.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (المجلد السابع) ص٢٨٤ (مادة حبش).

(٣) المقريزي: الإلمام: متفرقات.

(*) هو أحد زعماء المسلمين هناك.

عن بضع ولايات على الحدود بمقتضى معاهدة أبرمت بينهما، نظير اعتراف المسلمين بسيادة ملك الحبشة العليا(١).

وقد زادت قوة المسلمين تحت زعامة صبر الدين ملك أوفات فلم يستطع امبراطور الحبشة ودم أرعد (٦٩٩ ـ ٧١٤هـ) رد هجماتهم(٢).

لكن مملكة الحبشة قويت في حكم عمدا صيون الأول (٧١٤ ـ ٧٤٣هـ)، الذي تشبع بالروح الصليبية، فغزا بلاد المسلمين، واضطهدهم، بل هدد سلطان مصر بتحويل مجرى النيل وتجويع المسلمين في مصر حتى يهلكوا(٣).

ونهج الامبراطور الحبشي سيف أرعد (سنة ٧٤٣ ـ ٧٦٠هـ) سياسة عدائية متعصبة ضد المسلمين، ففرض عليهم إتاوة(*) مقررة، وحاول اعدام كل مَنْ لم يتنصّر من المسلمين، مما دفع هؤلاء إلى توحيد صفوفهم ورد عدوان الأحباش المسيحيين بزعامة علي بن صبر الدين محمد بن عمر ولشمع، ثم حق الدين، الذي ترك وفات إلى شوة حيث بنى عاصمة جديدة سماها «وحل». وتوغل حق الدين هذا في أملاك الحبشة المسيحية وغزاها، لكنه استشهد في إحدى معاركه مع الأحباش سنة ٧٧٦هـ/ ٧٤ ـ ١٣٧٥م(٤).

وقام بالأمر ـ بعد استشهاد حق الدين ـ أخوه سعد الدين أبو البركات

---

(١) (المقريزي: السلوك: جـ١ ق ٣ ص٩١٦.

(٢) Budge: A History of Ethiopia, Vol. 1; P.290.

(٣) Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 70-71.

(*) ذكر القلقشندي «وهم (مسلمو ممالك الطراز) على ما هم عليه من الذلة والمسكنة للحطي سلطان أمحره عليهم قطائع مقررة تحمل إليه في كل سنة» جـ٥ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٤) المقريزي: الإلمام: ص١١، والسلوك؛ جـ٢ ق٣ ص٨٦١.
وأرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص١٣٥.

محمد بن علي، فمضى على سياسة أخيه في جهاد الحبشة، لكن بتؤدة وسياسة حسنة، فكثرت عساكره، وتعددت غاراته واتسعت مملكته، وفتح بلاد (زلان) و (زمدوة) و (بالي)، متوغلاً في بلاد الحبشة حتى صار بينه وبين بلاده مسافة اثني عشر يوماً. وظل يفتح البلاد الحبشية للتأثير الإسلامي، حتى لا يحول بين الناس وبين الإسلام قوى غاشمة، ووطد أركان العدل في بقاع كثيرة حتى استشهد في جزيرة زيلع سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠١-١٤٠٢م. بعد فراره من معركة عنيفة هزم فيها المسلمون. وقد مكث في الحكم ثلاثين عاماً تقريباً، وأسلم في عهده من أمراء الحطي (حرب جوش) وقدم إليه فصار من أكابر الأمراء المسلمين لقوته وشجاعته وكثرة أتباعه[1].

«ولما قتل سعد الدين ضعف المسلمون بموته، واستولى الحطي وأمحره على البلاد وسكنوها وبنوا بها الكنائس، وخربوا المساجد، وأوقعوا بالمسلمين وقائع نزل بهم فيها من القتل والأسر والسبي والاسترقاق ما لا يمكن التعبير عنه مدة عشرين سنة»[2].

وكان أولاد سعد الدين العشرة قد فروا إلى بلاد اليمن حين حلت بهم الهزائم، فأكرمهم ملكها الناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل، وجهزهم لاستئناف الجهاد وحماية المسلمين من المسيحيين المعتدين، فرجعوا تحت قيادة أكبرهم صبر الدين علي، ونزلوا بموضع يسمى «سيارة»، وتلقبوا بأمراء عَدَل(*)، فلحق بهم عساكر أبيهم، واستولوا على ذلك الموضع بعد

---

(١) المقريزي: الإلمام: ص١١ - ١٣.
(٢) المقريزي: الإلمام: ص ١٣ - ١٤.
(*) هي التي يطلق عليها الآن الصومال الفرنسي، وكان سكانها يتألفون من قبائل الصومال وعفر العربية الأصل ومنذ تلقب أولاد سعد الدين بأمراء عدل تطلق على ممالك المسلمين بالحبشة فيقال «عدل الأمراء».

معركة، ثم ساروا إلى «سرجان» فقاتلوا مَنْ هناك فهزموهم وأحرقوا بيوتهم وكنائسهم وغنموا ما عندهم(١).

وبعد موقعة هزم فيها المسلمون، واستولى الأحباش على بلدهم مدة سنة - جرد صبر الدين حملة بقيادة أخيه إلى أهل البلد «رطوى» فانتصرت عليهم، وملك المسلمون تلك البلدة زمناً ثم سار صبر الدين بنفسه، وطلع إلى بيت الملك فأحرقه، وسار أخوه إلى قلعة «بروت» ففتحها صلحاً. وظل صبر الدين يلي أمر المسلمين حتى مات على فراشه مبطوناً سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م بعد حكم دام ثماني سنوات. وكانت سيرته حسنة مشكورة(٢).

وقام بالأمر بعد صبر الدين أخوه منصور بن سعد الدين، وعضده أخوه محمد، وسار إلى «جداية» وهي دار ملك الحطِّي، وبها صهره، فقاتله وأسره وقتله مع عدد كبير من أتباعه، فالتجأ نحو ثلاثين ألفاً إلى جبل يقال له «منحا» فحصرهم فيه وظل يقاتلهم يومياً ما يزيد على شهرين حتى كلوا وجاعوا وعطشوا، فنادى فيهم يخيرهم بين الدخول في الإسلام أو اللحاق بقومهم، فأسلم منهم نحو عشرة آلاف ولحق الباقون بقومهم(٣). ومكث عشرة أيام فجمع عليه الحطِّي الجموع، ودارت بينهما معركة عنيفة، قتل فيها عشرة من أمراء المسلمين، ووقع منصور وأخوه محمد أسيرين، فسجنهما الحطي سنة ٨٢٨هـ، وهو المدعو (أبرم بن داود بن سيف أرعد) بعد سنتين من ولاية المنصور، واستولت النصارى على البلاد(٤). وعندما أسرا قام بالأمر أخوهما جمال الدين في الحال، فأمن الجبهة الداخلية، إذ كان البرابر(*) قد خرجوا عن الطاعة، وامتنعوا عن دفع الزكاة، فأرسل

(١، ٢، ٣) الإلمام: ص ١٤.

(٤) الإلمام ص: ١٥.

(*) طوائف من الصوماليين الذين كانوا يقطنون بربرة وما حولها آنئذ.

اليهم الأمير (حرب جوش) فحاربهم وهزمهم فانصاعوا لأمره ودخلوا في طاعة جمال الدين[1].

ثم بعث حرب جوش إلى بالي، فلقي أمحرة في جمع عظيم فهزمهم، فجمع الحطي الجموع ونزل جداية فلقيه جمال الدين وهزمهم وركب أقفيتهم ثلاثة أيام وهو يأسر ويقتل حتى امتلأت الأرض بالقتلى وأحرق الكنائس والبيوت وسبى النساء والأولاد وغنم الأموال وأقام في هذه الغزوة ثلاثة أشهر[2].

وبعث حرب جوش إلى بالي، فقتل وسبى ما لا ينحصر، وغنم غنائم عظيمة حتى صار يعطي لكل فقير ثلاثة رؤوس من الرقيق، ومن كثرة الرقيق بيع الرأس بربطة ورق وبخاتم واحد، وعاد منصوراً غانماً[3].

وسار جمال الدين بنفسه لغزو أمحرة في جمع عظيم لم يجتمع لأحد من آبائه مثله من قبل ومعه ألف فارس. وأخذ يقتل فيهم ويأسر ويغنم، والحطي يهرب بجموعه من بلد إلى بلد وجمال الدين في أثره بجيشه خمسة أشهر. فلما وصل إليه هرب الحطي إلى رأس النيل، فعاد جمال الدين بغنائم لا تحصى[4]. ثم بعث جمال الدين أخاه أحمد وحرب جوش إلى أهل دواروا فانتصر عليهم في عدة معارك. ثم عادا بعدها ظافرين بغنائم لا تحصى. ثم سار جمال الدين يقتل ويأسر مسافة عشرين يوماً وبعد سبع سنين من حكمه ثار عليه بنو عمه وحسدوه وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ٨٣٥هـ «وكان خير ملوك زمانه ديناً ومعرفة وقوة وشجاعة ومهابة وجهاداً في أعداء الله تعالى بحيث انه ملك كثيراً من بلاد الحطي وأعماله، ودخل جماعات من عمال الحطي وولاة أعماله في طاعته. وقتل وأسر من أمحرة

---

(١) الالمام: ص ١٥ (بتصرف).

(٢،٣) الإلمام: ص ١٦ - ١٧ (بتصرف).

(٤) الإلمام: ص ١٧ (بتصرف).

الكفرة ما لا يدخل تحت حصر حتى امتلأت بلاد الهند واليمن وهـرمز والحجاز ومصر والشام والروم والعراق وفارس من رقيق الحبشـة الذين أسرهم وسباهم في غزواته، وما زال مؤيداً من الله تعالى منصوراً على أعداء الله حتى ختم الله له بالحسنى... وكان يصحب الفقهاء وأهل الفقر من الصالحين وينشر العدل في أعماله حتى في أهله وولده... وجملة القول فيه ان الله تعالى أيد به الدين وأعز بدولته الإسلام والمسلمين... ومع هذه الفتوحات العظيمة لقد أسلم على يديه عالم من أمحـرة لا يحصى عددهم هداهم الله به وأنقذهم من النار بيمن دولته»[١].

ولما استشهد جمال الدين قام بأمر المسلمين بعده أخوه شهاب الدين أحمد بدلاي، فقتل قاتله وجرى على سنته في غزو أمحرة وفتح من بلادهم عدة أعمال وقتل جماعة من أمرائهم وأحرق بلادهم وغنم وقتل منهم عالماً كبيراً حتى كثرت الأموال في أيدي جماعته من الذهب والفضة والثياب والدروع، وحازوا من الوظائف ما لا يعد، وضرب ست كنائس وعـدة قرى. «فاسترد البالى»(*) من أيـدي النصارى ورد إليهـا ألف بيت من المسلمين إلا أنه حدث في أيامه سنة ٨٣٩هـ وباء عظيم مات فيه من المسلمين والنصارى عوالم كثيرة جداً وهلك الحطي وأقاموا بعـده صبياً صغيراً. هذا والسلطان بدلاي مقيم في بلاد دكر وأخوه خير الدين في بلاد ركلة. وأظهر بدلاي سيرة العدل في مملكته، فأمنت الـطرقات وانكف الناس عن الظلم من العسكر وغيرهم ورخصت الأسعار في أيامه[٢].

---

(١) الإلمام: ص١٧ ـ ١٩.

(*) ذكر المقريزي والقلقشندي أن اسمها (بالى) نقلاً عن عبد الله الزيلعي وهنا أدخل المقريزي عليها (ال).

(٢) الإلمام: ص ١٩ ـ ٢٠.

الفتح الأعظم وسيطرة المسلمين على الحبشة كلها:

لكن الأحباش سرعان ما تغلبوا على تلك الهزيمة، إذ كان بعض النصارى المصريين قد هاجروا إليها ونظموا المملكة الحبشية عسكرياً واقتصادياً[1]، واستطاع الأحباش - في عهد زرء يعقوب (٨٣٧ - ٨٧٢هـ) - أن يكونوا امبراطورية مترامية الأطراف، امتدت شمالاً حتى مصوع وسهول السودان وسيطرت على قبائل التجري والبجة البدوية في منطقة الساحل ووادي بركة، وضمت إليها أوفات وفطجار ودوارو وبالى وإمارة هدية في الجنوب الغربي وبعض ممالك سيدامة، وحكم الأمبراطور هذه الولايات بعمال يسمى كل منهم بالجراد، ينحدر من البيت المالك القديم، وبات الحكم فيها بالتوارث. واحتفظ المسلمون بدينهم، وكانوا لا يزالون منتشرين في شوة وفي تجراي الشرقية، كما تدل على ذلك رواية الفاريز[2].

وتسلط الأحباش المسيحيون على حياة المسلمين، وفرضوا عليهم الإتاوات واضطهدوهم. وامعاناً في الإذلال فرضوا على المسلمين في إمارة هدية أن يقدموا - فوق الإتاوة - فتاة عذراء ينصهرها الحطي لنفسه سنوياً. قالوا: «وحكم علينا أن نعطيه البنت، ونعطيه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا، وإذا أرسل إلينا الذي يتقبل البنت والمال أخرجنا له البنت على السرير، ونكفنها بثوب ونصلي عليها ونحسب أنها ميتة[3]».

لكن إذا كان حكام عدل قد فترت همة الجهاد لديهم وركنوا إلى حياة الذلة والضعف فإن المسلمين - لما حل بهم - قد ازدادوا حماساً للجهاد، فانتقلت السلطة الحقيقية من أيدي سلاطين عدل التقليديين إلى أيدي طائفة من الأمراء العلماء الذين تلقبوا بالإمام، وأشربوا حب الجهاد

---

(١) الإلمام: ص ٤.

(٢) نقلاً عن حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص ٤١٩.

(٣) عرب فقيه: فتوح الحبشة: ص٢٧٥ - ٢٧٦.

لإعلاء كلمة الله والزود عن حمى الإسلام. وانتشر الإسلام إذ ذاك انتشاراً واسعاً، وسيطر الفقهاء والدعاة على حياة الناس، ودخلت باقي قبائل الدناقل والصومال - التي تتوق للقتال - في الإسلام في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي مما غير سير التاريخ، فالتف المسلمون حول دينهم واندفعوا إلى قلب الحبشة المسيحية كالسيل الجارف[1].

ولقد كان هؤلاء الأئمة الذين قادوا الجهاد الإسلامي وأنقذوا الإسلام والمسلمين في الحبشة - طائفة من العلماء علا صيتهم وأصبحت لهم مكانة بين مواطنيهم فانتشروا في المدن العدلية واستولوا على السلطة فيها، وكونوا امارات محلية داخل السلطنة الممتدة بين هرر وساحل البحر الأحمر. وقد صور عرب فقيه تلك الحالة بقوله: «وعادة بر سعد الدين[*]. أن كل أمير يكون له التقديم والتأخير والغزو والجهاد وأكثر العساكر إلى وجهه... ولم يكن للسلطان غير خرج البلد يأكله»[2].

وهكذا صار لهؤلاء الأئمة السلطان الحقيقي بعد أن صار لهم السلطان الروحي على حياة المسلمين. وكان أولهم ظهورا الداعي عثمان حاكم زيلع، الذي أعلن الجهاد بعد وفاة محمد بن بدلاي مباشرة سنة ٨٧٦هـ، ثم الأمير محفوظ الذي ظهر في هرر وقاد الجهاد الإسلامي في عهد ملك الحبشة قاعود، وهاجم الأحباش المسيحيين، وتحدى محمد بن أزهر الدين السلطان الرسمي، وعلت كلمته حتى أصبح الأمير الفعلي في البلاد. إلا أن البرتغاليين كانوا قد نجحوا في تطويق العالم الإسلامي من

---

(١) حسن محمود: المرجع السابق: ص ٤١٩ - ٤٢١.

(*) أطلق على بلاد الزيلع الإسلامية بعد استشهاد ملكها المسلم سعد الدين اسم «بر سعد الدين» تخليداً لذكراه قال عرب فقيه «وانثنى الإمام (أحمد بن ابراهيم) وصحبه راجعين إلى بلادهم هرر من بر سعد الدين» ص٨.

(٢) عرب فقيه: فتوح الحبشة: ص ١٢.

الخلف، وظهروا في البحر الأحمر، وضرب أسطول لوب سواريز (Lope Suarez) زيلع بالقنابل وأحرقها سنة ٩٢٣هـ، ثم بربرة سنة ٩٢٤هـ، فلم تنجح محاولة محفوظ في فتح الحبشة، لكنها ألهبت مشاعر الجهاد في نفوس المسلمين، وانتهى الأمر باغتيال السلطان محمد سنة ٩٢٤هـ ثم ظهر الجراد أبون بن آدش[١]، فملك «سبع سنين وأقام الحق، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر وقتل قطاع الطريق وأبطل الخمور واللعب والرقص بالطبول، وعمرت البلاد، وأحب الاشراف والفقهاء والفقراء والمشائخ، واستولى على ملكه وأصلح الرعية»[٢].

لكن سلطان عدل الرسمي أبا بكر هاجم أبون في زيلع وقتله سنة ٩٣١هـ وكان في جند الجراد أبون الإمام أحمد بن ابراهيم، الذي حظي بحب الإمام أبون ورعايته، فهاله ما عم البلاد من فتن وفساد في عهد أبي بكر هذا، وما وصل إليه حال المسلمين من ضعف وهوان في ظل حكمه، وكأن العناية الإلهية قد رشحته للقيام بدور بطولي خالد لنشر الإسلام في بلاد الحبشة واخضاعها لسلطان المسلمين وقد ساعده سيطرة العلماء والفقهاء على حياة المسلمين الروحية إذ أتت جهودهم المخلصة لنشر الإسلام بأطيب الثمرات، فدخلت باقي قبائل الصومال والدناقل والبجة في الإسلام، ودخلت حركة الجهاد الإسلامي. كما عمل هؤلاء العلماء على انهاض الحركة العلمية الدينية ونشر الثقافة الإسلامية في البلاد، ووقفوا خلف حركة الإمام أحمد يلهبون حماس المسلمين ويحثونهم على الجهاد والذود عن حمى المسلمين. وبذلك بدأت سلسلة المعارك الإسلامية ضد الحبشة المسيحية يقودها الإمام أحمد بن ابراهيم الملقب بالقرين أو الأشول (٩١٢ ـ ٩٥٠هـ)[١].

---

(١) عرب فقيه: المرجع السابق: ص٦.

(٢) فتوح الحبشة: ص ٧ , ٩ وما بعدها.

وقد بدأ بأن تزوج من ابنة الإمام محفوظ فكسب أنصاره. ولما قتل السلطان أبو بكر الجراد أبون، رحل الإمام أحمد إلى هوبت (مسقط رأسه)، وجمع الأنصار والمجاهدين ونظم قواته، ولما تم له ذلك اقتسم السلطة في البلاد مع السلطان أبي بكر ثم قتله، وولى أخاه عمر دين سلطاناً اسمياً على عدل[1]. ولما أحس القوة والمنعة بكثرة الأنصار والمجاهدين وتدعيم سلطانه على قبائل الصومال وضمها لجنده وتأمين الجبهة الداخلية - بدأ فامتنع عن دفع الأتاوة المقررة التي كان يدفعها سلاطين عدل للحطي، فانحدر الأحباش لقتال المسلمين ونهب بلادهم سنة ٩٣٣هـ، فهزمهم الإمام أحمد واسترد ما غنموه من المسلمين ورسم خطة لغزو الحبشة كلها ونشر الإسلام في ربوعها والتخلص من سلطانها وبطشها وأرسل إلى جميع الجهات الإسلامية بالحبشة - وبخاصة زعماء قبائل الصومال والدناقل وغيرهم - أرسل اليهم كتباً يحثهم على الجهاد في سبيل الله ودفع تعدي المسيحيين المتعصبين عن حمى المسلمين، وكتب لهم فيها[2] قوله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله[3]﴾. فأجابته جميع القبائل الإسلامية، وتدفق عليه المسلمون من كل صوب مجهزين للقتال بالعدة والعتاد، فجهز الإمام الجيوش ورتبها للجهاد وسار بها لغزو الحبشة[4].

ولما وصل الإمام أحمد بالمسلمين إلى أهل (أماجه) نصحوه وقالوا له: «إن ملك الحبشة معه قوة عظيمة وخيله لا تحسب وعدته من الدروع والخوذ والرجال والدرق لا يحصيهم إلا الله تعالى، وأباؤك وأجدادك والأمير

---

(١) المرجع السابق: ص: ١٥ - ١٦.
(٢) فتوح الحبشة: ص ٣٠.
(٣) سورة التوبة: الآية ٤١.
(٤) المرجع السابق ص: ٣٠ - ٣١.

علي والأمير محفوظ صهرك والجراد ابراهيم والسلاطين المتقدمة ممن ملك بر سعد الدين، لم يكن أحد منهم يقصد ملك الحبشة إلى بلده وسكنه ولكن يغزون إلى أطراف البلاد، ويغنمون ويرجعون. وإذا تبعهم أحد من الكفرة قاتلوا عما في أيديهم. وأنت تريد قصد ملك الحبشة إلى بلده! والآن لا تهلك المسلمين».

«فقال لهم الإمام: «الجهاد في سبيل الله ما هو بتعب على المسلمين»، فقالوا: «نحن ما مرادنا إلا الجهاد، ومن قتل منا صار إلى الجنة، ومن عاش منا عاش سعيداً. ونحن نعلم أن كلب النصرانية (وناج سجد) في قوة وكثرة، ولكن نحن ما نقاتلهم بكثرة ولا بقوة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فحينئذ بكوا(*) أهل أماجه وجعلوا المصاحف فوق رؤوسهم، وأضافوهم وأكرموهم ودعوا لهم بالنصر والظفر على أعداء الله تعالى[1]».

فسار الإمام أحمد بجيشه من الصوماليين والحرلة والملساي والعرب(**) وغيرهم[2] كما كان الجالا يكونون جزءاً من قواته[3].

وكان مفتي المسلمين أبو بكر بن نصر الدين بن محمد المكنى بارشوته خطيب المسلمين وإمامهم، يحضهم على الجهاد، ويذكرهم بآياته ويعدهم بالجنة، ويزكي فيهم روح الحماس لنشر دين الله والقضاء على أعدائه[4].

والتقى الإمام أحمد وجيشه بالأحباش فهزمهم وأحرز نصراً حاسماً

(*) هكذا في الأصل.

(١) فتوح الحبشة: ص ٤٢.

(**) المهاجرون الذين لم يكونوا قد انصهروا بعد في المجتمع الحبشي المسلم.

(٢) المرجع السابق: ص ٦٤.

(٣) فتحي غيث: الإسلام والحبشة: ص ١٥٢.

(٤) فتوح الحبشة: ص: ٣٧.

عليهم في موقعة (صمبر كوري) في رجب سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٥م[1].

وأضحت قصة الفتح الإسلامي للحبشة منذئذ سلسلة من الانتصارات الحاسمة المتوالية على الأحباش، ففي سنة ٩٣٧هـ دخل دوارو وشوة وأمحرة ولاستا، وفي سنة ٩٣٩هـ استعاد الإمارات القديمة: بالى وهدية وسدامة، وأصبح هذا الفتح الإسلامي سيلاً متدفقاً لا يمكن صده، وفي سنة ٩٤٢هـ سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها. وغزا الإمام أحمد (تجراي) للمرة الأولى، واندفعت قواته في كل صوب، وبعد أن اجتاحت قواته جميع أرجاء الحبشة رجع إلى عاصمته هرر سنة ٩٤٣هـ وأصبحت جميع أرجاء الحبشة تحت سلطانه، من ممالك اسلامية ومسيحية. وأخذت المسيحية في الانهيار تحت ضغط انتصارات المسلمين المتوالية. وانتهت آخر مظاهر المقاومة في أقصى الشمال بين سنة ٩٤٤هـ وسنة ٩٤٧هـ.

ومات الامبراطور (لبنادنقل) طريداً بعد أن ألح عليه الاجهاد والمرض. وأصبح الإمام أحمد صاحب السلطة الدينية والسياسية في الحبشة بأسرها، فأخذ ينظم البلاد ويرسي دعائم الحكم في امبراطوريته المترامية الأطراف، فقسم البلاد إلى ولايات، وأوفد لكل منها والياً لحكمها وتصريف شؤونها وجباية الضرائب والزكاة منها كما أرسل القضاة والدعاة إلى جميع النواحي لنشر الإسلام والحكم به بين الأحباش[2].

ولقد كان الإسلام ينتشر في ركاب الفتوح، «ودخل من الكفرة ناس كثير في دين الإسلام»[3]. كما كان النصارى يأتونه ليعلنوا اسلامهم، بل استغل زعماء المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم في تحويل

---

(١) فتوح الحبشة: ص: ٦٤.
(٢) عرب فقيه: فتوح الحبشة: متفرقات.
(٣) عرب فقيه: المرجع السابق: ص ٧٧.

جيوشهم إلى الإسلام. وعاد إلى الإسلام جميع المسلمين الذين أرغمهم أباطرة الحبشة المتغصبين على التنصر[1]، مثل الذي فعله أحد القواد ومعه عشرون ألف مقاتل، إذ كتب إلى الإمام أحمد يقول: «أنا من أول مسلم وابن مسلم، وأسروني المشركون، ونصروني، إن قلبي مطمئن بالإيمان، والآن أنا جار الله وجار رسوله وجارك، وان تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملته، فأنا تائب إلى الله، وهذه جيوش الملك الذين هم معي، أنا احتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا[2]».

هذا فضلاً عن الأسرى الذين صاروا بالأسر أرقاء، وكانوا من الكثرة بحيث لا يحصيهم عد، وقد اعتنق جلهم الإسلام[3].

وعرب فقيه ـ الذي قصر مؤلفه على التأريخ لتلك الفتوحات الإسلامية ـ ذكر: أن غالبية سكان الهضبة اعتنقوا الإسلام اقتناعاً أو رغبة، وبعض الناس كان يدخل في الإسلام خوفاً «أما أهل جان زلق فانهم ما أسلموا، وكانوا مختفين في الدسوت والجبال، والآن أسلموا قبل ما يجري القتال. . . وقد أسلم أكثر الحبشة، والمسلمون متفرقون فيها»[4].

ويقول المؤرخ كونزلمان: انه «لم يبق على مسيحيته أكثر من العشر، وهؤلاء هم الذين فضلوا دفع الجزية، وقد حاول بعضهم مقاومة الإمام وتحصنوا في بعض الأماكن، نهجم عليهم الإمام، فاستسلمت الغالبية وقبلت دفع الجزية. أما من رفضوا فقد قضى عليهم الإمام[5]».

لكن الأحباش استنجدوا بالبرتغاليين، وتحالفوا معهم، واستطاع

---

(١) عرب فقيه: المرجع السابق: ص ٨٢.
(٢) عرب فقيه: المرجع السابق: ص ١٨١ ـ ١٨٢، وأسروني، ونصروني: هكذا في الأصل.
(٣) عرب فقيه: أماكن متفرقة: صفحات: ١٩ و ١١٣ و ١١٧.
(٤) المرجع السابق: ص ١٨٩.
(٥) نقلا عن فتحي غيث: ص ١٥٤.

الحليفان معاً القضاء على حركة الإمام أحمد وقتله سنة ٩٥٠هـ. لكنهما لم يستطيعا القضاء على الإسلام أو الحيلولة بينه وبين قلوب الناس وعقولهم، إذ سرعان ما قلب الإسلام الهزيمة إلى نصر، وحقق ما لم تحققه المعارك. فبالرغم من ارتداد كثيرين عقب وفاة الإمام وهزيمة جيوشه ممن كانوا قد أسلموا أثناء فتوحاته للحبشة، إلا أن حركته تمخضت عن عدة أمور كان لها أبلغ الأثر في انتشار الإسلام بالحبشة على نطاق واسع وتوطيد دعائمه وتثبيت أقدامه، وهي:

انه ترتب على دخول البرتغاليين الحبشة أن تدخلوا في شؤون الأحباش الدينية والسياسية وعملوا جادين على تحويل الأحباش عن مذهبهم اليعقوبي إلى المذهب الكاثوليكي، وبدأ النفوذ الأوروبي يتسرب إلى البلاد على نطاق واسع، فثار الأحباش عليهم وأخرجوهم من بلادهم سنة ١٠٤١هـ وبغضوا الأوروبيين جميعاً وسخطوا عليهم، حتى أعلن بعض زعماء الأحباش صراحة أنهم يفضلون الخضوع للمسلمين عن وقوعهم في قبضة البرتغاليين(١).

ولذا حالف الأحباش القوى الإسلامية ضد البرتغاليين فاتصل الأمبراطور فاسيلداس بملك اليمن الإمام المؤيد بالله سنة ١٠٥٢هـ، ثم بخليفته المتوكل على الله سنة ١٠٥٧هـ، ليتعاونا معاً في القضاء على الخطر البرتغالي. وعقد معاهدة مع الولاة العثمانيين في مصوع وسواكن لإعدام جميع القسس الأجانب الذين يحاولون دخول الحبشة وذلك سنة ١٠٥٨هـ وبات عدو الأمس حبيباً وحبيب الأمس عدواً(٢).

ورجعت الحبشة إلى سياسة ما قبل القرن الثالث عشر الميلادي،

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ١٣٨. Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 98 - 99.

(٢) Ibid, P. 102.

وهي العزلة عن العالم الخارجي ومسالمة المسلمين مما مكن للإسلام هناك وأتاح له فرصة الانتشار والتغلغل مستظلاً بتلك السياسة، حتى ذكر الرحالة مانويل دالميدا (Manuel de Almida) الذي عاش في بلاد الحبشة بين سنتي ١٠٣٣هـ، ١٠٤٢هـ: ان المسلمين كانوا منتشرين في طول البلاد وعرضها وأنهم كانوا يؤلفون إذ ذاك ثلث(*) السكان(١).

والحبشة وإن أخرجت الجزويت ورجال الدين الأجانب منها إلا أنهم كانوا قد أثاروا في الشعب بعامة ورجال الدين بخاصة الجدل والنقاش حول المسائل الدينية، وفتحوا لهم باب المقارنة بين المذاهب والأديان مما ظل يشغل أذهان الشعب ورجال الدين معاً فترة طويلة من الوقت. وأثاروا من المسائل والمشكلات الدينية ما لم يجدوا له حلاً سوى تفسيرات متضاربة وتعقيدات كثيرة، فلم يتمالك الناس أنفسهم من إظهار اعجابهم بالإسلام الذي يتميز ببساطته ووضوحه وخلوه من التعقيدات والتضارب، وما عليه أهله من سمو روحي وكمال خلقي وما يتمتعون به من ثروة طائلة وتفوق ثقافي وحضاري فدخلوا في الإسلام أفواجاً(٢).

وفي الوقت الذي بلغ فيه الجنس الأمحري قمة صلفه وغروره وكأن المسيحية مقصورة عليه وحده أو هي دينه الخاص وناصب المسلمين وغيرهم العداء وأنزل بهم الأذى والنكال واضطهدهم، بسط الإسلام ذراعيه ليحتضن من ينضوي تحت لوائه، ليمتعه بأخوة اسلامية صادقة دونما تفرقة بين سود وبيض أو أغنياء ومعوزين بل كفل الحياة الكريمة والأمن للجميع(٣) «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد، إذا

(*) معظم السكان كانوا وثنيين.

(١) نقلا عن: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ١٣٩.
Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 101

(٢) ارنولد: المرجع السابق ص: ١٣٩. Ibid, P.P. 101 - 102

(٣) Loc. Cit.

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر[١]». فالمسلمون هناك لا يعرفون التعصب في أية صورة من صوره ولا يضمرون للمسيحية أي نوع من العداء، لذلك دخل الوثنيون والمسيحيون في الإسلام أفواجاً، إعجاباً به وكرهاً في الأمحرية وحضارتها، فقد كانت موسومة بالكبرياء الديني والعنصري ومما يدل على عمق انتشار الإسلام على مدى واسع أن الأحباش حين استشعروا الخطر الإسلامي بدأوا يخصصون قرى للمسلمين وأحياء خاصة بهم في المدن الكبرى[٢].

وكان من آثار حملات القرين[*] الإسلامية على الحبشة أن انهكت قواها وبات جسمها الهزيل ممزق الأوصال فأصبحت ممالك مستقلة متحاربة، مما زادها ضعفاً فوق ضعف فلم تقو على صد تدفق قبائل الجالا التي نزحت إلى الحبشة في هجرات متتابعة تأخذ شكل الإغارة الخاطفة واحتلال المواقع وذلك حين عزت وسائل العيش عليها في مواطنها الأولى مستغلة الفراغ الذي أحدثه ترك الصوماليين والدناقل لمواطنهم خلال مشاركتهم في حركة غزو الحبشة، وقد كانت قبائل الجالا تلك تكون حلفاً قبلياً مفكك الأوصال في عهد القرين، أسلم بعضهم حوالى سنة ١٥٠٠م[٣]. وكانوا منتشرين في وادي الويبي وجوبا وحتى الجبال الواقعة إلى الشرق من بحيرة أبايا، فاستغلوا فرصة الفراغ الذي أحدثه خروج السوماليين في جيش القرين وبدأوا يهاجرون إلى الحبشة وسلكوا في هجرتهم طريقين: من الجنوب الغربي عبر الممر الواقع بين جبل ويلبو وبحيرة أبايا وعبر وادي ويبي وجوبا[٤].

---

(١) متفق عليه.

(٢) حسن محمود: المرجع السابق: ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ و Op. Cit., PP. 101 - 102.

(*) هو الإمام أحمد بن ابراهيم (٩١٢ ـ ٩٥٠ هـ).

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣٨٥.

(٤) Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 106

بدأت الهجرات الأولى قبائل الداوى، إذ انقضت على منطقة ياميرا آمورا وهزمت جيش الحبشة ثم غزت بعد ذلك منطقة بالى الغنية بمياهها الغزيرة ومراعيها الخصبة ثم دخلت هرر وتعلمت استخدام الخيول من الصوماليين. وبدأت تحتل السهول الخصيبة في شرقي افريقية منذ بداية القرن السابع عشر وتسرب بعضهم إلى أمحرة واقتحمت جموع منهم الحبشة عبر نهر ويبي وتدفقوا إلى امارات السيداما في منطقة شوة ولم يستطع الاحباش صدهم وامتد انتشارهم إلى منطقة النيل الأزرق وشمل أغلب أقليم شوة. وفي الوقت الذي تسلق فريق منهم منطقة الجرف الكبير في الغرب امتد فريق آخر إلى نهر أواش وشرقي الحبشة وفيما بينهم توغل آخرون في صميم الهضبة الحبشية وكونوا مجموعات قوية من قبائلهم مثل الوللو Wallo والياجو Yaggo والرايا Raya، ولم يستطع الأحباش دفع خطرهم فقد احتلوا ثلث البلاد وعزلوا الممالك الحبشية عن بعضها وسيطروا على الحرس الأمبراطوري، وازدادت خطورتهم باعتناقهم الإسلام(١).

وقد استقرت قبائل الجالا، واشتغلت بالزراعة والرعي، وكونت مجموعات قوية تتميز بصفاتها الحربية الممتازة، مما جعل الأمبراطور يعتمد عليهم، وحذا حذوه باقي الأمراء والملوك. ودخل الجالا الجيش الحبشي كمرتزقة، وسيطروا على البلاط، وارتفع شأنهم، وازداد نفوذهم لدرجة أن أم الملك (ياسو) زوجته من ابنة أحد زعماء الجالا الأقوياء لتعزز مركزه. وفي عهد ابنه وخليفته (١١٦٨ - ١١٨٣هـ/١٧٥٥ - ١٧٦٩م). ولي أقرباءه من الجالا الوظائف الرئيسية في البلاد(٢).

وقد دخلوا الإسلام عن طريقين، **الأول**: أن الأحباش الأمحريين

(١) Trimingham: OP. Cit, P. 106.

(٢، ٣) Trimingham: Op. Cit, PP. 106 - 107.

المسيحيين ظلوا بمعزل عنهم، وجعلوا عناصر الجالا والدناقل والمسلمين بعامة والفلاشة(*) مبعدة عن الحياة العامة مضطهدة من الجنس الأمحري الحاكم. فأتيحت الفرصة للجالا أن يحتكوا بالمسلمين في الأسواق، فوجدوا في دينهم ما يحفظ لهم كرامتهم فدخلوا فيه أفواجاً.

والطريق الثاني: أن الحبشة لما سالمت المسلمين - بعد أن طردت البرتغاليين والأوروبيين منها سنة ١٠٤١هـ/١٦٣٢م - وتركت لتجارهم حرية العمل فيها نشط التجار المسلمون، ودعاة في زي التجار، ونشروا الإسلام بين تلك القبائل وقد رحب الجالا بهم وتصاهروا معهم. وكان لتلك الصلات الاقتصادية والاجتماعية أكبر الأثر في اعتناق أغلب قبائل الجالا الإسلام(١). واعتنقه أمراؤهم في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، واقتدى بهم بقية شعب الجالا. وأهم ممالك سيدامة تلك: جيما (Gimma) وجوما (Gomma) وليما ايناريا (Limma Enarya) وجيوما (Guma). فما جاء منتصف القرن التاسع عشر حتى كان ملوك هذه الممالك والغالبية العظمى من شعوبهم قد اعتنقوا الإسلام(٢).

وفي نفس الوقت تقريباً استعادت مدينة هرر نشاطها كمركز للاشعاع الإسلامي في أنحاء المقاطعة وبصفة خاصة بين قبائل الجالا التي كانت تعيش إلى الجنوب والغرب من هرر، فانطلق منها الدعاة والفقهاء يدعونهم إلى الإسلام، ونشطت فيها الحركة العلمية والثقافية، أما منطقة العروسى فانتشر الإسلام فيها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي(٣).

واعتنق أمراء الجالا الإسلام فوق الهضبة الحبشية نفسها، وكانوا قد

(*) كانوا يطلقون على اليهود: القلاشة.

(١) Trimingham: OP. Cot, P. 106 - 107.

(٢، ٣) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ: ص ١٨٠ - ١٨٣.

وصلوا إلى أرفع المناصب، بل حجب بعضهم سلطة الأمبراطور الحبشي الاسمية، في جندار وأصبحت الإمارة وراثية بينهم في بعض المقاطعات، مثل مقاطعة بجمدير، واستغلوا مناصبهم لنشر الإسلام. ومن هؤلاء الأمراء (راس علي) أحد نواب ملك الحبشة، وكانت له السيادة الفعلية على البلاد قبل أن يجلس الملك تيودور على عرشه (١٢٥١هـ/١٨٥٣م) فاستغل نفوذه وقسم مناصب الدولة وما غنمه من الكنائس بين المسلمين، واعتنق الإسلام في مدة حكمه نصف أهالي الولايات الوسطى من بلاد الحبشة[١]. وبالرغم من تظاهر هؤلاء الأمراء[*] بالمسيحية حتى يتسلموا زمام السلطة إلا أنهم كانوا في الحقيقة مسلمين واستغلوا نفوذهم في نشر الإسلام وحماية المسلمين. ومما يؤيد ذلك انتشار لقب الإمام والأسماء الإسلامية كعلي بين هؤلاء[٢].

وساعد فتح المصريين للسودان على انتشار الإسلام في غربي الحبشة والأرترية. فأسلمت قبائل بأسرها كانت تدين بالمسيحية، مثل قبائل تاكليه (Takles) أي نبات يسوع، وهبتيه (Haptes)، أي عطية يسوع، وتيمارياِم (Temaryam) أي عطية مريم، وكذلك قبيلة منساع (Mansa) التي كانت مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري) ثم دان السواد الأعظم منها بالإسلام في مستهل القرن العشرين[٣].

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص١٤١.

(*) والدليل على تظاهرهم بالمسيحية أن أسماءهم كانت إسلامية كعلي وأن قوانين البلاد كانت توجب على من يتولى مناصب حكومية أن يكون مسيحياً. الدعوة إلى الإسلام: ص ١٣٩، ١٤١ - ١٤٢.

(٢) بين الحبشة والعرب ص٢٠٥ والدعوة إلى الإسلام ص١٣٩، ١٤١ - ١٤٢.

(٣) شوقي عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر: أماكن متفرقة، وأرنولد: المرجع السابق: ص ١٤٢ - ١٤٣.

وقد أيد مستر بلودن[1] (قنصل بريطانيا في الحبشة من ١٢٦٠ - ١٢٧٦هـ/١٨٤٤ - ١٨٦٠م) تلك الحقائق السابقة، وذكر أن المسيحيين كانوا في تحول مستمر إلى الإسلام.

وقد مد الإسلام جذوراً بعيدة الغور في أرض الحبشة، وأصبح المسلمون في بداية هذا القرن يتمتعون بالثراء المادي والتفوق الأدبي، وهم أغلب السكان. فاعتنقه الأمبراطور الحبشي حفيد منليك (ليج ياسو) الذي حكم الحبشة من ١٣٣١ - ١٣٣٥ هـ/١٩١٣ - ١٩١٦م، وقرر في ١٩١٦م تبعية بلاده لتركيا في الشؤون الدينية، لكن الدول الأوروبية تدخلت وأرغمته على النزول عن العرش وعمل خلفاؤه على الحد من النفوذ الإسلامي واضطهاد المسلمين بخاصة الأمبراطور الحبشي هيلاسلاسي[2].

التوسع الإسلامي في شرقي أفريقية:

لقد انتشر الإسلام في منطقة البحيرات العظمى على أيدي التجار المسلمين الذين لم ينقطع ترددهم على المراكز التجارية الداخلية باستعمار البرتغاليين للشواطىء الشرقية لأفريقية، ولكن زاد من أعدادهم وتأثيرهم نقل السيد سعيد بن سلطان عرش سلطنته إلى زنجبار (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) فقد دأب على تشجيعهم على ارتياد الداخل وجلب البضائع منه، فكبرت القوافل التجارية العربية، وسلكت الطرق التجارية القديمة الممتدة من كلوة إلى بحيرة نياسا، ومن دار السلام إلى بحيرة تنجانيقا مارة بنيانمبي، ومن منبسي مارة بموشي ونيروبي الحالية إلى بحيرة فيكتوريا وبنجوالا بغربي أفريقية. وتأسست مستوطنات عربية إسلامية في

(١) Plowden, W. C.: Trevals in Abyssinia (London 1868) P. 15.

(٢) Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 130

المراكز التجارية الهامة. مثل نيانمبي التي أصبحت تسمى طابورة (Tabora)، وأوجيجي (Ujiji) وكارجوي (Karagwe). وفي هذه المستوطنات وغيرها كان المسلمون يلتقون بالأفريقيين ويجذبونهم إلى الإسلام[1].

وقد اتصل التجار المسلمون بالحكام الأفريقيين في تلك الجهات، وبات لهم عندهم مكانة ونفوذ، كرومانيكا (Romanika) حاكم كارجوي وميرامبو (Mirambo) حاكم انيامويزي (Unyam Wezi)، وكواوا (Kawawa) حاكم أوهيهي (Uhehe)[2].

وعظم نفوذ المسلمين هناك لدرجة أنهم هم الذين ساعدوا مانوا سيرا (Manwa Sera) على تولّي حكم طابورة بعد أبيه سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٩م. ولما أراد فرض ضريبة عليهم هددوه بالخلع، فاستعان عليهم بقبائل أخرى فطردوه وقتلوه سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م. وكان هؤلاء التجار العرب يحملون نفوذ سلطان زنجبار إلى سائر جهات شرقي أفريقية باعتبارهم خاضعين له، مما ساعد على شهرة سلطان زنجبار ونشر الإسلام هناك[3].

ولا يُعرَف يقيناً متى نشأت أول دولة اسلامية في الجهات الداخلية نظراً لأن الذين أرّخوا للإسلام فيها هم المبشرون الذين قللوا من شأن الإسلام والمسلمين. ولكن سونا (Suna) كاباكا بوغندة اعتنق الإسلام حول (النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري)، على يد التاجر العربي الشيخ أحمد بن ابراهيم الذي لقنه مبادىء الإسلام وأهداه مصحفاً استعان

---

(١) عبد العزيز كامل: جغرافية الإسلام في أفريقية: ص ٤٥ ـ ٤٧.
(٢) حراز: أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي: ص ١٠٥.
(٣) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية في شرقي أفريقية: ص ٥.

به في حفظ آيات من القرآن، ثم اعتنق الإسلام ابنه موتيزا (Mutesa) في الربع الأخير من ذلك القرن[١].

ولقد عملت الإرساليات التبشيرية، تظاهرها الدول الأوروبية المسيحية بالمال والسلاح، على الوقوف في وجه الإسلام هناك ومحاربة المسلمين[٢]، لكنه بالرغم من كل ذلك انتشر الإسلام بين كثيرين من سكان تلك المناطق من المحيط الهندي شرقاً إلى البحيرات العظمى غرباً حتى ذكر هتشنز[٣] (Hichens) أنه لا تخلو قرية في تلك المناطق من مسجد للمسلمين، وأن معظم سكان المراكز التجارية الداخلية كانوا مسلمين.

وذكر موريت[٤]: أنه يمكننا أن نحصي أكثر من ستين مركزاً تجارياً في شرقي أفريقية ـ خلا الحبشة ـ كان الإسلام بها منتشراً ولا يزال. وكان القضاة المسلمون منتشرين في كل مكان يحكمون بين الناس وينشرون الإسلام وثقافته بينهم. ويؤسسون المدارس والمساجد مما قوى مركز الإسلام بين القبائل الداخلية التي كانت تحافظ على شعائر الإسلام وعلى الصيام[٥].

وهكذا ـ كما تبين لنا ـ وجدنا الإسلام قد انتشر في معظم جهات شرقي أفريقية ـ من ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندي في الشرق حتى بحيرات تانا وفيكتوريا وتنجانيقا ونياسا في الغرب، وأصبح للإسلام السلطتين الروحية والسياسية على معظم السكان، إذ اعتنقه أكثرهم.

---

(١) حراز: المرجع السابق: ص ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٢) سأتناول ذلك في الباب الأخير.
(٣) Islam To. Day, P. 116
(٤) نقلا عن عبد العزيز كامل: جغرافية الإسلام في أفريقية ص٤٥.
(٥) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية ص ١٦.

لكن هل اعتنق هؤلاء الإسلام عن عقيدة وامتثلوا أوامره ونواهيه؟ وهل تمثلوا حضارة الإسلام؟ وما مقدار التغير الحضاري الذي طرأ عليهم باعتناقهم الإسلام؟.

الباب الخامس

حضارة الإسلام في شرقي افريقية

وفيه فصلان

الفصل الأول

التغيير الذي أحدثه الإسلام في الديانات الأفريقية والمجتمع الأفريقي

الفصل الثاني

التغيير الذي أحدثه الإسلام في حياة الافريقيين الثقافية



تمهيد

الإسلام ليس مجرد شعائر ومناسك وطقوس وإنما هو حضارة دينية شاملة لأن الدين هو أساس وجودها وتوحدها، وجميع نظمه وأخلاقياته وشريعته وعلومه وفنونه هي تعبير عن روحه، لـذا تميزت حضارته عن غيرها[١].

والإسلام ـ بهذا المفهوم الحضاري ـ غيّر حياة الافـريقيين الـذين اعتنقوه تغييراً جذرياً شاملاً، سواء في مجال المعتقـدات والسلوك أو في مجالات حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية بعامة، إذ هو ـ كمال قال ألفريد كابتول سميث ـ: «أسلوب حياة، تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً، وليس مجرد أفكار وعقائد»[٢].

وعندما وفد الإسلام على شرقي أفريقية جابه مجتمعات لها ديانات وحضارات ومن هنا حدث صراع بين حضارته وبين تلك الحضـارات

---

(١) محمد حسين هيكل: حياة محمد: ص ٥١٦، ٥١٩ ـ ٥٢٠ (ط ٩ سنة ١٩٦٥م)

وانظر: Trimingham: The influence of Islam upon Africa Chapt. 2, 3, 4.

(٢) نقلاً عن أنور الجندي: الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التعريب: ص ٢٦٨.

المحلية، وتبادلت حضارته مع تلك التأثير والتأثر.

وقد عرض المؤرخ توينبي[1] - كما عرض غيره من فلاسفة التاريخ - لظاهرة التقاء الحضارات وانتهى لقوانين معينة وهي:

١ - إن الخصائص الفردية للحضارة الأجنبية بعامة أكثر قبولاً من الحضارة في مجموعها، ومعنى ذلك أنها قد لا تقبل ككل، وإنما قد يقبل بعض عناصرها.
٢ - إن قوة تأثير أي عنصر حضاري تكون على نسبة عكسية لقيمته الحضارية، ومعنى ذلك أن أعمق العناصر الحضارية هي أقلها تأثيراً ونفاذاً.
٣ - إن قبول عنصر ما من حضارة أجنبية سيجر وراءه سائر عناصرها.
٤ - إن قبول حضارة ما عنصراً واحداً من حضارة أخرى يكون أكثر إزعاجاً لها مما لو قبلت جميع عناصرها.

والحضارة الإسلامية في شرقي أفريقية منذ القرن السابع الميلادي وحتى خضوع المسلمين هناك للاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر الميلادي تعرضت لهذه الظواهر.

وقد قسم الدكتور حسن محمود[2] تاريخ الحضارة الإسلامية عموماً في أفريقية خلال تلك الفترة على النحو التالي:

١ - مرحلة ازدواج الحضارات، فالحضارة الإسلامية والحضارات الأفريقية المحلية تلتقيان، وتعيش كل منهما منفصلة عن الأخرى إلى حين.
٢ - مرحلة بداية الاندماج، وقد بدأت بإسلام الملوك الأفريقيين وذوي النفوذ ثم جمعهم بين التقاليد الإسلامية والتقاليد المحلية.

---

(١) نقلاً عن حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص ١٠ - ١١.
(٢) الإسلام والثقافة العربية: ص ١٣ - ١٤.

٣ ـ مرحلة الاندماج الكامل، وبدأت بدخول معظم الأفريقيين في الإسلام وتعلمهم اللغة العربية وتعمقهم في فهم الإسلام وقيام سلطنات إسلامية، ملوكها مسلمون ورعيتهم مسلمة.

وأرى أنه عندما كان الإسلام يدخل منطقة ما، في شرقي افريقية، كان يتفاعل مع حضارتها، ويسيطر على العقائد والعبادات ثم النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بمقادير متفاوتة.

وقد لخص سبنسر ترمنجهام[١] سير عمليات التغيير في المعادلة التالية: الإسلام + الحضارة الأفريقية = تفاعل = مركب أخير.

وعلى هذا نشأت ـ على امتداد شرقي افريقية ـ بيئات حضارية محلية لكل بيئة منها مقوماتها الحضارية واتجاهاتها الخاصة، ولكن تجمعها في اطار واحد صفات إسلامية مشتركة.

وإذا كنت قد تناولت بعض مظاهر هذه الحضارة الإسلامية في الفصل الأول من الباب الرابع، «الإمارات والممالك الإسلامية بالحبشة» فسوف أفرد هذا الباب للتعرف على ملامح تلك الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها في سكان شرقي أفريقية.

---

(١) S. Trimingham: Op. Cit; P. 44



الفصل الأول

التغيير الذي أحدثه الإسلام في الديانات الأفريقية والمجتمع



المعتقدات:

اعتقد الافريقيون الوثنيون ـ بعد أن أسلموا ـ في الله الواحد، خالق الكون ومدبر أمره. وسماه السواحليون «الله» و «منجو: Mungu» إلا أن التعبير بلفظ الجلالة كان أكثر شيوعاً ورسوخاً لارتباطه بالصلاة. واعتقاد الافريقيين الجديد في «الله» لم يستثرهم للتفكير في كنهه وطبيعته بل وحدانيته وقدرته، ولذا لم يحفلوا كثيراً بعلم التوحيد[١].

ومن قبل اعتقد الافريقيون في الجن وخافوهم؛ ولذا اشتغلوا بالسحر والكهانة بغية النجاة من شرهم وللاستفادة من القوى الخيرة[٢]، إلا أن الإسلام أمنهم الخوف من الأرواح والجن معاً، لأن الميت لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن يملك هذين للآخرين، ولأن الجن لا تضر ولا تنفع إلا بأمر الله[٣].

وكانت فكرتهم عن نشأة الكون وبدء الخليقة خرافية وغامضة،

(١) The influence of Islam, PP. 49, 55.

(٢) الديانات في أفريقية السوداء: ص ٥٠ ـ ٥٢، ٨٦.

(٣) انظر سورة البقرة: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان..﴾ الخ الآية ١٠١.

فأخبرهم الإسلام بأن الله هو خالق الكون بما فيه ومن فيه على غير مثال ومن غير معين[1].

وكانوا يعتقدون أن الموت عدوى تصيب الإنسان، وأن المرء لن يبعث بعد موته، فأخبرهم أن لكل أجل كتاباً، وأنهم سيبعثون، وأن هناك جنة وناراً وثواباً وعقاباً[2].

وبالرغم من أن هذه المعتقدات قد رسخت في أذهانهم بالقرآن والسنة، وأنهم لم يحفلوا كثيراً بعلم التوحيد، ولم يُوجد بينهم شك، فإنها قد ازدادت رسوخاً بالقصائد والقصص التي كانت تُقال في احتفالات الموالد، إذ انها أعطتهم فكرة واضحة عن أسماء الله الحسنى والملائكة والرسل، وصورت لهم الآخرة[3].

العبادات والشريعة:

وبإسلام الإفريقيين امتنعوا عن عبادة ترضي الأسلاف(*) والأرواح المسيطرة على حياتهم الاجتماعية واتجهوا بعبادتهم لله وحده فأقاموا الصلاة التي طهرتهم وسترت أبدانهم وجمعتهم في مسجد نظيف جيد البناء. وأصبح المسجد في القرية منار العلم والحضارة الإسلامية، فهو مكان العبادة ومدرسة تحفيظ القرآن والتعريف بالإسلام وثقافته وهو أيضاً مكان الاحتفالات الدينية والاجتماعية[4]. وغيرت الزكاة حياتهم القبلية المغيرة السالبة إلى حياة التآخي والتراحم، «وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك

---

(1) الديانات في أفريقية: ص ٧٢ ـ ٧٣.

(2) الديانات: ص ١٤٣، Op, Cit, PP. 53 - 56

(3) Op. Cit; PP. 53 - 56.

(*) عبادة ترضي الأسلاف، أي ترضية الأموات على الأحياء.

(4) Trimingham: The influence of Islam: PP. 49 - 50.

داراً اسلامية يجد الأسود الذي تحول إلى الإسلام، والذي يستطيع أن يسرد أركان عقيدته، واثقاً من المأوى والقوت والنصيحة»[1].

وقد أشاد بكرمهم وأدائهم الزكوات الرحالة والمؤرخون الذين أرخوا لمسلمي تلك الأنحاء، كابن بطوطة والعمري والمقريزي وعرب فقيه.

وهذب صومهم رمضان طباعهم البربرية. وطبع الحج في قلوبهم وعقولهم معنى حياتهم المشتركة وأخوتهم التي ارتبطت بروابط الدين، وفتح أعينهم على ينابيع الثقافة الإسلامية، فاغترفوا منها طلاباً وحجاجاً، فقد كان الحاج الافريقي، يمر في طريقه بدول إسلامية ويتعرف بعلمائها ومدارسها وبتيارات الفكر السائدة فيها، ثم يتوج هذا بما يتحقق له في الاجتماع الشامل في الحج من علم ومعارف، ويشعر بأنه ينتمي إلى مجتمع عالمي يضم جميع الأجناس والأشكال[2].

وطبق الإفريقيون شريعة الإسلام في حياتهم كما ذكر ذلك الرحالة والمؤرخون. واتجهت العقلية الافريقية لتكون شرعية دائماً، وعندما تصبح الجماعة مسلمة يحدث تغيير تدريجي في مظهرها الخلقي مما يؤثر على الاخلاق الجماعية[3]، ولهذا وجدنا الرحالة ابن بطوطة والمؤرخين يشيدون بسمو أخلاقهم وكذلك رحالة البرتغال فيما نقله عنهم جيان من أن مسلمي شرقي أفريقية قد اشتهروا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم من ظرف وأدب[4].

وقال جيان عن تأثير الإسلام في الافريقيين: «وإلى ميل المستعمرين

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام: ص٣٩٤.

(٢) عوامل انتشار الإسلام في شرقي أفريقية، مقال لعبد السلام شحاته، بمجلة نهضة افريقية (٥٩/٥) اكتوبر سنة ١٩٦٢م.

(٣) Trimingham: Op. Cit; P. 68.

(٤) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية: ص ٣٢٠.

(!؟) العرب إلى السلم وحبهم السكون وتجردهم من نقيصة الطمع يرجع الفضل في اتحاد العناصر ووثوق عرى المودة والوئام بينها في بلاد الساحل. ولقد كان انتشار الديانة الإسلامية من أهم البواعث التي أعانتهم على ذلك[1]».

الشعائر والأنظمة الدينية:

وكان للقبائل الافريقية قبل الإسلام شعائر وأنظمة دينية متعددة، فلهم احتفالات دينية مهيبة لآلهتهم وأسلافهم، سنوية وموسمية وفي المناسبات، يشربون فيها الخمور ويرقصون ويتلون الأدعية ويقدمون الضحايا والقرابين، وتطول مدة هذه الاحتفالات أو تقصر على حسب أهميتها، فعند جني المحصول يقيمون احتفالاً لإله الحصاد، وعند المطر يقيمون احتفالاً لإله المطر وهكذا، وهناك حفلات الزواج، والولادة، والختان، وتلقين الأسرار، والدفن والجنائز. . . يدعون فيها أرواح أسلافهم تبركاً بهم واتقاء لشرهم[2].

وكانت لهم طقوس دينية يقومون بها عند اختلال ظواهر الطبيعة أو الكوارث والمحن. وعند الطعام يلقون الفتات على محراب الأسرة ويتلون بعض الأدعية وعند نحر الذبيحة يهدون بعضها لأرواح أسلافهم. وارتكاب المحرمات كالزنا والحنث في اليمين جرم عظيم يلزم للتطهر منه تقديم قربان، وعند بعض القبائل يكون التطهير بالطرد من القبيلة[3].

واشتغل الافريقيون بالسحر والكهانة للتنبؤ بما سيحدث، ولدفع الكوارث والأخطار ومداواة المرضى وللحفاظ على القوى الحيوية[4].

---

(١) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية ص٣٢٢.

(٢، ٣، ٤) محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الافريقية ص٩٧ - ٩٩ و ١١٦. وديشان: الديانات في أفريقية السوداء: ص٦٤ و ٨٦

وكانت لهم أنظمة دينية دقيقة فهناك الكاهن الأكبر، وهو الزعيم الروحي - وغالباً الدنيوي أيضاً - للقبيلة، فيقوم بتوجيه الحياة الدينية لها، وهو الواسطة بين الأحياء وبين أسلافهم الأموات، بل بينهم وبين الله ويمكنه التنبؤ بما سيحدث. وكان يُسَمَّى «الليبون: Laibon» عند قبائل المساي. ومن عشيرته رجال يشتغلون بالسحر والكهانة، ويقومون بتوجيه الحياة الروحية للناس وتقديم الضحايا والقرابين وعمل الأحجبة والتمائم، وكانت لهم مكانة رفيعة. ويليهم شيوخ العشائر المختلفة. وفوق هؤلاء جميعاً وأولئك أرواح أسلافهم، إذ الموتى هم الرؤساء الفعليون للأسرة وللقبيلة كلها، وهم القوامون والمراقبون لسلوك الاحياء، ولهم عليهم حق الثواب أو العقاب، إن تمسكوا بعادات القبيلة ونظمها أو تركوها[١].

لكن الإسلام غير شعائرهم وأنظمتهم الدينية، حقاً لقد أبقى على بعضها لكنه غير مظهرها وغاياتها وصبغها بصبغته الراقية، فألغى احتفالات الآلهة والأسلاف، إذ لا معبود سوى الله، وبدَّلهم بها الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى والمناسبات الدينية الكثيرة، كالمولد النبوي وليلة القدر، وليلة النصف من شعبان وعاشوراء... فوجدوا فيها خير بديل عما تركوه[٢]. وأبقى الإسلام على حفلات الزواج والولادة والختان... إلا أنه جردها من طابعها الجاهلي الوثني شكلاً ومضموناً. ونبذ فكرة القربان وجعل في الأضاحي والصدقات خير بديل عنها[٣].

وألغى الإسلام طقوسهم الدينية التي كانوا يتوجهون بها إلى ظواهر الطبيعة عند اختلالها، فوجدوا في صلاة الاستسقاء عند الجفاف وصلاة الكسوف وصلاة الخسوف التي يتضرعون فيها لله خير بديل عن طقوسهم

---

(١) محمد عوض: المرجع السابق: ص ٩٧ - ٩٩ و ١١٦، وديشان: المرجع السابق ص ٢٨ وما بعدها.

(٢، ٣) ديشان: المرجع السابق: متفرقات. Trimingham: The influence of Islam; P. 54.

السالفة، كما وجدوا في صلاة الاستخارة خير بديل عن الكهانة. وحرم الإسلام عليهم السحر فلجأوا إلى كتابة تمائم بآيات قرآنية. واستبدل الإسلام مذاهبهم المؤسسة على الفصول بالتقويم الهجري - وهو سنة إثنا عشر شهراً هلالياً - لارتباطه بالعبادات. وكان لقبولهم التقويم الهجري أثر كبير في قطع صلتهم بعباداتهم الوثنية القديمة وتقوية الإسلام في نفوسهم[1].

ووجد الافريقيون في نظام الإسلام الديني خير بديل عن أنظمتهم الدينية الوثنية، فأصبح ولي أمر المسلمين بديلاً عن الكاهن الأعظم في توجيه الحياة الدينية والدنيوية، وأخذ الوزراء والأمراء والقضاة وأئمة المساجد مكان الكهنة والسحرة والأسلاف، ويشمل القانون الإسلامي كل صور الحياة الدينية والدنيوية للفرد والمجتمع، ومهمة النظام الإسلامي ارشادهم إلى القانون الإسلامي وتوجيههم نحوه، بل اجبارهم على اتباعه إذا حادوا عنه، بإقامة الحدود والتعزير، فالأئمة والقضاة يؤمون الناس في الصلاة ويخطبون الجمعة، ويجمعون الزكاة ويقبلون الصدقات ويوزعونها على فئاتها المعينة في كتاب الله، وينفقون منها على الصالح العام ويعقدون القران، ويديرون حفلة الزواج ويسمون المولود وينحرون الضحية الأولى في الأعياد والمناسبات الدينية، ويغسلون الميت، ويؤمون في صلاة الجنازة، ويفقهون الناس في الإسلام، ويحفظون الصغار القرآن ويعلمونهم مبادىء الإسلام. ولا يتم عمل في حياة القرية إلا بوجودهم. ويعينهم ولي أمر المسلمين في المناطق الإسلامية، ويشترك المسلمون في اختيارهم في المناطق التي يكون المسلمون فيها أقلية. وقد ساهم العلماء ورجال الطرق الصوفية في ذلك بدور كبير. واستطاع الصوفية - وكان تأثيرهم قوياً سواء على السطح أو في الأعماق - أن يدخلوا أفراداً في البعد العميق للإسلام الذي

---

(١) Trimingham: Op. Cit. PP. 50. 51.

يتجاوز الفهم الفقهي الظاهري إلى الفهم الأخلاقي الروحي[1].

وبالرغم من أنه ليس للإسلام كهنوت إلا أن له رجال دين أو فقهاء، حفظوا القرآن وتفقهوا في الدين. وهو لم يخصص فئة للدين وفئة للدنيا، لأنه دين الدنيا والآخرة. وليس فيه واسطة بين العبد وربه وهو يقرر طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، حتى لا تكون المعرفة احتكاراً لأحد. والمسؤولية فردية، فلا تزر وازرة وزر أخرى[2].

ولقد كان لهؤلاء الزعماء الدينيين مكانة سامية رفيعة بين الافريقيين المسلمين والوثنيين معاً، فكانوا يجلونهم ويقابلونهم بالترحاب في كل مكان، بل كان الوثنيون يلتمسون الخير على أيديهم ويوكلون إليهم تعليم أبنائهم[3]. وفيما ذكره ابن بطوطة وعرب فقيه، وغيرهما عن مكانة القضاة والفقهاء ما يبين ما كان لهم من مكانة رفيعة عند الحكام والرعية معاً، فقد وصف ابن بطوطة[4] دخول سكان مقدشو على السلطان بقوله: «ويدخل القاضي والفقهاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور الثاني، فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويكون القاضي على دكانة وحده، وكل صنف على دكانة تخصهم، لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه، ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيجلس كبراؤهم بين يديه».

التغيير الذي أحدثه الإسلام في المجتمع الافريقي:

كان للقبائل الافريقية ـ قبل إسلامها ـ أنظمة اجتماعية دقيقة صارمة

---

(١) Ibid, PP. 50 - 51,55,60.

(٢) أرنولد: المرجع السابق: ص ٣٤١.

(٣) أرنولد: ص٢٩٧ ـ ٢٩٨ (ط ٢).

(٤) الرحلة: ص٢٥٦.

يسهر على تنفيذها أرواح أسلاف القبيلة من الأموات. ومظاهر تلك الحياة مختلفة، فالمجتمع طبقي، الأموات هم الرؤساء الفعليون وشيخ القبيلة هو الواسطة بين الأحياء والأموات، ثم شيوخ العشائر، ثم الكهول، ثم من يلونهم حسب طبقات السن الواحدة. وبعض طوائف المجتمع أنجاس كالحدادين والحذائين، وكانوا يقتلون أي فرد تحل فيه روح شريرة كما يزعمون. وخوفهم من الأموات دفع بعض قبائل البانتو إلى أكل لحمهم، واحراق عظمهم، وبعض القبائل كانت تترك الميت في العراء نهباً للوحوش إلا الشيوخ وذوي الثراء فيدفنونهم. والمجتمع قبلي يئن بالرذائل والمتناقضات والغريب عن القبيلة عبد من عبيدها[1].

وبعد أن اعتنق الافريقيون الإسلام تغيرت أنظمتهم وحياتهم الاجتماعية تلك، إذ للإسلام نظامه الاجتماعي الخاص به. فدعامته الأخوة الإنسانية بين المسلمين وغير المسلمين، والأخوة الإسلامية بين أفراد المجتمع المسلم، وكان من آثار ذلك أن زالت الفوارق الجنسية واللونية والطبقية بين مسلمي شرقي أفريقية من العرب والفرس والهنود والافريقيين، وتزوج الوافدون من أولئك من افريقيات وأنجبوا منهن. وامتزجت تلك العناصر جميعها وكونت عنصراً واحداً، يدين فقط للإسلام بالولاء. وكرم الإسلام الإنسان حياً وميتاً وأوجب دفنه. وعلى هذا النحو سرعان ما يصبح الأسود المتحول إلى الإسلام مع اخوانه المؤمنين على قدم المساواة. بل نفذوا مبدأ التآخي الإنساني تنفيذاً عملياً فقد ذكر أرنولد «أن المسلمين في تلك البلاد لا يعرفون التعصب في أي صورة من صوره، ولا يضمرون للمسيحية أي نوع من العداء[2]». وهكذا فإن البربرية

---

(١) محمد عوض: الشعوب والسلالات الافريقية، ودافدسن: افريقيا تحت أضواء جديدة، وديشان: الديانات في أفريقية السوداء، ولودفيغ: النيل: أماكن متفرقة.

(٢) الدعوة إلى الإسلام: ص ١٤٠.

والجهل والخرافة الدينية تلك الأمور التي كان الإسلام يجدُّ في القضاء عليها لا تجد الا فرصة يسيرة في اطالة المقاومة، وقد اتضح ما تقدمه حضارة افريقية الإسلامية إلى الزنجي الذي تحول إلى الإسلام، فيما ذكره بوسوورث سميث[1] «Bosworth Smith». ان أقبح الرذائل وهي أكل لحوم البشر وتقديم الإنسان قرباناً، ووأد الأطفال أحياء ـ تلك الرذائل التي نجد ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت في وقت ما منتشرة في كل افريقية، ولا تزال في بقاع كثيرة منها، . . . ـ قد اختفت فجأة وإلى الأبد، والمساكنون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة بدأوا يرتدون الملابس بـل يتأنقـون في ملابسهم، والمساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبل بدأوا يغتسلون بل يكثرون من الاغتسال، لأن الشريعة المقدسة تأمر بـالطهـارة. . . ويميل النظام القبلي إلى فسح المجال لأساس أوسع نطاقاً، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصير أمماً وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمم امبراطوريات. . . ومتى أثيرت الروح الحربية على هذا النحو فإن المراكز التي تنبعث منها نار الحرب تصبح أقل عدداً وأكثر انعزالاً عما كانت عليه من قبل. وفي هذه الحالة تكون الحرب أحسن تنظيمًا كما تكون متأثرة بصـورة من صـور التقيـد، وهم لا يثيـرون القتـال دون سبب من الأسباب. . . وقَلَّ السلب المطلق الذي لا يقـوم على تفـرقة بـين من يسلبونهم، كما أصبح تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم أكثر من ذي قبل. . . «إلى أن قال»: من المسلَّم به من كل الوجوه أن الإسلام يمد السود الذين أسلموا حديثاً بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس واحترام الذات وهـذه كلها صفـات يندر جـداً أن نجدهـا في مواطنيهم الـوثنيـين أو المسيحيين. ولهذا ملكوا ناصية التجارة والصناعة، وبات لهم التفوق المادي

---

(1) Mohammedanism in Africa (The Nineteenth Century, December 1887) PP. 798 - 800.

والأدبي، وصاروا أصحاب النفوذ وصُنَّاع الحضارة بين سكان شرقي أفريقية[1].

وغير الإسلام نظمهم في الزواج ونظام الأسرة، وحصر عدد الزوجات في أربع، ورفع مكانة المرأة، وأحاط الأسرة الأفريقية بسياج من الحصانة، وكفل لأبنائها التربية، ووضع نظاماً عادلاً لتوزيع الثروة بين أفراد الأسرة جميعاً إذا مات أحد أفرادها. بعد أن كان النظام الأفريقي يخص ابن الزوجة الأولى بالتركة كلها، مع العلم بأنه كان للرجل منهم أن يتزوج بأي عدد من النساء شاء[2].

ووثق الإسلام صلة الأسرة الافريقية بالمجتمع الافريقي المسلم، حتى سادت بين أفراده الأخوة والتراحم، حتى رأينا ابن بطوطة[3] يذكر أن سلطان مقدشو قد خصص وزيراً للضيوف، وأعد داراً لإطعام الرعية، وأخرى للضيوف، وثالثة للطلبة ينزل فيها الفقهاء والصالحون. وقال عن مسلمي منبسى: وهم «أهل دين وعفاف وصلاح»[4]. وعن مسلمي كلوة: «والغالب عليهم الدين والصلاح»[5] وقال العمري عن مسلمي الحبشة: «وعند أهلها محافظة على الدين»[6]. وقال ترمنجهام عن سكان شرقي افريقية: «بعد أن تصبح الجماعة مسلمة يتغير أساس حياتها المشتركة»[7].

ومن يطالع كتب الإلمام وفتوح الحبشة وصبح الأعشى يجد هذه

---

(١) أرنولد: المرجع السابق: ص ١٣٩ و ١٤١.

(٢) Op. Cît; PP. 89 - 91.

(٣) الرحلة: ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٤) الرحلة: ص ٢٥٧.

(٥) الرحلة: ص ٢٥٨.

(٦) نقلاً عن القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ٣٢٤.

(٧) Op. Cit; P. 54.

الصورة المشرقة لتمسك مسلمي تلك الأنحاء بدينهم والتزامهم بشريعته حكاماً ومحكومين.

النظام الاقتصادي(*):

كانت النظم الاقتصادية لشعوب شرقي افريقية - قبل إسلامهم - تقوم على الاقطاع والاحتكار والاستغلال، مما زادها تخلفاً، فقد كان الملوك والزعماء وشيوخ القبائل هم الذين يملكون الأراضي وقطعان الماشية، وأما سواد الناس فلهم الحرمان والشقاء، وفوق ذلك يثقل أولئك كاهلهم بالضرائب الباهظة يدفعونها مالاً أو جهداً في اقطاعاتهم، وإلا فأرواحهم فداء[1].

والتجارة كانت في أيدي طوائف من العرب والفرس والهنود واليهود يجنون منها أرباحاً طائلة، والتعامل بالربا شائع وحلال[2].

وكانت الثروات حكر الأناس محدودين، إذ كان نظام الميراث الأفريقي يخص بالتركة ابن الزوجة الأولى بالرغم من زواجهم بأكثر من واحدة.

ونشأ عن تخلفهم اقتصادياً تخلفهم اجتماعياً وسياسياً بل حضارياً على وجه العموم.

وبعد أن اعتنق الافريقيون الإسلام تغير نظامهم الاقتصادي، سواء في التملك أو في الضرائب، فقد فتت تلك الثروات الضخمة نظام

(*) انظر: النظام السياسي: «توفير وسائل العمران»: في هذا الفصل.

(۱) محمد عوض: الشعوب والسلالات الافريقية: متفرقات، وديشان: الديانات ص۲۹ - ۳۰. ودافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة: ص۳۲۱، ۳۲۳، ۳۲۷.

(۲) رحلة السيرافي: ص٥٠ وما بعدها. والمسعودي: جـ۱ وجـ۲: متفرقات والادريسي: نزهة المشتاق (مخطوط) متفرقات.

الإسلام في الإرث فأصبح جميع أفراد الأسرة يرثون، وانتهى نظام السخرة والتسلط على حياة الناس، فأصبح العامل يتقاضى أجر عمله، ولا يكره عليه.

وتغير نظام الضرائب، فأصبح الأغنياء يدفعونها للفقراء، وقد ذكر الرحالة والمؤرخون[1] أن الأغنياء كانوا يؤدون الزكوات لمستحقيها، وأن السلاطين والأمراء كانوا يجبونها ويوزعونها على مستحقيها بأنفسم، ويقاتلون من يمنعها. بل يتبارون في التصدق على الفقراء والمحتاجين.

وتغير نظام توزيع الغنائم فأصبحت لها مصارف تعود على المجتمع المسلم بالنفع[2]. بعد أن كان يستأثر بها الملوك والأمراء.

وحرم الإسلام الربا والغش واستغلال حاجات الناس، وأمر بالسعي في طلب الرزق، فظهرت صناعات تنطوي على مهارة فائقة وتجارة منتظمة تنظيمًا محكمًا. واشتغل المسلمون بالزراعة، وأدخلوا زراعة محاصيل جديدة كالقطن والقرنفل وغيرهما.

وكان لمنهج الإسلام في الاقتصاد الذي جمع بين التخطيط الدقيق للدنيا والحرص عليها، وبين القيم الأخلاقية والعمل من أجل الآخرة - أن رأينا أن التجار المسلمين يتحلون بسمو عقلي وخلقي مما فرض احترامهم والثقة بهم على الوثنيين، حتى أصبح نزولهم في بلاد وثنية ايذاناً بفتح باب للتجارة أوسع مدى وانتشاراً، وبالاتصال بمراكز تجارية كبيرة[3].

وقد أشاد ابن بطوطة ورحالة البرتغال بالرخاء المادي الذي كان ينعم

---

(١) كالمقريزي: الإلمام ص١٢ و ١٦، وعرب فقيه: فتوح الحبشة: ص ٢٠

(٢) ابن بطوطة: الرحلة: ص٢٥٨، والمقريزي: الإلمام، وعرب فقيه: فتوح الحبشة: متفرقات.

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص٣٩٤.

به سكان شرقي أفريقية المسلمون. وقال أرنولد[1]: «وقد مد هذا الدين الآن جذوراً بعيدة الغور في أرض الحبشة، حتى ان أتباعه ملكوا ناصية التجارة كلها كما ملكوا المهن الصغيرة بأنواعها في البلاد، ونعموا بأملاك واسعة وسيطروا على مدن كبيرة وأسواق هامة، وظفروا بنفوذ قوي على جمهرة الشعب».

وهكذا كان أثر نظام الإسلام الاقتصادي على الحياة الاقتصادية عند الأفريقيين، مما حقق الثراء للمجتمع وجعل الانتفاع بالثروة للجميع.

النظام السياسي:

لم تكون قبائل شرقي أفريقية دولاً دستورية قبل اسلامها، بل وجدت ممالك، كأكسوم، وأوغندة، ومونوتابا[2]، والزنج التي حكى عنها المسعودي[3]، ولم تكن تلك الممالك دستورية إذ لم تكن تخضع لقانون، بل كان يحكمها بالوراثة ملوك مستبدون متألهون، وتحت امرتهم أمراء اقطاعيون أكثر استبداداً وظلماً، فالملك وأعوانه هم أصحاب المال وأصحاب السلطان، بل كان لملك أوغنده حق الحياة والموت على شعبه[4].

وما عدا هذه الممالك فقبائل بدائية، قانونها القوة، وعاداتها السلب والغارة وحياتها حروب لا تهدأ. والغريب عن القبيلة عبد لها. وأفراد القبيلة يخضعون لعرفها الذي له سلطان القانون، إذ يرعى تنفيذهم له أسلاف القبيلة الأموات الذين ينزلون الكوارث بالمخالفين. وهناك عقوبات متعارف عليها لمن يخالف عرف القبيلة ينزلها بالمخالف شيخ القبيلة المستبد

(١) المرجع السابق: ص ١٤١.
(٢) دافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة: ص ٣٢٠ وما بعدها.
(٣) مروج الذهب: جـ٢ ص٦.
(٤) لودفيغ: النيل: ص٥٨ ـ ٥٩، وأرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٩٨.

الذي هو في نظرهم نصف إله. وعرف القبيلة هذا عرف جائر، إذ يعتبر بعض أفرادها أنجاس كالحذائين والحدادين، ويحل اعدام أي شخص إذا ادعى أنه حلت فيه روح شريرة[1].

ولم تخضع قبيلة من تلك القبائل لسلطة عامة وتتحد تحت رئاسة رئيس واحد لأن نظامها السياسي مبني على وجود عشائر كثيرة العدد جداً، مثل قبائل: البجة وعفر ساهو والصومال والجلا والكامبا والمساي والكيكوبو وغيرها[2].

وباعتناق أولئك الافريقيين الإسلام كونوا دولاً دستورية ذات نظام سياسي راق، اتخذت الشريعة الإسلامية دستوراً لها[3]، فقد عرفوا أن الأمة المسلمة - ممثلة في أهل الحل والعقد - هي مصدر السلطات، ولذا كانوا يختارون الحاكم، وينكرون عليه أو يعزلونه إن ظلم أو اغتصب الحكم ممن هو قائم عليه بحقه، فقد ذكر عرب فقيه[4]: أن الجراد أبون ملك على وفات سبع سنين، كان يحكم خلالها طبقاً لشريعة الإسلام حتى شعرت الرعية في عهده بالسعادة والأمن. لكن السلطان أبا بكر بن آذر بغى عليه وقتله، واستولى على السلطة، وخرب البلاد، وظهر قطاع الطرق، وشاع المنكر في عهده، فأنكر عليه الاشراف والفقهاء والمشايخ أفعاله، ولما لم يؤدِ الانكار إلى نتيجة ثار عليه المسلمون بقيادة الإمام أحمد ابن ابراهيم وقتلوه واستولى الإمام أحمد على السلطة فأعاد أسلوب الحكم طبقاً لشريعة الإسلام.

وذكر صاحب السلوى في أخبار[5] كلوة: أن المتمندلين[*] هاجموا

(١، ٢) نفس المكان، وديشان: المرجع السابق، ومحمد عوض: المرجع السابق متفرقات.

(٣) صبح الأعشى: جـ٥ ص٣٣٥، ورحلة ابن بطوطة: ص٢٥٦ - ٢٥٨.

(٤) فتوح الحبشة: ص٦ - ٧، ١٥.

(٥) (J.R.A.S.) 1895. PP. 414 - 415

(*) هم قبيلة أو قبائل مسلمة كانت تقيم بمنطقة تسمى شاغ بالقرب من كلوة.

كلوة واحتلوها، وولوا على أهلها واحداً منهم اسمه خالد بن بكر، فاجتمع أهل كلوة على عزله، وولوا الحسن بن سليمان.

وذكر أيضاً:[1] أن أمير كلوة ووزيرها وأهل الحل والعقد تشاوروا فيمن يولونه أمر كلوة بعد موت سلطانها سليمان بن الملك العادل، واستقر رأيهم على أكفأ شخص فولوه.

وعرف الافريقيون المسلمون في حكوماتهم أيضاً السلطات التشريعية (أهل الحل والعقد) والتنفيذية (الحاكم ووزراؤه وأمراؤه)، والقضائية، بل وعرفوا نظام الشورى. وقد ذكر ابن بطوطة[2] نموذجاً لحكومة مقدشو الإسلامية بعد أن تحدث عن اجتماع سكانها كل يوم سبت بباب السلطان للفصل بينهم، قال: «ثم يدخل الشيخ (السلطان) إلى داره، ويعقد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات، فما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى، وهم الوزراء والأمراء، وما كان مفتقراً إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيه، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة، بما يقتضيه نظره، وتلك عادتهم دائمًا». وتحدث عن جيش تلك السلطنة ورؤسائه.

ولقد نهضت حكومات شرقي أفريقية المسلمة بالواجبات التي تناط بها الحكومة في الإسلام، فأقامت الدولة الإسلامية الشرعية التي نهضت بالواجبات الدينية والدنيوية معاً، وقلدت القضاة للفصل بين الناس والنظر في المظالم، بل قال القلقشندي[3] عن مسلمي الحبشة «ملوكهم تتصدى للحكم بأنفسهم، وإن كان عندهم القضاة والعلماء».

---

(1) Op. Cit; P. 418.

(2) الرحلة: ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(3) صبح الأعشى: جـ٥ ص٣٣٥.

ومر بنا ما ذكره ابن بطوطة عن القضاء في سلطنة مقدشو. وكان للجهاد الإسلامي دور خطير وهام، إذ اتخذه المسلمون هناك شعاراً في الصراع المرير بينهم وبين أعداء الإسلام على امتداد التاريخ[1]. واضطلعوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حكاماً وأفراداً، من ذلك ما رواه المقريزي[2] من تغير السلطان سعد الدين أبي البركات على زوج ابنته سليم بن عباد لرفضه اخراج زكاة ماله، ومحاربة جمال الدين محمد بن سعد الدين البرابر حتى دفعوا زكاة أموالهم. وقال عن جمال الدين هذا انه كان «يصحب الفقهاء وأهل الفقر من الصالحين وينشر العدل في أعماله حتى في أهله وولده»[3].

وقال[4]: «وأظهر (شهاب الدين أحمد) بدلاي سيرة العدل في مملكته، فأمنت الطرقات وانكف الناس عن الظلم من العسكر وغيرهم».

ومن ذلك ما رواه عرب فقيه[5] عن موقف مسلمي الحبشة من ظلم السلطان أبي بكر بن محمد بن آذر بقوله: «وأنكر عليه الأشراف والفقهاء والمشايخ أفعاله»، وقوله عن الجراد أبون[6]: «وأقام الحق وحكم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقتل قطاع الطريق وأبطل الخمور واللعب والرقص بالطبول... وأصلح الرعية»، وقوله[7] عن الإمام أحمد بن ابراهيم: «وحكم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقطع قطاع الطريق». ومر بنا ما ذكره ابن بطوطة عن مقدشو.

وقامت حكومات شرقي أفريقية المسلمة بعلوم الدين والدنيا،

---

(١) Trimingham: The influence of Islam, PP. 44-45.

(٢) الإلمام: ص: ١٢ و ١٦.

(٣) الإلمام: ص١٨.

(٤) الإلمام: ص٢٠.

(٥، ٦) فتوح الحبشة ص٦.

(٧) فتوح الحبشة: ص١٤.

فأنشأت المدارس لتعليم الناس، وأوفدت طلاب العلم لينهلوا من منابعه في الحرمين والأزهر وغيرها، وبثت الدعاة ليفقهوا الناس وحققت التكافل الاجتماعي لمواطنيها، إذ ذكر الرحالة والمؤرخون أن الناس كانوا ينعمون هناك بما توفره لهم الحكومات الإسلامية من أمن وحياة كريمة، فقد ذكر ابن بطوطة[١]. ان سلطان مقدشو قد خصص داراً لإطعام رعيته وأنه كان يطعمهم كل يوم سبت، وجهز داراً لطلاب العلم وأخرى للضيوف، بل وجعل وزيراً للضيوف يرعى شؤونهم ويقوم بأمرهم. وذكر المقريزي[٢] وعرب فقيه[٣] أن الحكام المسلمين كانوا ينفقون أموالهم الخاصة على مصالح المسلمين حتى لا يجدوا ما يأكلونه.

وقال أرنولد[٤]: «وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك داراً إسلامية يجد الأسود الذي تحول إلى الإسلام والذي يستطيع أن يسرد أركان عقيدته واثقاً من المأوى والقوت والنصيحة» بل كتب يوارت باربوسا[٥] سنة ١٥١٨م «حال الرقيق في منبسى تدل على ما لأسيادهم العرب هناك من إنسانية، يعجز الواحد أحياناً أن يميزهم عن أسيادهم، إذ يبيح هؤلاء لهم أن يقلدوهم في اللباس وفي غيره من شؤون العيش».

وقد وفرت تلك الحكومات الإسلامية أيضاً وسائل العمران، وهي الوسائل التي بها يتحقق العمران وتتوفر أسباب المعيشة للناس، وينمو الانتاج وتكثر الثروة، فظهرت «صناعات تنطوي على مهارة فائقة، وتجارة منظمة نظاماً محكماً. وظهرت هذه المدن الكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة، وتأثير الحكومات الأكثر استقراراً التي جاء بها الإسلام»[٦].

---

(١) الرحلة: ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢، ٣) الإلمام وفتوح الحبشة: أماكن متفرقة.

(٤) الدعوة إلى الاسلام ص٣٩٤.

(٥) نقلاً عن بازل دافدسن: افريقياً تحت أضواء جديدة: ص١٧.

(٦) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص٣٧٨.

وقد أدهش ابن بطوطة[1] المستوى الحضاري الذي كانت عليه المدن الإسلامية هناك، وما كانت تنعم به من ثروة ورخاء، وهو الذي طاف بالعالم المعروف إذ ذاك وكان على علم بمستواه الحضاري. بل انه ذكر أن مقدشو الإسلامية تصنع الثياب التي لا نظير لها وتصدرها إلى بلاد العالم.

ونقل جيان[2] عن مؤرخي البرتغال - الذين زاروا شرقي أفريقية في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر الميلاديين - ما كتبوه حيث قال: «كان العرب المسلمون وأحفادهم حيثما استقروا يتركون من دلائل الثروة والرفاهية والنعيم أثراً لا يمحى، وكان هذا شأنهم في موزمبيق التي كانت بلداً في الدرجة الثالثة عندما رآها (دي غاما)، ومع هذا أثارت في نفوس البرتغاليين الدهشة والذهول، إذ كانت منازلها مشيدة بالخشب ومساجدها ودار شيخها مبنية بالحجر، كما كان شيخها متشحاً بثياب حريرية، وفي معيته أفواج من عشائر العرب في أفخر الثياب، تتقدمهم الآلات الموسيقية صادحة بأجمل الانغام. كما رأى (دي غاما) سفناً تجارية كثيرة في مرفأ (منبسى)، ورأى أن حاصلات جزيرتها على أنواع شتى، وأن أرضها مزدانة بالحدائق الباسقة الأشجار اليانعة الثمار. أما مدينة (منبسى) فقد كانت كبيرة وأكثر منازلها مشيد بالحجارة على نمط بناء الأندلس، وسطوحها مجصصة ومقسمة أقساماً عديدة مختلفة، وكانت طرقاتها جميلة منتظمة، يسير فيها المشاة، ويخترقها الفرسان ممتطين جياداً مطهمة، كما كانت نساؤها تمرح في ثياب فاخرة من الخز والأبريسم، وموشاة بأسلاك الذهب، ومزدانة بالأحجار الكريمة. ووجد أن المقادير الوافرة من العاج والعسل والشمع تجلب إليها من داخل القارة.

---

(١) الرحلة: ص٢٥٢ وما بعدها.

(٢) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية ص٣١٨ وما بعدها (بتصرف).

وأما (ماليندة) فقد كان فيها ما يثير العجب ويأخذ باللب... وهكذا استطرد جيان[1] ثم قال: «وأفضت في ذلك ليعرف القراء ما كانت عليه تلك المدن الزاهرة من الحضارة والجلال والعظمة. ولقد كانت المدن الباقية من الساحل على جانب كبير من تلك المظاهر أيضاً».

وقد تعمق الإسلام في الحبشة حتى أن أتباعه ملكوا ناصية التجارة كلها والمهن الصغيرة بأنواعها، ونعموا بأملاك واسعة، وسيطروا على مدن كبيرة وأسواق هامة، وبات لهم النفوذ على جمهرة الشعب[2].

(١) المرجع السابق: ص٣٢١.
(٢) أرنولد: المرجع السابق: ص١٤١.



الفصل الثاني

التغيير الذي أحدثه الإسلام في حياة الأفريقيين الثقافية



دور العلماء الوافدين في نشر الثقافة الإسلامية في شرقي أفريقية:

الإسلام دين ثقافة وحضارة، فقد جعل «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[1]»، وجعل من واجبات الحكومة الإسلامية (القيام بعلوم الدنيا والدين)، وهي العلوم التي يترتب عليها حفظ الشريعة وصحة العمل بأحكامها وكل ما يتصل بذلك، وأيضاً تلك التي تؤدي إلى حفظ الحياة وازدهار العمران والتحضر الإنساني: كالطب والصيدلة والكيمياء والهندسة والزراعة والفنون والآداب وغير ذلك[2].

لذلك انتشرت الثقافة في شرقي أفريقية بانتشار الإسلام فقد نزح إليها كثير من العلماء والفقهاء والصوفية الذين سخطوا على ما صار إليه أمر المسلمين من فرقة واختلاف أو الذين اضطهدوا في أوطانهم لاختلاف مذهبهم الديني أو اتجاههم السياسي مع السلطة الحاكمة، فهاجر إليها الشيعة والأباضية وأهل السنة وغيرهم من أصحاب المذاهب الدينية بل وأتباع جميع الطرق الصوفية كما كان يفد إليها كثيرون لنشر الإسلام وثقافته

---

(١) رواه البخاري في باب العلم.

(٢) الريس: النظريات السياسية الإسلامية ص ٢٧١ - ٢٧٣ (ط٣ سنة ١٩٦٠).

من سائر أنحاء العالم الإسلامي الفسيح[1].

ولقد وجد هؤلاء وأولئك من ترحيب الحكام المسلمين وكرمهم ما شجعهم على البقاء بشرقي افريقية، فقد ذكر ابن بطوطة[2] أن قاضي مقدشو - عندما نزل بها سنة ٧٣١هـ/١٣٣١م - مصري الأصل، وأن مكانته لدى السلطان والرعية معاً لا يدانيه فيها أحد، وأن طلاب العلم كانوا بصحبته دائماً. وذكر أيضاً أن العلماء والفقهاء، كانوا يتمتعون بمكانة سامية لا يدانيهم فيها سواهم يدل على ذلك وصفه لدخول الرعية على السلطان كل يوم سبت «. . . فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويكون القاضي على دكانة وحده، وكل صنف على دكانة تخصهم، ثم يجلس الشيخ بمجلسه، ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون، ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون. . . »الخ.

بل بلغ من عناية سلطان مقدشو بالعلم والعلماء أن خصص داراً مرتبة ومجهزة لضيافة العلماء والفقهاء الذين كانوا يفدون على مقدشو، وجهز أخرى لإقامة طلاب العلم ورعايتهم والقيام بأمرهم[3].

وذكر أيضاً أن هؤلاء العلماء كانوا يفدون على سلطنة كلوة الإسلامية وأنهم كانوا يجدون هناك التكريم والاحترام من حكامها، بل والهدايا والهبات[4].

وإذا كنا لا نعرف الكثير عن هجرة أو وفود العلماء والفقهاء على شرقي أفريقية إلا أن المقريزي قد ذكر أن الشيخ أبا عبد الله محمداً قد وفد على الحبشة وأخذ ينشر الإسلام وثقافته، ولما رأى تكالب المسيحيين في

---

(١) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب ص: ٢٤٥ وما بعدها.

(٢، ٣، ٤) الرحلة: ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

العدوان على المسلمين جمع مائتي ألف رجل من مسلمي الصومال والجالا، وحارب ملك الحبشة حروباً كثيرة سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م[١].

وكان تجار الكارم يتوافدون على شرقي أفريقية والحبشة منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وكان كثيرون فقهاء ومحدثين اتخذوا التجارة حرفة لهم، وعملوا جادين على نشر الإسلام وثقافته في تلك الأنحاء، بل وعلى حمل طلاب العلم الأفريقيين على مراكبهم إلى مصر ليتموا دراستهم في الجامع الأزهر[٢].

ووفد على الحبشة من حضرموت أربعة وأربعون داعياً يدعون أهلها إلى الإسلام وينشرون ثقافته بينهم في القرن الخامس عشر الميلادي، وانتشروا في بلاد الصومال. وشق أحدهم، وهو الشيخ ابراهيم أبو زرباي، طريقه إلى مدينة هرر سنة ١٤٣٠م واكتسب كثيرين من الذين تحولوا إلى الإسلام فتفقهوا فيه[٣].

وقد ذكر عرب فقيه أن علماء من الحجاز واليمن كانوا يفدون على الحبشة ينشرون الاسلام وثقافته بين الأحباش، وأنهم كانوا وراء حركات الجهاد الإسلامي يغذونها بخطبهم الحماسية ويحضون المجاهدين على القتال، ويتقدمون الصفوف في المعارك[٤].

ومن المؤكد أن علماء كثيرين قد أتوا من سائر أنحاء العالم الإسلامي على امتداد القرون فقد وفد على مملكة الفنج بسنار خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين بعض العلماء والصوفية، وعملوا على نشر

---

(١) السلوك: جـ١ ق٣ ص٩١٦.

(٢) التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، بحث للدكتور صبحي لبيب، بالمجلة التاريخية المصرية (المجلد الرابع العدد الثاني) مايو سنة ١٩٥٢ ص ١٩، ٣٩ـ٤١.

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٨٧، وانظر دور الدعاة والمعلمون (ب ٣ ف ٢).

(٤) فتوح الحبشة: صفحات متفرقة.

الإسلام وثقافته في مملكة الفنج والحبشة من هؤلاء الشيخ إدريس محمد أحمد، والشيخ حسن ولد حسونة الأندلسي، والشيخ إبراهيم بـرجال البولاقي من مصر ـ وهو أول من درس مختصر الشيخ خليل المالكي ببلاد الفنج، ونفع الله به خلقاً كثيراً ـ والشيخ محمد المصري الذي أقام بسنار، ودرس بها سائر العلوم وتولى القضاء وباشره بعفة، والشيخ تاج الدين البخاري من بغداد وعنه اشتهر طريق الصوفية ببلاد الفنج[1]. وكانت سنار مركز إشعاع ثقافي للحبشة وشرقي إفريقية، إذ كان يرحل إليها طلاب العلم من تلك الأنحاء فيتزودون بألوان الثقافة ويعودون بها لينشروها في أوطانهم.

دور الأفريقيين في نشر الثقافة الإسلامية:

ولم يقتصر بعث الحركة الثقافية في شرقي أفريقية على علماء العالم الإسلامي الذين نزحوا إليها من شتى أقطاره بل أسهم كثيرون من علمائها في ذلك بنصيب كبير، أولئك الذين تلقوا تعليمهم في الجامع الأزهر أو مسجد دمشق أو الحرمين. فقد كان العالم الإسلامي حفياً بهؤلاء ولا يزال، خصص لهم أروقة بمساجد العلم ومدارسه حيث يقيمون ويتعلمون[2].

وقد نبغ من هؤلاء كثيرون، وطاب لبعضهم المقام حيث تعلم، فقد قابل ابن بطوطة باليمن الفقيه أبا الحسن الزيلعي، وذكر أنه «من كبار الصالحين، ويقدم حجاج اليمن إذا توجهوا للحج، وأهل تلك البلاد

---

(١) محمد أبو بكر مكي: تاريخ النوبة والفنج: ص٤ (مخطوط مصور بآداب الاسكندرية رقم ٢٣١٩ب) ذي الحجة سنة ١٢٩٦هـ.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ص٩٠، والجبرتي: جـ١ ص ٣٨٩ و٣٩٢، وعابدين: ص٢٥٠ وما بعدها.

وأعرابها يعظمونه ويحترمونـه»[1] وكان من علماء عـدن في القرن التـاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) الشيخ اسماعيل الجبرتي، وظهر فيها في القرن العاشر الشيخ عمر الجبرتي[2].

وقد حظي الأزهر بالنصيب الأكبر من هؤلاء، خاصة بعد أن ورثت القاهرة بغداد في مركزها الديني ومكانتها العلمية والثقافية وبرز منهم في ميدان العلم الشيخ الإمام الزيلعي فخر الدين عثمان بن علي شارح الكنز المتوفى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م، والمحدث الزيلعي جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد المتوفى سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م، والشيخ اسماعيل الجبرتي تلميد ابن عربي المتصوف، وكان الملك الظاهر برقوق يعتقد في ولايته وصلاحه وأوصى أن يدفن تحت قدمه بالصحراء، والعارف بالله الشيخ علي الجبرتي الذي اعتقد السلطان قايتباي فيه وتوفي سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م، بل ان الجد السابع لمؤرخ مصر الكبير الجبرتي، الشيخ عبد الرحمن رحل إلى مصر لطلب العلم في أوائل القرن العاشر الهجري، وتولى مشيخة رواق الجبرتية[3].

على أن كثيراً من هؤلاء العلماء قد عادوا إلى بلادهم وشاركوا في نشر الإسلام وثقافته بنصيب كبير، وتمتعوا بنفوذ قوي وتولوا القضاء والفتيا وغيرهما من المناصب[4].

وقـد أثرت طبيعة الحياة في الإمارات والسلطنات الإسلامية فيما شاع فيها من فكر وثقافة تأثيراً كبيراً، فالإمارات والسلطنات التي قامت في

---

(١) الرحلة: ص٢٤٩.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني (مخطوط رقم ١٠٧ تاريخ بدار الكتب) حوادث ٨٦١ و٩٢٣هـ.

(٣) الجبرتي: جـ١ ص ٣٨٩ - ٣٩٢، وعابدين: المرجع السابق: ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٤) سعيد عاشور: بعض أضواء جديدة على علاقة مصر بالحبشة ص ٧-٨.

الحبشة أقحمتها الحبشة المسيحية في المعترك الصليبي منذ القرن الثالث عشر الميلادي، واضطهدت أهلها اضطهاداً شغل عليهم حياتهم كلها، مما صبغ حياتهم بطابع ديني عميق، إذ سيطر العلماء والفقهاء على حياة الناس وتحكموا فيها وكانوا القوة الدافعة لحركات الجهاد الإسلامي الذي اضطلع به أئمة سلطنة عدل منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وانطبعت الحياة الإسلامية في الحبشة بطابع ديني متزمت دفع إليه تعصب المسيحيين وتكالبهم في القضاء عليهم، فقد أشار المقريزي إلى ذلك بقوله: «وهم (المسيحيون) يتشددون في دياناتهم تشدداً زائداً، ويعادون من خالفهم منساير الملك أشد عداوة»[1].

ومما يؤكد غلبة الطابع الديني على الثقافة الإسلامية في تلك الأنحاء، ما ذكره العمري من أن مدن شرقي أفريقية - بالحبشة - «لها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات وعند أهلها محافظة على الدين إلا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا رباط ولا زاوية... وفيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء»[2]. فكلما انتشر الإسلام في مكان خف إليه العلماء والفقهاء، وأقاموا الكتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم مبادىء الدين، ولذا فإن دخول الأحباش في الإسلام قد صحبه ارتفاع بمستواهم الثقافي. وقد نقل أرنولد عن روبيل: أنه كثيراً ما شاهد أثناء تنقله بالحبشة أن الوظائف التي تتطلب خبرة خاصة ومستوى ثقافياً معيناً كان لا يشغلها إلا المسلمون إذ ان المسلمين - كما ذكر روبيل - كانوا أعلى همة وأوفر نشاطاً وأرفع مستوى، إذ التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة، بينما كان المسيحيون لا يعلمون أبناءهم إلا عندما يزمعون الانتظام في سلك الكهنوت[3].

---

(١) المقريزي: الإلمام: ص ٤.
(٢) نقلاً عن القلقشندي: جـ٥ ص٣٢٤.
(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٣٩.

وقد انتشر هذا التعليم الديني في شرقي أفريقية سواء على الساحل أم في الداخل. ويبدأ التعليم الديني في المدارس القرآنية التي انتشرت في جميع القرى والمناطق الإسلامية، إذ كان ولا زال كل شخص يأنس في نفسه الكفاءة يفتح مدرسة قرآنية في شرفة واسعة أو في حجرة في بيته أو في حوش منزله. وهو يبدأ بأطفال عشيرته فيأتيه أطفال الجيران(١).

والتعليم فريضة دينية والاشتغال به لا يعتبر وظيفة مانعة من الوظائف الأخرى، فيمتلك المدرسون تجارة يمارسونها أو زراعة يرجون تلاميذهم أن يعملوا فيها في أوقات فراغهم، وفوق ذلك يعطي آباء التلاميذ معلم أولادهم هدايا في الأعياد والمناسبات فضلاً عن كون الواحد منهم امام مقاطعة أو اقليم أو قرية(٢).

والتعليم على الساحل قد بلغ درجة كبيرة من التقدم ويشترك فيه البنون والبنات، وتنتشر المدارس بكثرة في القرى والمدن، وتعمل ثلاث فترات يومياً، أما في الداخل بين القبائل فهي قليلة، ومن الصعب التعرف عليها خلال النهار عندما يكون التلاميذ يعملون بالحقول، إذ يتلقون دروسهم في الصباح الباكر وفي المساء على ضوء النيران حيث يرتلون دروسهم في جماعات(٣).

ويؤسس التعليم الديني فيما بعد مرحلة القرآن على درجة كبيرة في نظام الأساتذة الباحثين، وكان الناس يقصدون حلقات الدروس الدينية والوعظ التي كانت تعقد في المدارس وفي بيوت المدرسين لتعليم العربية والفقه وتفسير القرآن للناس المهتمين واستطاع كثيرون منهم أن يتعلموا الفصحى ويجيدوها وألفوا بها الكتب الدينية والشرعية، لكنها كانت مؤلفات بأسلوب بسيط(٤).

(١، ٢، ٣، ٤) Trimingham: The Influence of Islam: PP. 60-62

ولقد لعبت الطرق الصوفية دوراً كبيراً في نشر الإسلام وثقافته في تلك الأنحاء، وخاصة رجال الطريقة القادرية، إذ هي أكثر الطرق ثقافة وتمدناً في هذه البلاد، ويقوم أفرادها بمهنة التعليم.

وأدى التنافس بين تلك الطرق بخاصة القادرية والصالحية إلى قيام حركة علمية ـ وخصوصاً في ساحل الصومال ـ: فألف علماؤها باللغة العربية كتباً ورسائل، ونظموا قصائد أكثرها في المسائل الصوفية. وتعتبر تلك المجموعة ـ التي جمعها الشيخ عبد الله بن يوسف، أحد أهالي شيخال، وطبعها في القاهرة ـ من أهم ما دونوه في التصوف، كما يعتبر أهم ما نظموه من القصائد العربية، ذلك الديوان الذي جمعه الشيخ قاسم ابن محيي الدين، أحد أهالي برارة، لعدة من شعراء الصومال، وقد عثر على مخطوطة في برارة تشتمل على ترجمة لهمزية البوصيري باللغة السواحلية[١]. واتخذ التعليم شكلاً قوياً في الثقافة السواحلية بسبب الاحياء الإسلامي[٢].

وظلت اللغة العربية هي اللغة الرسمية لإمارات المسلمين وسلطناتهم في شرقي أفريقية[٣]. لكن يبدو أن التعليم في تلك الأنحاء لم يكن يتجاوز هذا المستوى فلم تشهد مدارس ذات مستوى راق ـ كما ذكر العمري: «... إلا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا رباط ولا زاوية»[٤] ـ كالتي ظهرت في غربي أفريقية كتنبكت وجنى أو في مصر وغيرها من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي في القرن الخامس عشر الميلادي. ولعل سهولة رحلة طلاب العلم من تلك الأنحاء إلى مراكز العلم في العالم

---

(١) عابدين: بين الحبشة والعرب: ص٢٤٦.

(٢) Trimingham: Op. Cit; P.61

(٣) صلاح العقاد: زنجبار: ص١٣.

(٤) نقلاً عن القلقشندي: جـ٥ ص٣٢٤.

الإسلامي جعلتهم ينشدون هذا اللون من التعليم الراقي في تلك الأنحاء.

وقد كانت الحياة الثقافية في السلطنات الجنوبية أكثر ازدهاراً منها في الممالك الشمالية، إذ عاشت الأولى حياة رخاء وطمأنينة منذ نشأتها إلى أن دهمها الخطر البرتغالي، ولم تتعرض لهذا الصراع الدموي الرهيب من أجل البقاء على أيدي الحبشة المسيحية المتعصبة كالثانية، وحمل إليها المهاجرون من العرب والفرس حبهم للأدب والثقافة عموماً، فنظموا الشعر بالعربية والسواحلية، وقد ترجم الأستاذ هتشنز قطعة من الأدب السواحلي من عصر بني نبهان تعكس تذمر الناس من السياسة الضريبية التي انتهجوها في فرض الضرائب.

«وفي نيجولا زيلاند أفلح قطعتي من الأرض، وأنتج عشرين حملاً»!.

«تأخذ الدولة منها حملين!
ماذا أفعل؟ قل: ماذا أفعل؟
زوجتي تطالبني بالملابس الجديدة!
وأنا غارق في الديون إلى أذني[1]!».

ولقد تأثر شعراؤهم بالأنواع الأدبية في الشعر العربي، بل وسلك المؤلفون هناك نهج المؤلفين العرب في طريقة التأليف، فنرى صاحب السلوى في أخبار كلوة يستهل مؤلفه بمقدمة عن العقل وآدابه[2].

ويبدو أن المحنة البرتغالية وما أعقبها من تحرر قد أنتجت نهضة أدبية شاملة وصلت إلى غايتها في القرن الثامن عشر الميلادي. ونشرت الحمية

(١) W . Hichens: Islam in East Africa, Islam To-Day, P.118

(٢) انظر (J.R.A.S.) 1895, P.405

الدينية بين المسلمين هناك. ويتمثل هذا التحمس الفائق في الهمزية التي ألفها السيد عيدروس الشيخ علي من أهل لامو، إذ فيها تصوف وعمق ونزعة دينية عميقة، وانطبعت تلك الحرية في أغاني ذلك العصر وأناشيده وقصصه، وتجلت تلك النهضة في مؤلفات السيد عبد الله بن علي، بخاصة في كتاب له يسمى «الانكشاف» كان يقرأ في المدن الجنوبية بأسرها، في المساجد والمدارس. وامتدت هذه النهضة إلى الأدب السواحلي الشعبي. وظهر في هذا الميدان شاعر من أهل الجنوب يسمى مويا كابن حاج الغساني، بلغ في هذا الانتاج الأدبي درجة عظيمة من التفوق[١].

دور اللغة العربية:

عرفت اللغة العربية طريقها إلى شرقي أفريقية قبل الإسلام، لاختلاط التجار والمهاجرين العرب بالافريقيين ومصاهرتهم، فقد ذكر صاحب دليل البحر الأرتري الذي زار شرقي أفريقية، في القرن الأول الميلادي: أن الافريقيين كانوا يتطلعون إلى تعلم لغة العرب ويتكلمون بها، لما تتيحه لهم من آفاق واسعة في التبادل التجاري[٢].

ودخلت اللغة العربية في صراع مع اللغات المحلية التي يتكلمها الافريقيون كاللغة الحبشية، وهي سامية مهاجرة من شبه جزيرة العرب أصلاً، وانتشرت في الحبشة وبعض مناطق شرقي أفريقية، ومثل مجموعة اللغات الحامية كالبجوية والكوشية وتسود مساحة واسعة في شرقي أفريقية، بخاصة الصومال ومثل مجموعة لغات البانتو. ولكن اللغة العربية تغلبت على معظم تلك اللغات في المناطق التي انتشر فيها الإسلام انتشاراً واسعاً وزاد فيها اختلاط العرب بالأفريقيين[٣].

---

(١) حسن محمود: ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧ (بتصرف).

(٢) Purpulis in the Eretryan Sea, P. 26

(٣) حسن محمود: ص ٤٦ ـ ٤٨.

وساعد اللغة العربية على هذا الانتصار عدة عوامل، كما ذكر وولنر (Woolner) منها:

١ ـ **العامل الديني**: فحيثما انتشر الإسلام ورسخت قواعده انتشرت اللغة العربية وربما ساعد على ذلك ما أفتى به جمهور علماء المسلمين من عدم جواز ترجمة القرآن إلى غير العربية ووجوب القراءة بها في الصلاة، مما دفع الافريقيين إلى تعلم العربية.

٢ ـ **القرابة السامية**: إذ بين العربية وأخواتها الساميات قرابة في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية.

٣ ـ **القرابة الحامية**: فقد أجمع علماء اللغات على أن هناك قرابة بين اللغات السامية والحامية.

٤ ـ **العامل الحضاري**: فقد قرر علماء اللغة أنه إذا التقت لغتان احداهما ذات تراث حضاري متفوق وأخرى حظها قليل من ذلك التراث، خضعت الأخرى للأولى.

واللغة العربية ـ بعد الإسلام ـ أصبحت لغة دين وحضارة راقيتين، فتغلبت على غيرها. وقد اتخذ انتصارها مظاهر عدة:

تكلمتها بعض الشعوب بجوار لغتها الأصلية، مثل شعب مملكة أوفات الذين كانوا «يتكلمون العربية والحبشية»[٢]، واكتسبت اللغات الأخرى نسبة كبيرة من الألفاظ العربية زادت أو نقصت تبعاً لعمق تأثير اللغة العربية، فمثلاً تمثل الألفاظ والتعبيرات العربية من الربع إلى

---

(١) أنظر: Languages in History and Politics
وانظر: القواعد الأساسية لدراسة الفارسية للدكتور إبراهيم الشواربي ص وما بعدها (ط الرابعة).

(٢) الإلمام: ص٧.

الخمسين في اللغة السواحلية بينما تمثل ثلاثين في المائة في لغتي: التبداوي البجاوية، والصومالية[1].

ولقد حاول أهل هرر في بعض الأحيان كتابة اللغة الأمحرية بحروف عربية، كما حاولوا أن يكتبوا لغتهم الوطنية بهذه الحروف. ومن قديم والكتابة العربية شائعة الاستعمال بين القبائل الكوشية كالبجة والأجاو والجالا والساهو، ولكنها رديئة جداً. ويكتب الصوماليون لهجاتهم بالحروف العربية. وألف علماؤهم باللغة العربية كتباً ورسائل ونظموا قصائد أكثرها في التصوف. ويتميز الخط العربي الذي يكتبه السواحليون عن غيره من الخطوط العربية بشكله الخاص وصعوبة قراءته. واللغة العربية هي التجارة السائدة في جميع أنحاء البلاد، ويتكلمها كثير من سكان الساحل الشرقي لأفريقية، كما تتكلمها القبائل الشمالية بجوار لغاتها الأصلية وهي لغة مقدسة في نظر مسلمي شرقي أفريقية[2].

ويعقد المدرسون ورجال الدين جلسات علمية في المدارس وفي بيوتهم أيضاً يقصدها الناس العاديون ليتعلموا اللغة العربية والفقه والتفسير والحديث. ونبغ كثيرون في اللغة العربية الفصحى، وألفوا بها كتباً دينية وشرعية[3].

لكنه نظراً لأن الذين حملوا الإسلام إلى تلك الانحاء كانوا من عرب الخليج العربي وحضرموت، ولم يعرفوا الكثير عن حضارة الإسلام من جهة، كما أنهم كانوا قلة نسبياً من جهة أخرى ـ لم تنتصر اللغة العربية على اللغات المحلية انتصاراً تاماً، وتصبح هي لغة الحديث والتخاطب لسكان

---

(١) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية: ص٥١.

(٢) عابدين: بين الحبشة والعرب: ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ (بتصرف) وص٢٤٦.

وانظر: Trimingham: Op. Cit: P. 101

(٣) Ibid, PP. 61 — 62

شرقي أفريقية، بالرغم من أنها ظلت اللغة الرسمية لإمارات الساحل الاسلامية حتى القرن العشرين، وأنها أثرت في اللغات المحلية تأثيراً كبيراً بما استعارته تلك اللغات منها من ألفاظ وتعبيرات في شتى نواحي الثقافة والشؤون الدينية والسياسية والتجارية والفنية والمجردة، بل ان علوم تلك اللغات وآدابها تأثرت بعلوم العربية وآدابها، وظلت بعض تلك اللغات - كالسواحلية - تكتب بحروف عربية حتى القرن العشرين[1].

قال أرنولد:

«وبلغت اللغة العربية، وهي اللغة التي تكتب بها دائمًا الكتب الدينية الإسلامية حداً يفوق كل وصف من الغنى والجمال. وإذا ما تعلموا (الأفريقيون) هذه اللغة أصبحت لغة التخاطب بين أهالي نصف القارة، وتستخدم كمقدمة لدراسة الأدب، بل هي أدب في ذاتها، وهي إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوبة حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية، وهذا يعتبر - في حد ذاته - تقدماً هائلاً في الحضارة»[2].

وهكذا تمثل الافريقيون المسلمون - كما رأينا - حضارة الإسلام عقيدة وشعائر وأخلاق وأنظمة غيرت حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية بعامة.

لكن أمم الغرب المسيحية ناهضت الإسلام واضطهدت المسلمين، وعملت بكل الوسائل على تقويض تلك الحضارة الإسلامية وضم تلك الخراف الضالة - كما يزعمون - إلى حظيرة المسيحية. وهو ما سأعرض له في الباب السادس والأخير.

---

(١) Trimingham: Op. Cit. P.101

(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص٣٩٨.



البَابُ السَّادِس

مُناهضة أمم الغرب المسيحيَّة للإسْلام

وفيه فصلان

الفصل الأول

جهود أمم الغرب المسيحية ضد مسلمي شرقي أفريقية

الفصل الثاني

جهود أمم الغرب المسيحية في محاربة الإسلام



الفصل الأول

جهود أمم الغرب المسيحيّة ضد مسلمي شرقي أفريقية



تمهيد:

بذلت أمم الغرب المسيحية جهوداً متواصلة لاستعمار بلاد المسلمين ونهب ثرواتهم وتأخيرهم وتحويلهم إلى المسيحية، أو إبادتهم إذا أمكن، وذلك منذ ميلاد الدولة الإسلامية حتى الآن. بدأتها الدولة البيزنطية واستمر فيها الصليبيون ومن بعدهم المستعمرون حتى الآن.

وبالنسبة لجهود أمم الغرب ضد مسلمي شرقي أفريقية فقد مرت تلك الجهود بمرحلتين: سأقتصر على ابراز أحداثهما الهامة التي تمثل اتجاه أمم الغرب تجاه المسلمين:

الأولى: شغلت فيها أمم الغرب المسيحية بالصراع مع المسلمين في الشرق الأوسط الإسلامي، ولم تسمح لها ظروفها إذ ذاك بالصراع مع مسلمي شرقي أفريقية، فأثارت الحبشة المسيحية، وحرضتها لتقوم بتلك المهمة ضد المسلمين. وأخذت ترسل إليها البعثات لتحرضها ولتعقد تحالفاً معها. وتمتد تلك المرحلة منذ فجر الدعوة الإسلامية حتى نجح البرتغاليون في ضرب مسلمي شرقي أفريقية في مقدشو بالمدافع سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٨م، ونهبوا سفن المسلمين في المحيط الهندي وأحرقوها بمن فيها من المسلمين.

الثانية: استعمر فيها البرتغاليون ثم الانجليز والألمان والفـرنسيون والايطاليون شرقي أفريقية وحاربوا المسلمين حرباً لا هوادة فيها ونهبوا ثرواتهم وأذلوهم وأخروهم وحاولـوا تحويلهم إلى المسيحيـة. وتمتد تلك المرحلة من نهاية الأولى حتى الآن.

المرحلة الأولى

كانت حكومة الحبشة المسيحية على صلة بالامبراطورية البيزنطية منذ دخلتها المسيحية في القرن الرابع الميلادي، وكانت تلك الامبرطورية تعتبر نفسها حامية المسيحية ومنوطة برسالة نشرها في كل مكان، ولذا كلفت دولة الحبشة أن تثأر لمسيحيي نجران من ذي نواس اليهودي أمير اليمن الذي أبادهم[1].

ولما ظهر الإسلام دخلت تلك الامبراطورية في صراع رهيب مع أتباعه للقضاء عليهم وعليه، إلا أن الدولة الإسلامية الناشئة استطاعت ـ في عهد عمر رضي الله عنه ـ أن تنتصر عليها وأن تفتح من أملاكها الشام ومصر، فاستنجدت بيزنطة بحكومة الحبشة المسيحية وحرضتها أن تضرب الدولة الإسلامية في الحجاز، فسلب الأحباش متاجر المسلمين في البحر الأحمر وتطرفوا طرفاً من بلاد المسلمين سنة ٢٠ أو ٣١ هـ (٦٤١ أو ٦٥٢م)، مما جعل عمر يرسل حملة بحرية لتأديبهم بقيادة علقمة بن مجزز المدلجي لكنها لم توفق[2].

واستطاع الأسطول الإسلامي ـ في عهد معاوية ـ أن يحاصر

(١) ابن هشام: جـ١ ص٢٤.
(٢) الطبري: جـ٤ ص١١٢، وابن الأثير: جـ٢ ص٣٩٨.

القسطنطينية سبع سنين وأن يفتح جزر البحر الأبيض، فاستغل الروم فرصة الفتن الداخلية التي أصابت الدولة الإسلامية بعد موت معاوية واستمرت معظم حكم عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٣ - ٧٠٥م)، وهاجموا ثغور المسلمين واستولوا على بعضها، بل هاجموا ساحل سوريا وهدموا بعض مدنه مثل عسقلان وعكا وصور[١]، وحرضوا دولة الحبشة حليفتهم أن تهجم على الحجاز وأن تستولي على الحرمين، فهجم الأحباش على ميناء جدة واستباحوها مما أدخل الرعب في قلوب سكان مكة، وذلك سنة ٨٣هـ (٧٠٢م)، إلا أن عبد الملك بن مروان أرسل جيشاً احتل أرخبيل الدهلك المواجه لمصوع في نفس السنة[٢].

وبالرغم من احتلال المسلمين أرخبيل الدهلك هاجم الأحباش ميناء جدة عدة مرات، منها هجومهم عليها سنة ١٥٣هـ/ ٧٧٠م، ذلك الهجوم الذي جعل الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور يرسل جيشاً لتفريق شملهم في نفس السنة[٣].

ثم شغلت الحبشة بمشاكلها الداخلية وازداد عدد المتحولين إلى الإسلام بالمدن الحبشية الساحلية، وانتشر الإسلام بين القبائل الداخلية وتكونت إمارات اسلامية بالحبشة كإمارة شوة الإسلامية في قلب الهضبة منذ سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م. إلا أن الكنيستين البيزنطية والمرقسية بالاسكندرية عملتا على تحويل الوثنيين إلى المسيحية والوقوف في وجه الإسلام، وقام الأب دانيال (Daniel) بجهود كبيرة في هذا السبيل[٤].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان: ص١٨٩ و٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) الطبري: جـ٧ ص٥٠٩. Trimingham: Islam in Ethiopia, PP. 46-47

(٣) القنائي: الجواهر الحسان: ص١٥.

(٤) فتحي غيث: الإسلام والحبشة: ص٦٢، وسعيد عاشور: بعض أضواء جديدة على علاقة مصر بالحبشة ص ٩ - ١١.

وعمل أقباط مصر - الذين فروا من وجه الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١هـ/٩٩٦ - ١٠٢٠م) - على تنمية موارد دولة الحبشة الاقتصادية وترقية نظمها السياسية والحربية[١]، فاضطهدت المسلمين هناك وأجبرتهم على دفع الإتاوات مما دفع بدر الجمالي وزير المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/١٠٣٥ - ١٠٩٤م) أن يتدخل في اختيار أسقف معين بالحبشة ويشترط عليه رعاية جانب المسلمين والسماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية وبناء مساجد لهم. ولما نفذ الأسقف ذلك ثار عليه المسيحيون الأحباش وأمر الملك الحبشي بسجنه وهدم المساجد السبعة التي بناها، وفرض عدة قيود على التجار المسلمين في ممارسة مهنتهم، مما تسبب في قطع العلاقات بين مصر والحبشة. ونازلت دولة الحبشة المسلمين فيها وأجبرتهم على دفع الإتاوة[٢].

وما أن أعلنت دولة بيزنطة عن عجزها عن حماية نفسها فضلاً عن حماية المسيحية على أثر هزيمتها في موقعة (ملاذكرد) سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م على يد ألب أرسلان السلجوقي، حتى جمعت البابوية جحافل الصليبيين من أمم الغرب المسيحية، واستعمرت أربع إمارات صليبية في قلب الشرق الأوسط الإسلامي في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)[٣]، وحرضت الحبشة على مهاجمة العالم الإسلامي من الخلف، فأرسل القديس (يوحنس: يوحنا) ملك الحبشة إلى الامبراطور البيزنطي كومنيوس (Comenuis) سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م رسالة قال فيها: إن لدي اثنين وسبعين ملكاً يأتمرون بأمري، وانني أذهب إلى الحرب ومعي ثلاثة عشر صليباً من الذهب، كل صليب منها على رأس عشرة آلاف فارس ومائة

---

(١) عابدين: ص١٦٧ والإسلام والحبشة: ص٦٦.

(٢) Op. Cit; PP. 62 — 65.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية: صفحات متفرقة، Runsman: Crusades, Passim.

ألف من المشاة، وان كل أمنيتي أن استخدم هذه الجيوش في قتال أعداء الصليب، وان أمكن المسيحيين من الحج إلى بيت المقدس[١].

وتبادل البابا الكسندر الثالث مع النجاشي رسائل سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م، قصد منها أن تساهم الحبشة في القضاء على الإسلام والمسلمين[٢]. وقد ذكر كولمبو أنه «لم يفت الصليبيون كذلك أن يتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في حرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة سنة ١٢١٨م»[٣].

ولما اعتلى (يكونو أملاك) - مؤسس الأسرة السليمانية - عرش الحبشة (٦٦٨ - ٦٨٤هـ/ ١٢٧٠ - ١٢٨٥م) أرسل هدايا الزراف إلى الأمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس (٦٥٩ - ٦٨١هـ/١٢٦١ - ١٢٨٢م)، ووحد الحبشة تحت سلطانه وأقطع كنيستها ثلث أملاك الدولة وعمل على إدخال الوثنيين في المسيحية، واضطهد المسلمين ونكل بهم ودخل مع الممالك الإسلامية المجاورة في حروب عنيفة وفرض عليها إتاواته[٤]. وقد ذكر محيي الدين بن عبد الظاهر[٥] «أن ملك الحبشة الكافر (وكان معاصراً له) قتل ملوك الحبشة المسلمين واستولى على بلادهم»، مما جعل الظاهر بيبرس يرسل سفارة إلى الحبشة لتقصي الحقائق، ولما تأكد له ذلك رفض طلب يكونو أملاك تعيين مطران مصري للحبشة[٦]. وأرسل يجبأ صيون

---

(١) زاهر رياض: العصر الأول من الأسرة السليمانية في الحبشة من يكونو أملاك إلى زرء يعقوب وعلاقة المسلمين بالمسحيين بوجه خاص (رسالة دكتوراه بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ١٢٩) ص٢٢ وعابدين: ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٢) أحمد دراج: المماليك والفرنج: ص ٩ - ١٢. Budge: A History of Ethiopia, Vol; 1., P. 311.

(٣) نقلاً عن سعيد عاشور: الحركة الصليبية: جـ٢ ص٩٦٥.

(٤) Op. Cit; Vol; 1, P.285.

(٥) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور: ص ١١٧ - ١١٨.

(٦) القلقشندي: جـ٨ ص٤١.

(٦٨٤ - ٦٩٣هـ/١٢٨٥ - ١٢٩٤م) مبعوثاً دينياً إلى القدس، وشن حملة حربية على إمارة عدل الإسلامية[١]، ثم أرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاوون في شهر رمضان سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، قال فيها: إنني لست كوالدي «وإنني أحفظ جميع المسلمين في مملكتي...»، «وان المطران السرياني الذي أحضره والدي أتلف البلاد في زمان والدي، وهو من أعداء المسلمين»[٢]. ثم أرسل البابا نيقولاي الثاني إلى يجبأصيون خطاباً سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، مع جان دومنيكو، يغريه بالتحول إلى كنيسة روما، حتى لا يكون لمصر تأثير ما على الحبشة في اضطهاد المسلمين فيها باحتياجها إلى مطران مصري[٣]. ثم حدثت مراسلات بين البابا وملك الحبشة سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م[٤]، جعلت الأخير ينزل بالمسلمين ألوان العسف والاضطهاد، ثم أرسل البابا نيقولا الرابع راهباً دومينكانياً يدعى وليم آدم، سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٥م، طاف بفارس وعدن وشرقي أفريقية والحبشة ثم عاد إلى أوروبا سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م. ثم أرسل البابا يوحنا الثاني والعشرون سفارة من الآباء الدومينكان إلى الحبشة سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م. لكن رجالها وقعوا في قبضة المماليك في مصر. ثم أرسل ملك فرنسا سفارة أخرى من الرهبان الدومينكان إلى الحبشة سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٨م، فوقعت في قبضة المماليك أيضاً[٥].

وإذا كانت بعض تلك السفارات الأوروبية التي أوفدت للحبشة قد وقعت في قبضة المماليك، فلا بد أن بعضها قد وصل إلى الحبشة وعقد اتفاقاً مع الأحباش ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزي[٦] في حوادث سنة

---

(١) Trimingham: Op. Cit. P.70.

(٢) تشريف الأيام والعصور: ص١٧٠.

(٣) زاهر رياض: المرجع السابق: ص٢٢.

(٤) Budge: Op. Cit. P.311.

(٥) سعيد عاشور: بعض أضواء على علاقة مصر بالحبشة: ص ٢٩ - ٣٠.

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك: جـ٢ ق١ ص٢٧٠ وحاشية (٢) (تحقيق د. مصطفى زيادة).

(٧٢٦هـ/١٣٢٦م) من أن ملك الحبشة قد أرسل رسلاً إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يهدده بأنه «سيخرب ما عنده من مساجد المسلمين، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر»، وذكر في حوادث سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م) خبر وصول رسول آخر لنفس الغرض من قبل ملك الحبشة(١).

ولقد تطرف (جبرة مصقل، عمدة صيون ٧١٢-٧٤٣هـ/١٣١٢-١٣٤٢م) في اضطهاد مسلمي الحبشة وشن ضدهم حروباً كثيرة، دمر فيها مدنهم ومساجدهم وسبى حريمهم وقتل ملك أوفات حق الدين، والإمام صالح ابن أحد أشراف مكة، وأخضع ممالك المسلمين لسلطانه(٢).

ويصف ابن فضل الله العمري - وقد استقى معلوماته من الفقيه عبد الله الزيلعي - تسلط النجاشي على ممالك المسلمين واضطهاده لهم بقوله: «وجميع ملوك هذه الممالك وإن توارثوها، لا يستقل منهم بملك إلا من أقامه سلطان أمحرا (الحبشة)... وهذه الممالك السبع ضعيفة البناء قليلة الغناء لضعف تركيب أهلها وقلة محصول بلادهم وتسلط الحطي (النجاشي) سلطان أمحرا عليهم مع ما بينهم من عداوة الدين ومباينة ما بين النصارى والمسلمين... وهم على ما هم عليه من الذلة والمسكنة للحطي سلطان أمحرا عليهم قطائع مقررة، تحمل إليه في كل سنة من القماش الحرير والكتان، مما يجلب إليهم من مصر واليمن والعراق»(٣).

وقد دفع المسلمين ما حل بهم من اضطهاد المسيحيين لهم أن يرسلوا الفقيه عبد الله الزيلعي إلى سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون،

---

(١) السلوك: جـ٢ ق٢ ص: ٤١٠ وحاشيته (٥).

(٢) Budge: Vol. 1, P. 288 and Trimingham, P. 72.

(٣) نقلاً عن القلقشندي: جـ٥ ص ٣٣٢-٣٣٣.

ليتدخل لدى ملك الحبشة بأن يكف أذيته عمن في بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم[١].

وزاد سيف أرعد (٧٤٤ هـ - ٧٧٩ هـ / ١٣٤٤ - ١٣٧٧ م) في اضطهاد المسلمين والتنكيل بهم، حتى كان بينه وبين حق الدين حاكم أوقات الإسلامية بضع وعشرون معركة انتهت بقتل حق الدين والاستيلاء على البلاد، وقد ذكر المقريزي[٢] في حوادث سنة (٧٥٣هـ/١٣٥٢م) أن ملك الحبشة: «خرج بعساكره ليقتل الزيلع عن آخرهم»، واتخذ تدابير لإعدام كل من يمتنع من المسلمين عن الدخول في المسيحية[٣]. وخرج على رأس جيش جرار ليهاجم مصر من الجنوب في الوقت الذي يهاجم فيه بطرس لوزجفان مصر من الشمال (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) كما ذكر لابروكيير[٤]. واعتقل التجار المصريين في مملكته قاتلاً البعض ومجبراً الباقين على اعتناق المسيحية، وأرسل فرقة من جيشه لاعتراض طريق التجار القادمين من مصر إلى الحبشة[٥]. وأرسل خلفه جيش الحبشة فأغار على أسوان سنة (٧٨٣هـ/١٣٨١م)، فتوسط بطريك الاسكندرية في رد الأحباش وكف أذاهم[٦].

وقد وصف القلقشندي[٧] أحوال ممالك المسلمين بالحبشة بقوله: «وقد أتى الحطي ملك الحبشة النصارى على معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة وخربها وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف، وأكره الكثير منهم على الدخول في دين النصرانية. ولم يبق من ملوكها سوى ابن مسمار

---

(١) القلقشندي: جـ٥ ص ٣٣٣.
(٢) السلوك: جـ٢ ق ٣ ص٨٦١.
(٣) أرنولد: ص ١٣٥ - ١٣٦.
(٤) نقلاً عن سعيد عاشور: بعض أضواء جديدة: ص٣١.
(٥) عبد المجيد عابدين: ص١٧٧، Op. Cit. P.73
(٦) عابدين ص١٧٧.
(٧) صبح الأعشى: جـ٥ ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

المقابلة بلاده لجزيرة دهلك تحت طاعة الحطي ملك الحبشة وله عليه اتاوة مقررة، والسلطان سعد الدين صاحب زيلع وما معها وهو عاص له خارج عن طاعته بينه وبينه الحروب لا تنقطع».

وقد أعد الحطي جيشاً جراراً للقضاء على مسلمي الحبشة «فلقيه سعد الدين بنفسه ومعه الفقهاء والفقراء والفلاحون وجميع أهل البلاد وقد تحالفوا جميعاً على الموت. فكانت بينهم وقعة شنيعة استشهد فيها من المشايخ الصلحاء أربعمائة شيخ كل شيخ منهم له عكاز وتحت يده من الفقراء المساكين عدد عظيم، فاستمر القتل في المسلمين حتى هلك أكثرهم، وانكسر من بقي، وفر سعد الدين على وجهه... حتى التجأ إلى جزيرة زيلع... فطعنوه فمات في سنة خمس وثمانمائة (١٤٠٢م). ولما قتل سعد الدين ضعف المسلمون بموته واستولى الحطي وأمحرة على البلاد وسكنوها وبنوا بها الكنائس وخربوا المساجد وأوقعوا بالمسلمين وقائع نزل بهم فيها من القتل والأسر والسبي والاسترقاق ما لا يمكن التعبير عنه مدة عشرين سنة»[1].

ولما تولى يسحاق الأول (٨١٧-٨٣٢هـ/١٤١٤ - ١٤٢٩م) قدم عليه بعض المصريين المسيحيين فنظموا دولته ودربوا جيشه تدريباً حديثاً، فأوقع بمن تحت يده من المسلمين وقائع عنيفة قتل فيها وسبى الكثيرين حتى زالت دولتهم، ثم كتب إلى ملوك الافرنج يحثهم على ملاقاته لإزالة دولة الإسلام، وأرسل خطابه مع تاجر فارسي شيعي يدعى نور الدين علي ابن محمد التبريزي سنة (٨٣١هـ/١٤٢٨م) ووافق ملوك أوروبا وبدأوا يستعدون لذلك إلا أن التبريزي قبض عليه عند عودته في مصر[2].

---

(١) المقريزي: الإلمام: ص ١٣ - ١٤، وذكر Trimingham أن سعد الدين قتل سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٥م ص٧٤.

(٢) الإلمام: ص ٤ - ٥، وعابدين: ص ١٨٢ - ١٨٣.

وشن زرء يعقوب (٨٣٧ ـ ٨٧١هـ/١٤٣٤ ـ ١٤٦٨م) على مسلمي الحبشة حروباً طاحنة قتل فيها كثيرين منهم وأجبر الباقين على دفع الإتاوة وقتل ملكهم شهاب الدين أحمد بن بدلاي، وأجبر مسلمي هدية أن يصطفوا له بنتاً مسلمة لجمالها ونسبها ينصرها لنفسه كل عام، فقد قال أهل هدية للإمام أحمد بن إبراهيم (٩١٢ـ٩٥٠هـ / ١٥٠٦ـ١٥٤٣م) ـ فيما بعد ـ: «قد حكم على آبائنا المتقدمين وكان أقوى منهم، وحكم علينا ألا نلبس عدة الحرب ولا نمسك السيف، ولا نركب خيولنا بالسروج إلا على ظهورها، وحكم علينا أن نعطيه البنت، ونعطيه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا. وإذا أرسل إلينا الذي يتقبل البنت والمال أخرجنا له البنت على السرير ونكفنها بثوب ونصلي عليها ونحسب أنها ميتة. ونعطيها له فإنا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك»[1].

ووافق زرء يعقوب على ربط كنيسة الحبشة بكنيسة روما في نظير مساعدة البابا روحياً ومساعدة الدول الأوروبية مادياً وعسكرياً، ووافق بطريك الاسكندرية على ذلك، كما أرسل راهبين من الدير الحبشي لحضور مجمع فلورنسة الديني الذي عقد برئاسة البابا ايوجين الرابع (Eugene IV) من (٨٤٣ ـ ٨٤٩هـ/١٤٣٩ ـ ١٤٤٥م) لجمع المسيحيين وتوحيد صفوفهم ضد المسلمين ووضع خطة مشتركة يتعاون فيها الغرب المسيحي مع دولة الحبشة روحياً وعسكرياً واقتصادياً لمحاربة المسلمين[2]، ومن ثم أرسل زرء يعقوب خطاباً إلى السلطان الظاهر جقمق سلطان مصر (٨٤١ ـ ٨٥٧هـ/١٤٣٨ ـ ١٤٥٣م) يتسم أسلوبه بالتهديد والانذار سنة (٨٤٧هـ/١٤٤٣م) جاء فيه: «ليس يخفى عليكم ما في بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا، ونحن لهم ولملوكهم مالكون. وليس يخفى عليكم

---

(١) عرب فقيه: فتوح الحبشة: ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) Budge: Vol, 1, P.311, 319-320 and Trimingham, P.76.

ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا، ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التي تروي بها بلادكم... ولم يبق لكم عذر تبدونه»[1]. وعندما أرسل إليه السطان جقمق يحيى بن أحمد حاملاً هدايا السلطان، منعه زرء يعقوب عن العودة لمصر، وقتل سلطان عدل شهاب الدين وأراه جثته ليكون ذلك أنكى، مما دفع جقمق إلى استدعاء البطريك وضربه، وأمره أن يكتب لملك الحبشة، فأطلق سراح يحيى بن أحمد بعد أربع سنوات[2].

ولم يقتصر زرء يعقوب على اضطهاد مسلمي الحبشة، بل هَمّ بالسيطرة على الحجاز وهدم الحرمين، فأعد أسطولاً ضخماً من مائتي سفينة لهذا الغرض[3].

ولم تنقطع سفارات ملوك الغرب المسيحيين عن ملك الحبشة يحرضونه على تنفيذ المخطط الصليبي ضد الإسلام والمسلمين في كل مكان، فقد أرسل ألفونس ملك أرغونة خطاباً إلى النجاشي (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) يحرضه على الاشتراك معه في ضرب مصر والقضاء على الإسلام[4].

واستمر خلفاء زرء يعقوب في اضطهاد المسلمين والتنكيل بهم، فقضى بئيد ماريام (٨٧٢ ـ ٨٨٣هـ/١٤٦٨ ـ ١٤٧٨م) معظم حكمه في محاربة المسلمين والتنكيل بهم وأخضعهم لسلطانه[5].

واتبع ابنه وخليفته اسكندر (٨٨٣ ـ ٨٩٧ هـ / ١٤٧٨ ـ

---

(١) السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك: ص٧٠.

(٢) نفس المصدر: ص ٧١ ـ ٧٢.

(٣) سعيد عاشور: المرجع السابق: ص٤٠.

(٤) Trimingham: Op. Cit, p. 76.

(٥) عابدين: المرجع السابق: ص ١٨٥، وأرنولد: ص١٣٦.

١٤٩٢م) سياسة والده، بل بالغ في تدمير المساجد ومنازل المسلمين واستمر في فرض الإتاوة عليهم. واستبقى كوفيلهام رسول جون الثاني ملك البرتغال إليه ليعمل مستشاراً له[١].

ولم يقتصر ناؤود - أخو اسكندر - (٨٩٩ - ٩١٤هـ/١٤٩٤ - ١٥٠٨م) على مجرد اتباع سياسة أسلافه تجاه المسلمين، بل هزم جيش بالى الإسلامية، وأرغم قائدها على التنصر[٢].

وإذا كانت دول الغرب المسيحية عاجزة - فيما مضى - عن المشاركة الفعلية لمسيحيي الحبشة في مناهضة الإسلام واضطهاد المسلمين، فقد استطاع البرتغاليون أن يدوروا حول أفريقية، وأن يضربوا العالم الإسلامي من الخلف منذ سنة ٩٠٣هـ/ سنة ١٤٩٨م، وأن يتعاونوا مع الأحباش المسيحيين في تنفيذ المخطط الصليبي. ولم يكن البرتغاليون وحدهم، بل كان معهم متطوعون من جميع دول الغرب المسيحية وهم الفرسان الذين انضموا لجماعة رهبان المسيح التي بات هنري الملاح استاذها الأعظم[٣].

وهكذا تأتي المرحلة الثانية من مراحل مناهضة أمم الغرب المسيحية للمسلمين في شرقي أفريقية.

---

(١) Budge: Op. Cit. Vol.1, PP. 320-8

(٢) عرب فقيه: ص٢٨، ٢٧٥ - ٢٧٦، Budge: Loc; Cit.

(٣) دراج: المماليك والفرنج: ص ٩ - ١١، وبانيكار: آسيا والسيطرة الغربية، ص ٢٤ - ٣٠ (ط دار المعارف سنة ١٩٦٢م) وزاهر رياض: استعمار أفريقية ص ١٨ - ١٩ (ط الدار القومية سنة ١٩٦٥ م).

المرحلة الثانية

استعمار البرتغاليين ثم الانجليز والفرنسيين والطليان والألمان شرقي أفريقية وتنفيذ المخطط الصليبي ضد مسلميها.

ترك المسلمون - بعد فتحهم الأندلس - مسيحيي القوط في شمال غربي شبه الجزيرة المسمى (جليقية Glacia) حيث أخذوا يربون أبناءهم على الفروسية والحماس الديني للقضاء على الإسلام وإبادة المسلمين. وقد حمل ملوك البرتغال عن آبائهم وسام «Aviz» الديني الذي أنشأه الملك بدرو (Pedro) سنة ٥٧٦هـ/١١٨١م[1]، ليُمنح لكل من يبلي بلاء حسنا في الدفاع عن المدن المسيحية والقضاء على المسلمين. ثم تأسست بالبرتغال جماعة رهبان المسيح سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م. عقب حل جماعة الفرسان الداوية الذين التجأ كثيرون منهم إلى ملك البرتغال فبسط عليهم حمايته[2]، وهم فئة السيف التي ألفها بطرس الأول من الفرسان المسيحيين الشبان لتخليص الأراضي المقدسة والقضاء على المسلمين، وانضم إليهم فرسان الأمم المسيحية مثل فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ولومباردي وألمانيا وانجلترا وسردينية.

---

(١) زاهر رياض: استعمار افريقية: ص١٨.

(٢) المرجع السابق: ص١٩.

وازدادت الحمية الدينية عند الصليبيين خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين): بخاصة مسيحيي الأندلس الذين كانوا في حروب مستمرة حينذاك مع المسلمين في الأندلس، تؤيدهم الأمم المسيحية بالمال والسلاح. وأصبح المسيحي المخلص لدينه المتفاني في حب وطنه اسبانياً كان أو برتغالياً يعد قتال المسلمين وإفناءهم واجباً دينياً وضرورة وطنية، لأن الإسلام هو عدوه اللدود الذي لا بد من قتاله في كل مكان[1].

وقد تجمعت هذه العوامل كلها في شخصية الأمير هنري الملاح (٧٩٦ ـ ٨٦٤هـ/ ١٣٩٤ ـ ١٤٦٠م) فقد غُزِّيَ منذ طفولته بتصوف ديني مسيحي عسكري يخالطه بغض مرير للمسلمين والإسلام، ولذلك جرد حملة بحرية وهو لا يزال حدثاً بأسطول مكون من ١٤٢ سفينة على «سبته» ـ المدينة التي دخل منها الإسلام إلى الأندلس ـ فأخذها عنوة في ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، ثم جرد حملة أخرى على طنجة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٧م. ولقد وضع هنري خطة استراتيجية كبرى لتطويق جناح الإسلام وليحمل العالم المسيحي رأساً إلى المحيط الهندي فاستخدم الموارد الضخمة التي تملكها جماعة رهبان المسيح حيث أصبح أستاذها الأعظم، فجمع حوله في قلعته على رأس «ساجرس» طائفة من الرياضيين ورسامي الخرائط والفلكيين، بل حتى من أسرى المغاربة الذين لهم علم بالجزر البعيدة، وأخذ يجمع ويدرب كل ذي روح مغامرة ممن تهيأت أفئدتهم لغزو البحار بروح الحروب الصليبية[2].

وفي عام ٨٥٨هـ/١٤٥٤م تلقى هنري من البابا «نيقولاس الخامس» تفويضاً بأحقيته في امتلاك ما يكتشفه حتى بلاد الهند، وسوف أقتبس من التفويض ما يحدد اتجاه تلك الحملات وغرضها:

---

(١) بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية: ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) بانيكار: ص ٢٥ ـ ٢٧، وزاهر رياض: استعمار أفريقية ص ١٨ ـ ١٩.

«إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال، إذ يترسم خطى والده العظيم الذكرى الملك يوحنا وإذ تلهمه الغيرة التي تملأ الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح. قد دفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة... فإذا تم على يديه اختراق المحيط ملاحة حتى بلاد الهند التي يقال إنها خاضعة آنفاً للمسيح وإن هو توصل إلى إنشاء العلاقات بينه وبين هؤلاء الناس فانه سيتمكن من حملهم على النهضة لبذل العون لمسيحيي الغرب على أعداء الدين. وسيستطيع في الحين نفسه أن يدخل في الطاعة والخضوع بإذن من الملك جميع الوثنيين الذين لم تمسهم حتى الآن يد الإسلام ويدخل اسم المسيح في نطاق علمهم...

إلى أن يقول: إننا برسائلنا الرسولية، قد منحنا الملك ألفونسو الحق الكامل المطلق في غزو وفتح وقهر جميع الأقطار الواقعة تحت حكم أعداء المسيح مسلمين كانوا أو وثنيين»[1].

ثم أصدر البابا (كاليكتوس الثالث Calixtus) مرسوماً بابوياً ثانياً ٨٦٠هـ/١٤٥٧م، يؤكد المرسوم السابق[2]. وقد كان لهذين المرسومين أكبر الأثر في صبغ حملات البرتغال بصبغة صليبية صارخة استمرت زهاء مائة عام تالية. وأرسل ملك البرتغال (جون الثاني) بدرودي كوفيلهام[*]

(١) نقلاً عن بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية: ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) نفس المكان.

(*) ذكر سبنسر ترمنجهام في المرجع السابق ص٨٣، وكذلك د. زاهر رياض في معظم كتبه: أن دول الغرب المسيحية لم تكن تعرف ـ قبل إرسال كوفيلهام إلى الحبشة ـ عن تلك الدولة أي شيء، بل لم تكن تعرف مكانها من قارة أفريقية مع أنهما قد ذكرا أنه كان للاحباش دير بالقدس قبل القرن ١١م، وأنه قد حدثت مراسلات بين الدول المسيحية الغربية والحبشة.

إلى الحبشة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م، ليحالف ملكها في القضاء على الإسلام[١]. وكوفيلهام هذا هو الذي أشار على هيلانة (امبراطورة الحبشة) أن تستنجد بالبرتغال ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، ومن ثم عمل ملك البرتغال (عمانويل) على ضم البلاد المستكشفة إلى ممتلكاته، ليقضي على المسلمين وعلى تجارتهم، وينشر المسيحية في تلك الأنحاء، ولذا كان يرسل الحملة تلو الحملة، وأعطى قائده العام في المحيط الهندي حرية العمل من أجل تحقيق ذلك الغرض[٢].

وكانت سفينة القائد الربان (دي غاما) ترفع على ساريتها علمًا رسم عليه صليب كبير للمسيح، كما كانت تحمل المدافع، وهما الرمزان اللذان اتخذتها القوة الجديدة الزاحفة على الشرق الإسلامي[٣].

وبعد جهود متواصلة، طاف دي غاما برأس الرجاء الصالح ٩٠٣هـ/١٤٩٨م وسار بحذاء ساحل أفريقية الشرقي حتى وصل كلوة الإسلامية، فعرض على ابراهيم صاحبها جزية من الذهب، ثم سار شمالاً يقطع الطريق على أية سفينة إسلامية يلتقي بها ويدمرها تدميراً، فلقد روى (لنداس) أن سفن البرتغال التقت ببعض السفن العائدة من مكة فألقى القبض عليها، وكان يعمل - بعد تفريغ ما بها من بضائع - على حبس المسلمين فيها ثم يصدر الأوامر باشعال النار فيها[٤].. والتقى دي غاما بسفينة كبيرة من سفن سلطان مصر محملة بالأفاوية والأطعمة الطيبة، وبها قوم يقصدون مكة لأداء فريضة الحج، فأمر سفنه بمهاجمتها، وبعد أن نهب ما كان بها وذبح كل ركابها إلا عشرين طفلاً، أمر بإغراقها[٥].

---

(١) Trimingham: Islam in Ethiopia, P.83.

(٢) جيان: الوثائق: ص ٢١٣ - ٢١٤، ٢٤٣، وبانيكار: ص٣٠.

(٣) بانيكار: المرجع السابق: ص٥٩.

(٤) نقلاً عن بانيكار: المرجع السابق: ص٤٠.

(٥) جيان: المرجع السابق: ص ٢١٣ - ٢١٥.

ووضح من كل ذلك أن الغرض من حضور دي غاما إلى بحر الهند كما قال جيان: «أن يحارب الصليب الهلال في أقصى بقاع المعمورة أو أن تحارب روما مكة في مكان يبعد بأكثر من ألف وخمسمائة فرسخ من الميادين المألوفة لاقتتالهما وبالجملة فقد كان الغرض من تلك التجريدات السابقة المتتابعة أن ترسل جنودها إلى ما وراء القارة الافريقية، لتحيط بالإسلام، ولتجعله بين نارين، ولتجفف ينابيع ثروته، وتقضي على صروح عظمته وشوكته»[١]، ولذلك، عندما أرسل الغوري - سلطان مصر - إلى البابا ليكف البرتغاليون عن حرب المسلمين في الحبشة، أكد عمانويل ملك البرتغال للبابا أنه سوف يجعل مكة هدفاً لمدافعه وجنوده[٢]. وعزم «البوكيرك» على إغراء ملك الحبشة ليحول النيل عن مجراه إلى البحر الأحمر، وعقد النية على أن يهاجم مكة بجيش من الفرسان - لظنه أنه باستيلائه على هذا الحرم المقدس يخضع الإسلام كله - غير أن الوسائط لم تكن متوافرة لديه[٣]. وصرح (لوب سواريز) خلفه: أنه في حاجة إلى معاونة ملك الحبشة ليستولي على مكة، وليقضي على دولة المماليك، وأرسل فرانسيسكو الفاريز لهذا الغرض[٤]. وبات البرتغاليون يأسرون حجاج المسلمين في البحر الأحمر[٥].

وبعد أن أقامت السفن البرتغالية، بقيادة دي غاما، في بحار الهند زمناً، عادت إلى شرقي أفريقية من الشمال إلى الجنوب، وأطلقت المدافع على مقدشو، وهدمت عدداً كبيراً من المنازل، وأغرقت بعض السفن

---

(١) جيان: المرجع سابق: ص٢٥٠.

(٢) Budge: A History of Ethiopia, Vol. 1, P. 180.

(٣) جيان: المرجع السابق: ص٢٥٩.

(٤) Budge: Op. Cit; Vol; 1. P.180.

(٥) جيان: المرجع السابق: ص٢٢١.

الإسلامية، ثم رست بمالندة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٨ م [١].

وأرسل ملك البرتغال حملة بحرية سنة ٩٠٨ هـ/ ١٥٠٣ م، لمراقبة البحر الأحمر ومطاردة السفن العربية، فطافت تلك السفن بجزيرة زنجبار مدة شهرين، أسرت خلالها عشرين سفينة محملة بالبضائع، ولم تخل سبيلها إلا بعد أخذ إتاوة كبيرة من أصحابها. ولما عين فرانسيسكو ألميدا، قائدا لأسطول البرتغال ونائبا لملكها في الهند ٩١٠هـ/ ١٥٠٥م، وجه همه إلى القضاء على العرب وسلطان المماليك الذي يملك الأساطيل القوية لا سيما في البحر الأحمر، والأتراك الذين قد يهبون لنجدة إخوانهم في الدين خصوصا وقد احتلوا فارس وأطلوا على الخليج العربي، ولذا عزم أولا على تخريب القواعد العربية الإسلامية في شرقي افريقية، والتي قد يلجأ إليها الأسطول المصري. فبدأ بالهجوم على مدينة كلوة ـ وكانت مدينة عربية زاهرة آمنة ـ وبعد قتال عنيف في الشوارع والطرقات وداخل المنازل وفوق سطوحها ـ استولى عليها ـ وبعد أن شبع البرتغاليون في سكانها ذبحاً وتقتيلا، سلبوا ونهبوا كل ما صادفوه من نفيس فيها من ذهب وفضة وعاج وحرير وأفاوية، ونقلوه إلى سفنهم ثم أشعلوا فيها النار، وتركوها خفرة من الجحيم [٢].

ثم سار ألميدا إلى موزمبيق ـ وكانت مدينة عربية إسلامية ـ ففعل بها وبسكانها مثلما فعل بكلوة وبسكانها [٣].

ولقد استولى «تريستا داكنها وألبوكرك» على براوة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م

---

(١) جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية: ص٢١٠ ويذكر: Trimingham Islam in Ethiopia, PP. 76-7 : أن ذلك كان سنة ١٤٩٩م.

(٢) زاهر رياض: استعمار أفريقية: ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) زاهر رياض: استعمار أفريقية: ص ٢٦ ـ ٢٧.

بعد أن حصدت مدافع البرتغاليين وبنادقهم معظم سكانها، وسبوا نساءهم ثم أحرقوها [١]. واحتل «تريستا داكنها» في نفس السنة جزيرتي «سومطرة» و«هرمز» مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي، ليغلقهما في وجه سفن المسلمين من المصريين والأتراك، وحول داكنها مسجد سومطرة إلى كنيسة، أسماها نوتردام دولا فكتوار[٢]. وبات البرتغاليون يأسرون الحجاج في مدخل البحر الأحمر[٣].

«وصارت الإمدادات تترادف عليهم من البرتغال، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين؛ فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود بن مظفر، سلطان كجرات بالهند يومئذ، إلى السلطان الأشرف قنصوه الغوري يستعين به على الفرنج ويطلب العدد والآلات والمدافع لدفع ضرر الفرنج عن المسلمين ولم يكن أهل الهند إذ ذاك يعرفون المدافع والمكاحل(*) والبندقيات.. وممن أرسل إلى السلطان الغوري يطلب منه النجدة على الفرنج السلطان عامر بن عبد الوهاب؛ لكثرة ضرر الفرنج بالمسلمين في بحر اليمن وبنادرها وتواتر أذاهم وضعف جنود المسلمين في بحر اليمن بتلك الديار عن مقاومتهم لعدم معرفتهم بحرب البحر واستعمال المدافع ونحو ذلك»[٤]. ولما أحدق الخطر الصليبي بالمسلمين استنجد كل من شريف مكة، وحامد صاحب عدل، وسيف

---

(١) عبد المنعم عبد الحليم: الجمهورية الصومالية ص ٢٠٢ - ٢٠٣ «ط الألف كتاب سنة ١٩٦٠م».

(٢) جيان: المرجع السابق: ص ٢٤٣ و ٢٥٠.

(٣) جيان: المرجع السابق ص٢٢١.

(*) المكاحل: جمع مكحل: وهو آلة من آلات الحرب حينذاك.

(٤) أحمد بن ماجد: ثلاث أزهار في معرفة البحار ص١٨٨ (تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، مترجم سنة ١٩٥٧م) وقطب الدين النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني: ص١٩ (ط أولى سنة ١٩٦٧م).

الدين الثائر حاكم هرمز ومحمود الأول صاحب جوزرات بسلطان مصر قنصوه الغوري الذي كان مشغولاً بالخوف من العثمانيين الذين باتوا يهددونه ولكنه أرسل الأسطول المصري بقيادة «مير حسين»، فالتقى بالأسطول البرتغالي أمام جزيرة «ديو» في مواجهة الساحل الغربي لشبه القارة الهندية وانتصر على البرتغاليين إلا أن حاكم الجزيرة الخائن إنضم سراً إلى البرتغاليين ـ الذين كانوا قد حالفوا الممالك الهندوكية بالهند والتي كانت تناصب الإسلام العداء ـ ومنع المؤن والذخائر عن الأسطول المصري مما تسبب في هزيمته سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م[١]، وبات الجو بذلك مهيئاً للبرتغاليين ليكملوا خطتهم في القضاء على الإسلام والمسلمين ونهب ثرواتهم، والاستحواذ على تجارة الشرق الأقصى سبب صمودهم للحملات الصليبية على الشرق الإسلامي.

فرسى البوكيرك أمام عدن ونزل برجاله إلى البر وهاجمها ولكنهم انهزموا فصمم على تخريب مدينة السويس وإن حالت دونه أمور تمس الملاحة في البحر الأحمر[٢].

وخطب البوكيرك يحرض جيشه على القضاء على المسلمين في ملقا: «الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب... وذلك لأني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم (أعني المسلمين)، لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين»[٣]. وكان «لبناد نقل» قد تولى عرش الحبشة صغيراً (٩١٣ ـ ٩٤٧هـ/ ١٥٠٨ ـ ١٥٤٠م) تحت وصاية الملكة هيلانه فأرسلت هيلانه إلى عمانويل ملك البرتغال رسالة مع أرمني يدعى

(١) جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ وبانيكار: آسيا والسيطرة الغربية: ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٢) جيان: ص٢٥٩.
(٣) بانيكار: ص٤٨.

ماتيو ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، تطلب محالفة البرتغـال للقضاء عـلى الإسلام والمسلمين[١]. وقد جاء في هذه الرسالة:

«السلام على عمانويل قاهر البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة.. تحياتي إليكم ودعواتي لكم... لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر قد جهز جيشاً ضخماً ليضرب قواتكم، ليثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند. ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر أو إلى مكة أو جزيرة باب المندب. وإذا أردتم فإنا نسيرها إلى جدة أو الطور وذلك لتقضي قضاء تاماً على جرثومة الكفار... ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي يستطيع في وقت قصير أن يبيد الأمم الإسلامية المتبربرة...، ولما كانت ممتلكـاتنا موغلة في الداخل وبعيدة عن البحر الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان، فإن الاتفـاق معكم ضـروري، إذ انكم أهـل بـأس شـديـد في الحـروب البحرية...»[٢].

وبعد أن قضى البرتغاليون على كل مقاومة إسلامية خارجية، جدوا في تنفيـذ المخطط الصليبي بـالتعاون مـع الأحباش المسيحيـين، فتقدم الأسـطول البرتغـالي بقيادة لـوب سواريـز Lope Sueres إلى ميناء زيلع واستولى عليها وأحرقها (سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) وتقدم جيش الحبشة في نفس الوقت بقيادة (لبناد نقل) وغزا مملكة عدل الإسلامية وهزمهـا، وأحرق المدن وضرب القلاع، وحصر المسلمين في مكان ضيق من الوادي بين فطجار وعدل، وقتل منهم قرابـة اثني عشر ألف مسلم، واعتصم الباقون بالجبال حيث هلك كثيرون منهم جوعاً وعطشاً. وتقدم سالدنها

---

(١) Trimingham: Islam in Ethiopia, P.83.

(٢) نقلاً عن عابدين: بين الحبشة والعرب: ص ١٩٠ - ١٩١.

(Saldanha) بالأسطول البرتغالي إلى مدينة بربرة الإسلامية فنهبها ثم أحرقها سنة(٩٢٤هـ/ ١٥١٨م)[١]. وأرسل ملك البرتغال حملة عسكرية أخرى بقيادة رودريجو دي ليما (Rodrigo de Lima) لتساعد ملك الحبشة في القضاء على المسلمين، فنزلت الحملة في مصوع واحتلتها وحولت مسجدها إلى كنيسة ووصلت إلى بلاط ملك الحبشة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠. وبعد أن استتب الأمر لمملكة الحبشة وقضت على المقاومة الإسلامية عادت الحملة أدراجها سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م[٢].

وتـوحَّد المسلمـون بسرعـة تحت زعامـة الإمام أحمـد بن إبراهيم (٩٣٢ - ٩٥٠هـ/ ١٥٢٦ - ١٥٤٣م) الذي هَبَّ بالمسلمـين ليدفعـوا عن أنفسهم ما حل بهم من ذل وهوان، وانضم إليه الأحباش الذين كانوا قد أُجبروا على التنصر وعاشوا يخفون إسلامهم من شدة الاضطهاد الديني، كأحد قادة لبناد نقل الذي كتب إلى الإمام أحمد بن إبراهيم خطاباً قال فيه: «أنا من أول مسلم وابن مسلم أسروني المشركون ونصروني، وان قلبي مطمئن بالإيمان. والآن أنا جار الله وجار رسوله وجارك أن تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملته. فأنا تائب إلى الله. وهذه جيوش الملك الذين هم معي أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا»[٣].

واستطاع الإمام أحمد وجيوشه أن يقهر القـوة السياسيـة المسيحية ووضح أن معظم سكان الحبشة مسلمين، ومات الامبراطور لبـنا دنقل طـريداً سنـة (٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م)، لكنه كـان قـد استنجـد بحلفـائـه البرتغاليين، فاحتلوا مصوع سنة (٩٤٨هـ/ ١٥٤١م) في عهد ابنه وخليفته

---

(١) Trimingham: Op. Cit. PP. 77,84

(٢) فتحي غيث: ص ١٤٥، وانظر: Ulendorff: The Ethiopians, P. 5,74

(٣) عرب فقيه: ص ١٨١ - ١٨٢، ولغة الخطاب ركيكة وبه أخطاء نحويـة مثل أسـروني المشركون..

جلاوديوس (٩٤٧ ـ ٩٦٦هـ/ ١٥٤٠ ـ ١٥٥٩م)، مما اضطر الإمام أحمد أن يستنجد بالعثمانيين الذين كانوا قد وحدوا تحت لوائهم الشام ومصر سنة (٩٢٣هـ/ ١٥١٧)، وكثيراً من الموانىء الأفريقية المطلة على البحر الأحمر، وهزم الأحباش وحلفاءهم، وقتل القائد البرتغالي كريستوفر دا غاما، وأعاد الجنود العثمانيين والعرب إلى بلادهم. فأعاد البرتغاليون والأحباش الكرة عليه وقتلوه سنة (٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م)، وأنزلوا بالمسلمين الهلاك وبمدنهم الدمار[1]، فاحتل الترك مصوع سنة (٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م) واستولوا على المدن المجاورة، حتى وصلوا مدينة دوبارة واحتلوا زيلع وهرر.

واستطاع الأمير نور بن مجاهد ـ الذي خلف الإمام أحمد ـ أن يهزم الأحباش وحلفاءهم، وقتل الامبراطور جلاوديوس سنة (٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م)[2]. ولكن البرتغاليين دخلوا هذه البلاد، وأسسوا فيها معسكرات حربية ومعابد دينية، وساعدوا سرطا دنقل (٩٧٠ ـ ١٠٠٥هـ/ ١٥٦٣ ـ ١٥٩٧م) فحارب محمد الرابع ملك عدل وانتصر عليه سنة (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م)، وحارب الترك وحليفهم حاكم دوبارة وهزمهم قرب أبا جريمة (٩٨٦هـ). وتغلب على الباشا التركي كداورد وقتله بالقرب من أركيكو سنة (٩٨٧هـ/ ١٥٨٩م). وقضى الامبراطور الحبشي وحلفاؤه البرتغاليون بهذه المعارك على قوة المسلمين الحربية والسياسية. كما تغلب الملك الحبشي سوسنيوس (١٠١٦ ـ ١٠٤١هـ/ ١٦٠٧ ـ ١٦٣٢م) على مملكة سنار الإسلامية[3].

وتولّى الملك يوحنس الأول (١٠٧٧ ـ ١٠٩٣هـ/ ١٦٦٧ ـ ١٦٨٢م)، وكان شديد العداء للإسلام والمسلمين، فأصدر قراراً أجبر المسلمين على

---

(١) المرجع السابق: أماكن متفرقة، وحسن محمود: ص٤٢٦.
(٢) القنائي: ص١٧، عابدين: بين الحبشة والعرب: ص١٩٤.
(٣) القنائي: ص١٧، وعابدين: ص١٩٥، وحسن محمود: ص٤٢٨.

أن يعيشوا بعيداً عن المسيحيين في أماكن خاصة بهم، وحرم عليهم امتلاك الأراضي، ثم جدد هذا القرار سنة (١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)[١].

وكان البرتغاليون قد قضوا على قوة الممالك الإسلامية بشرقي أفريقية واحتلوها منذ بداية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وسفكوا دماء المسلمين وهتكوا أعراض نسائهم وسلبوا ثروات المسلمين مدة قرنين تقريباً، إذ لم تنج مدينة من مدن المسلمين المزدهرة من أذاهم، فقد أحرقوا منبسى خمس مرات وقتلوا سكانها ومن بقي أسروه، وأعملوا السيف في رقاب سكان كلوة وطردوا أهلها، ودمروا مساجد لامو وباته، وقتلوا الشيوخ، وقضوا على مظاهر الحضارة الاسلامية هناك [٢].

وإذا كان الأتراك العثمانيون قد عجزوا عن دفع هذا العدوان الصليبي على مسلمي شرقي افريقية ـ لانشغالهم في حروب مع الخطر المسيحي في أوروبا ـ فإن إمارة عُمان قد تمكنت في عهد الإمام سلطان بن سيف (١٦٤٩ ـ ١٦٦٨م) من طرد البرتغاليين من مسقط وجنوب شبه جزيرة العرب سنة ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م وأرسلت منبسى تستصرخهم فاستولى أسطولهم عليها وطرد البرتغاليين منها ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م، ودخل موزمبيق ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٩م، في آخر أيام سلطان بن سيف بقيادة ابنه من بعده سيف بن سلطان وسيطر العرب على الساحل الافريقي كله [٣]. إلا أن الدول الأوروبية المسيحية ـ هولندا وانجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا ـ تعقبت خطوات البرتغاليين وعملت متعاونة على إضعاف القوة

---

(١) عابدين: ص ٢٠٤ — Budge: Op; Cit; Vol; 2, P.407

(٢) جيان: ص٢٥٣، ٢٥٣ وصفحات أخرى، Hichens: Islam To-Day, PP. 122، 123.

(٣) السالمي: تحفة الأعيان: جـ٢ ص١٠٠، وقد توفي سيف بن سلطان في ٣ من رمضان سنة ١١٢٣هـ (١٧١١م).

الإسلامية والسيطرة عليها بشتى الوسائل، وعقدت عدة اتفاقيات فيما بينها لتقسيم المناطق الاسلامية بينها، أهمها معاهدة ١١١١هـ/ ١٧٠٠م، والتي وقعت بين كل من انجلترا وفرنسا وهولندا لاقتسام المناطق الاسلامية بينها، فاختص الفرنسيون بالخليج العربي، وانجلترا ببحار الهند الجنوبية وهولندا بالبحر الأحمر(١).

ووصل أسطول برتغالي أوائل عام ١٧٢٨م (١١٤٠هـ) إلى ساحل افريقية الشرقي، واحتل البرتغاليون من جديد مدينة منبسى وبعض المدن الأخرى، واستمر احتلال البرتغاليين لمنبسى مدة ثمانية عشر شهرا، قاسى المسلمون خلالها الأهوال، فقد جعل البرتغاليون وجهاء منبسى يقومون بخدمتهم، وألقوا الحجارة على المصلين، ودأبوا على طرد الأهلين من بيوتهم والاستيلاء عليها واستباحوا زوجات أهل منبسى(٢) إلا أن السلطان أحمد بن سلطان العماني استطاع أن يحرر مسلمي شرقي إفريقية نهائيا من تسلط البرتغاليين لكن انجلترا حاولت التدخل في شؤون دولته بطريقة ماكرة حتى كسبت صداقته لدرجة أن «استعان السلطان (سعيد بن سلطان) بالنصارى (الإنجليز) على حرب أهل الشارقة من أرض الشمال فقهر بهم عدوه، وكانت هذه الإستعانة منه أول سبب تدخلت به النصارى في ممالك المسلمين من أهل عمان، فبقوا آفة في ذراريه وعلة في مملكته يظهرون الصداقة ويضمرون العداوة (٣)».

«وكان الملك البحري أيام اختلاف اليعاربة متفرقاً في أيدي عمالهم مثل الهند ومنبسى وزنجبار وما بعدها وكل عامل قد استبد برأيه وانفرد بما تحت يده وادعى المملكة لنفسه(٤) ».

---

(١) جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد ص ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) Sir. J. M. Gray: The British in Mombasa (1824 - 26) P.6 Olso: Hichens: Islam Today, PP. . 122 - 3
(٣) السالمي: تحفة الأعيان: جـ٢ ص١٩٨.
(٤) السالمي: تحفة الأعيان: جـ٢ ص١٩٢.

ولما نصب الإمبراطور «تيودور» الثالث نفسه على عرش الحبشة (١٢٧١ هـ/ ١٨٥٥م)، اتصل به الإنجليز وأثاروه على مسلمي الحبشة، واتخذوا من بلاودن ثم كاميرون قنصلي انجلترا في الحبشة أداة للتأثير عليه لدرجة أن اتخذ مرافقاً خاصاً من الإنجليز هو بل (bell) والذي أثار حفيظته على المسلمين، ويتضح ذلك من الرسالة التي أرسلها إلى ملكة انجلترا رداً على رسالتها والتي يقول فيها: ولقد دأب مستر (بلاودن) وكذلك مرافقي الخاص الإنجليزي (بل) على إخباري بأنه توجد مملكة مسيحية عظيمة تحب المسيحيين. وعرضا عليّ أن يعملا على تعارفنا وعقد الصداقة بيننا.. (إلى أن قال): وإن الأتراك الذين يسيطرون على شواطىء البحر يمنعونني من إيفاد بعثة إلى جلالتكم عندما أكون في شدة، ولقد وصل القنصل كاميرون ومعه كتابكم وهدايكم. وإني أخشى إذ أنا أرسلت وفداً من عندي يحمل هدايا إليكم أن يقبض عليهم الأتراك...

(أنظري كيف يظلم الإسلام المسيحيين [١]).

وتوالى وفود كثير من علماء الغرب وتجاره وعسكرييه ومبشريه وأخذوا يثيرون النجاشي وحكومته ورجال الدين المسيحي ليقضوا على الإسلام والمسلمين[٢].

وتحت ذلك التأثير زعم تيودور أنه هو المقصود بنبوءة قديمة تقول: بظهور ملك اسمه تيودور يحطم الإسلام ويعيد الاستيلاء على بيت المقدس[٣] ولذا عمل بكل الوسائل ليقضي على المسلمين أو ينصرهم لكنه فشل[٤] وإذا كانت تلك هي جهود بريطانيا والغرب المسيحي في القضاء على

---

(١) نقلاً عن فتحي غيث: الإسلام والحبشة: ص ١٩١.

(٢) القنائي: الجواهر الحسان: ص ١٧ ـ ١٨.

(٣) Alan Morehead: The Blue Nile, P. 207

(٤) Trimingham: Islam in Ethiopia, P.118.

مسلمي الحبشة فلقد ارتكب السيد سعيد البوسعيدي عام (١٢٢١ - ١٢٧٢هـ/ ١٨٠٦ - ١٨٥٦م) أكبر خطأ حين ربط مصيره بمصير الوجود البريطاني في الهند والمحيط الهندي منذ العقد الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وراح يستجيب لمطالب بريطانيا، وأبرم معها ومع غيرها من دول أوروبا الكبرى الاتفاقات التي فتحت أبواب أفريقية الشرقية على مصاريعها للأوروبيين، وهو نفس الخطأ الذي تردى فيه محمد علي حاكم مصر حين صاخ لأصدقائه الفرنسيين وحارب الدولة العثمانية حامية الإسلام فأضعف قوتها وقوة مصر وهما اللتان كانتا تذودان عن الإسلام وحماه ضد الغارة الصليبية مما أدى إلى احتلال الغرب المسيحي لكلا الدولتين. واستغل الإنجليز وغيرهم هذه الفرصة فأخذوا يتسللون إلى داخل القارة تحت ستار التجارة والكشف والتبشير كما عملوا بعد وفاة السيد سعيد على تفكيك أوصال سلطنته بفصل أملاكها الإفريقية «سلطنة زنجبار» عن أملاكها الآسيوية «سلطنة مسقط» بموجب تحكيم كاننج المشهور ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١ م، حتى يسهل عليهم التدخل في شؤون كل منهما والاستحواذ عليهما[١].

وفي عام ١٢٧٧هـ/١٨٦١م، توجه الأسطول الفرنسي إلى زيلع، وقبض على حاكمها شرماكي ووجهاء المدينة، وفرض على أهلها غرامة كبيرة ثم أعلن الحماية الفرنسية عليها. ثم سارعت فرنسا فأخذت ميناء أوبوك وخليجه والسهل الذي يمتد من رأس علي جنوباً إلى رأس دوميرا شمالاً، بالمال والضغط من شيوخ الدناكل عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢[٢]م،

---

(١) حراز: افريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي: ص - جـ - من المقدمة.

(٢) حراز: المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢، وذكر Trimingham أن فرنسا احتلت أوبوك سنة ١٨٨١م ومدت حكمها على تاجورة وجيبوتي سنة ١٨٨٥م، أنظر:

Islam in Ethiopia, P.133.

ولما سارع المصريون لنجدة إخوانهم في الدين في شرقي إفريقية تعاونت إنجلترا وفرنسا منذ ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠ م، لإخراج المصريين من شرقي افريقية[١].

وشجع الغرب المسيحي الملك الحبشي يوحنس، فعقد مجمعاً يضم رجال الكنيسة الحبشية سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م، وقرر المجتمعون وجوب الإقتصار على دين واحد في جميع أرجاء الحبشة، فأنذر جميع الموظفين المسلمين بأن يختاروا في غضون ثلاثة أشهر أن يتحولوا إلى المسيحية أو أن يتركوا مناصبهم وأجبر المسلمين على بناء كنائس للمسيحيين وأن يدفعوا العشور للقساوسة الذين في مقاطعاتهم، ثم خير المسلمين جميعا بين التحول إلى المسيحية أو الموت أو الطرد من البلاد ففر كثيرون منهم إلى السودان واحتموا بثورة المهدي وتظاهر الباقون بالتنصر [٢].

وذكر مساجا المبشر المسيحي بالحبشة: أن هذا الإمبراطور أرغم عام ١٢٩٧ هـ/ ١٨٨٠ م حوالى خمسين ألفاً من المسلمين على التنصر ونصف مليون من قبائل الجالا، وعشرين ألفاً من أفراد إحدى القبائل الوثنية إلا أن هذه الوسائل التي تقوم على العنف والإرهاب لم تؤد إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين نحو الدين المسيحي[٣].

وقد اتخذ التوغل الأوروبي في شرقي إفريقية وسائل معينة، «مكافحة تجارة الرقيق باسم الإنسانية المعذبة، والكشوف الجغرافية، والنشاط التبشيري وإبعاد مصر عن السومال من جهة، وعن إقليم البحيرات الإستوائية بصفة عامة ومملكة بوغاندة بصفة خاصة من جهة

---

(١) عبد المنعم عبد الحليم: الجمهورية الصومالية: ص ٤١٢ ـ ٤١٣ (ط يوليو سنة ١٩٦٠).

(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص١٤١.

(٣) نقلاً عن أرنولد: المرجع السابق: ص١٤٢.

أخرى، بالإضافة إلى محاربة الإسلام ومحاولة إخضاع هذه المنطقة من القارة لنفوذ المسيحية [1] ». وقد قام الإنجليز بالدور الأكبر في هذا المضمار، إذ عملت في أفريقية الشرقية خمس إرساليات بروتستينية إنجليزية. كما أن بريطانيا هي التي أرغمت مصر عام ١٣٥١هـ/ ١٨٨٤م، على إخلاء السواحل الإفريقية المطلة على خليج عدن والمحيط الهندي وقامت بريطانيا منذئذ بتأسيس مستعمرة السومال البريطاني. وعقدت الدول الأوربية مؤتمر برلين «نوفمبر سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م - فبراير سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥ م» لتقسيم مناطق النفوذ بينها في إفريقية [2].

وانجلترا وإن اتخذت سياسة المكر والخداع في التدخل في شؤون سلطان زنجبار بدعوى صداقته والحفاظ على ممتلكاته حتى أصبح قنصلها العام في زنجبار «كيرك» هو الحاكم الفعلي والمتصرف في شؤون السلطنة مما ترتب عليه ازدياد نشاط المبشرين عموماً والإرساليات التبشيرية الإنجليزية على وجه الخصوص - فقد اتخذت ألمانيا سياسة مكشوفة فأعلنت الحماية الألمانية على المنطقة الإفريقية المواجهة لجزيرة زنجبار والخاضعة لسلطانها، وأرغم الأسطول الألماني سلطان زنجبار برغش على الإعتراف بالحماية الألمانية والتصديق عليها في عشرين من ديسمبر سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م، وعلى الإعتراف بمعاهدات الحماية التي عقدتها ألمانيا مع رؤساء أو سلاطين: ويتو، وأوساجارا، وأوزيجوا، ونجورو، وأكامي، وعلى أن يسحب قواته وموظفيه من هذه المناطق، فرضخ برغش للأمر، بل تنازل لألمانيا عن ميناء دار السلام وعقد معها معاهدات تجارية [3].

ولقد أدخل المبشرون الإنجليز وكيرك - قنصل بريطانيا في زنجبار - في

(١، ٢) حراز: المرجع السابق: ص - جـ - من المقدمة وص ٢٩٨، ٤٧٣.

Trimingham: Op. Cit. P.133.

(٣) Coupland, R.: The Exploitation of East Africa, PP. 45-8, 440-4.

روع (متيزا) كاباكا أوغندة أن مصر ستغزو بلاده وأنه لا بد له من محالفة بريطانيا لتحميه، بل أبلغه كيرك أن انجلترا سوف تتدخل إذا اعتدت مصر على بلاده. وعملت بريطانيا بكافة الوسائل على إبعاد النفوذ المصري الإسلامي عن وسط إفريقية وأوغنده، مستعينة بالضباط الأوروبيين الذين اعتمدت عليهم مصر في مد نفوذها إلى تلك الجهات، وعلى الوقوف في وجه الإسلام وحضارته وتعويق انتشاره والقضاء عليه وعلى معتنقيه في تلك الجهات، وعلى خلق طبقة مسيحية موالية لها والتي أطلق عليها (وا ـ انجليزا [1]).

وعمل المبشرون الكاثوليك الفرنسيين على استمالة متيزا لفرنسا وعلى خلق طبقة مسيحية موالية لفرنسا، والتي أطلق عليها (وا ـ فرنسا) [2].

وتعاون الحزبان المسيحيان الكاثوليكي والبروتستنتي في القضاء على حكم كاليما الكاباكا المسلم، وتنصيب موانجا الموالي لهما كاباكا على أوغندة، وذلك بمساعدة تشارلز ستوكس والمبشرين الأوربيين. واقتسم الحزبان المسيحيان الضياع والمناصب الكبيرة فيما بينهما. وفر المسلمون وكاليما إلى بونيورو، وذلك في اكتوبر سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩[3]م، وعندما تغلب المسلمون ونصبوا كاليما مرة أخرى تقدمت قوات بيترز الألماني وجاكسون الإنجليزي لإعادة موانجا إلى عرشه، وعقد الأول معه معاهدة صداقة في ٢٨ من فبراير سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م، فتح بلاده بمقتضاها لجميع الأوروبيين وتعهد بحرية التجارة، ودخل في علاقات ودية مع امبراطور ألمانيا. وفر المسلمون وكاليما إلى بونيورو مرة أخرى[4].

---

(١) محمد عبد المنعم يونس: أوغندة (دار القلم، رقم ١١، ص ١٠٠ ـ ١٠١).

(٢) المرجع السابق، نفس المكان.

(٣) Thomas and Scott: Uganda, P.27

(٤) حراز: افريقية: ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨.

وجاء الكابتن الإنجليزي فردريك لوجارد إلى أوغندة على رأس حملة في ديسمبر سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، وجمع شمل الحزبين المسيحيين المتعادين تحت لوائه، وخرج على رأس جيش كبير من جنود شركة افريقية الشرقية البريطانية - التي يمثلها - والمسيحيين الباغندة الكاثوليك والبروتستنت (٢٥,٠٠٠ جندي) من كمبالا في ابريل سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩١م، وهاجم الباغندة المسلمين وهزمهم في أوائل مايو شمال سنجو عند بوجنجودزي، ثم عاد بجيشه إلى أوغندة ووضع أوغندة تحت حماية بريطانيا، إذ عقد مع الكاباكا وزعماء الكاثوليك والبروتستنت معاهدة في ابريل ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م، تعهدت فيها الشركة البريطانية بحماية مملكته واعترف هو بسيادة الشركة (١).

ولم تلبث بريطانيا أن دخلت في مفاوضات مع ألمانيا، وانتهت بالاتفاقية البريطانية الألمانية، التي وقعت بتبادل المذكرات (في سنة ١٣٠٤هـ/٢٩ من أكتوبر وأول نوفمبر سنة ١٨٨٦م) وكانت أهم بنود هذه الاتفاقية هي(٢).

أولاً: تعترف بريطانيا وألمانيا بحقوق سيادة زنجبار في أفريقية الشرقية على ما يلي:

أ - جزر زنجبار وبمبة ولامو ومافيه.

ب - الشريط الساحلي الممتد من ممنجاني عند رأس نهر تونجي جنوباً حتى كيبيني الواقعة عند مصب نهر تانا شمالاً، وهو شريط يبلغ طوله سبعمائة ميل وعرضه عشرة أميال.

---

(١) Thomas and Scott: Op. Cit. P.31.

(٢) حراز: أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي: ص ٣١٨ - ٣١٩ وأيضاً:
Hertslet, E: The Map of Africa by Treaty, Vol. 3, PP. 882 — 6 and Coupland, R: The Expliotation of East Africa. PP. 474 - 5.

جـ ـ موانىء قسمايو وبراوة ومركة ومقديشو ووارشيخ والأراضي التابعة لها في الداخل، على أن لا يزيد امتداد هذه الأراضي للموانىء الأربع على عشرة أميال، وبالنسبة للميناء الأخير على خمسة أميال.

ثانياً: تؤيد بريطانيا ألمانيا في مفاوضاتها مع السلطان بهدف تأجير جمركي دار السلام وبانجاني لشركة أفريقية الشرقية الألمانية.

ثالثاً: يقسم الأقليم الواقع بين نهري روفوما وتانا الى منطقة نفوذ بريطانية وألمانية ويمر الخط الفاصل بينهما من مصب نهر أومبا (بالقرب من فانجا) إلى بحيرة جيب Jipe، ويمتد من هناك بين منطقتي شاجا وتافيتا إلى القاعدة الشمالية لسلسلة جبال كليمنجارو، ومنها إلى النقطة التي يتقاطع عندها أول خط عرض من خطوط العرض الجنوبية مع الشاطىء الشرقي لبحيرة فيكتوريا. واتفق على أن تخضع الأراضي الواقعة شمال هذا الخط للنفوذ البريطاني والأراضي الواقعة جنوبه للنفوذ الألماني، وتعهدت كل من الدولتين بألا تتدخل في منطقة نفوذ الأخرى بعقد معاهدات حماية، أو بالحصول على أراض، أو بعرقلة نشاطها بأي شكل من الأشكال.

رابعاً: تستخدم بريطانيا مساعيها «الحميدة» للوصول إلى تسوية ودية للخلافات التي قد تنشب بين السلطان وبين شركة أفريقية الشرقية الألمانية فيما يتعلق بمقاطعات كليمنجارو.

خامساً: تعترف الدولتان بأن الشريط الساحلي الممتد بين كيبيتي والطرف الشمالي لخليج مانده هو ساحل (ويتو: Witu).

سادساً: تعمل الدولتان معاً لدعوة السلطان للتوقيع على القرار النهائي لمؤتمر برلين.

سابعاً ـ تنضم ألمانيا للتصريح الثنائي البريطاني الفرنسي لعام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م بشأن الاعتراف باستقلال سلطنة زنجبار، وبهذا فإن

الاتفاقية قد قسمت ممتلكات سلطنة زنجبار الإسلامية إلى منطقتي نفوذ بريطانية وألمانية.

وقد أبرق برغش إلى لندن وبرلين راجياً إمهاله ستة شهور يتدبر خلالها أمر الاتفاقية ويفحص بنودها، ولكن وزارة الخارجية البريطانية هددته بأنه إذا لم يصادق على الإتفاقية فوراً فإن مصالحه سوف تتعرض لمزيد من الأخطار فوقع عليها صاغراً في ٧ من ديسمبر سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦[١]، وأعلنت حكومة فرنسا في اليوم التالي أنها لن تعترض على ما جاء في الاتفاقية بشأن تعيين حدود سلطنة زنجبار، في مقابل إطلاق يدها في مدغشقر والاعتراف بالحماية الفرنسية على جزر القمر[٢].

وهكذا نشطت الارساليات التبشيرية في تنصير المسلمين والوثنيين معاً تحت حماية وسيطرة دولها المستعمرة.

وأظهرت إنجلترا أنها في صداقتها لسلطان زنجبار وإظهارها الحفاظ على ممتلكاته واستقلاله لم تكن تهدف إلا أن تستأثر وحدها بالغنيمة غير أن الظروف السياسية الاستعمارية أجبرتها على أن تترك جزءاً لألمانيا وآخر لفرنسا[٣]. وهكذا قسمت إنجلترا وفرنسا وألمانيا معظم ممتلكات سلطنة زنجبار الإسلامية، على أن البرتغاليين سرعان ما أسرعوا ليطالبوا برغش سلطان زنجبار بأن يتنازل عن جزء مما تبقى من ممتلكاته بجوار مستعمرتهم موزمبيق، وأرسلت السلطات البرتغالية في موزمبيق إنذاراً إلى برغش لكي يتنازل لها عن المنطقة المتاخمة لمصب نهر روفوما، وهددته بأوخم العواقب

(١) Holling worth, L.W: Zanzibar under the foreiggn Office P.21.

(٢) Coupland, R: Op. Cit; P. 476

(٣) Coupland, R: Op. Cit. P.474

إذا لم يستجب لمطلبها في الحال، ولما رفض، استولى كاستيللو ـ حاكم مستعمرة موزمبيق البرتغالي ـ على سفينة بخارية لبرغش، وقصف البرتغاليون بمدافع سفنهم ميناءي منتجاني وتونجي الإسلاميين مما أدى إلى اشتعال الحرائق فيهما وهددوا بمهاجمة سفن زنجبار التجارية[١]، وبالرغم من تدخل إنجلترا وألمانيا حرصاً على مصالحهما التجارية لم ينجح السلطان في استعادة أراضيه أبداً؛ إذ احتفظ البرتغاليون بخرائب قريتي منتجاني وتونجي[٢].

ولم تلبث شركة أفريقية الشرقية الألمانية أن حصلت من برغش في مايو سنة ١٨٨٧م (١٣٠٤هـ) على امتياز بإدارة أملاكه في الشريط الساحلي الواقع بين نهري أومبا ورفوما الممتد في الساحل إلى عشرة أميال وكذلك حصلت شركة أفريقية الشرقية البريطانية من برغش على امتياز بإدارة أملاكه الشمالية في مايو سنة ١٨٨٧م (١٣٠٤هـ)، وبالطبع كان برغش مسلوب الإرادة فتنازل للألمان عن ممتلكاته الجنوبية ما بين نهري أومبا وروفوما وللإنجليز عن ممتلكاته الشمالية ما بين نهري وانجا وكيبيتي متوغلة في الداخل حتى ساحل بحيرة فيكتوريا الشرقي وذلك في مايو سنة ١٨٨٨م/ ١٣٠٥هـ[٣]، ومنذئذ أنزل الألمان والانجليز برعايا السلطان المسلمين الذل والهوان وسعى المبشرون إلى تنصيرهم بكافة السبل والوسائل مما جعل المسلمين يثورون إلا أن مدافع الأسطول الألماني قصفت مدنهم ونزل مشاة الأسطول إلى البر يقتلون ويخربون مما اضطر السكان إلى الاحتماء بالأحراش[٤]. ولكن بوشيري بن سالم تزعم المسلمين وثار على

(١) حراز: أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي ص٣٢٣.

(٢) Hamilton, G: Princes of Zinj, The Rules of Zinzibar P. 172.

(٣) حراز: أفريقية الشرقية والاستعمار: ص ٤٢٦.

(٤) Hamilton: Op. Cit.PP. 193 - 198 and Oliver: The Missionary factor in East Africa, PP. 96-116.

الانجليز والألمان على السواء إلا أن مشاة الأسطول الألماني نزلوا في باجامويو وأعملوا في المسلمين القتل والذبح لكنهم عجزوا عن السيطرة على المدينة وامتدت الثورة الإسلامية على طول الساحل الشرقي لافريقية كله واسترد الثوار بعض مدنهم من الأوروبيين ولكن سرعان ما اتحدت إنجلترا وألمانيا وفرضتا حصاراً بحرياً مشتركاً بأسطوليهما على الساحل كله واشتركت ايطاليا معهما في الحصار وضرب الأسطول الألماني بانجاني وطنجة بمدافعه واحتلهما الألمان وفتكوا بالثوار وأعدموا قائدهم شنقاً في باجامويو واستمر الحصار من اثنين من ديسمبر سنة ١٨٨٨ م (١٣٠٦ هـ) حتى أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ م (١٣٠٧ هـ)(١).

وعقدت بريطانيا وفرنسا اتفاقية سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م حددتا مناطق نفوذ كل منهما في خليج تاجورة وساحل الصومال، ووقعت إيطاليا مع منليك ملك الحبشة سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م معاهدة أوشيالي التي اعترف فيها بالحكم الإيطالي على أرتريا، فقد كانت قد احتلت عصب منذ ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، وثبتت إنجلترا أقدامها في الصومال بعد اتفاقها مع إيطاليا ١٣١١هـ/ ١٨٩٤م، ومع أثيوبيا ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م. وهكذا اقتسمت دول الغرب المسيحية بلاد المسلمين بافريقية الشرقية بعد أن تركت مناطق «سنهيت - بلين» وهرر وزيلع غنيمة لدولة الحبشة المسيحية التي انقضت عليها فاحتلتها سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٨٧م بفضل مساعدة الدول الغربية لها بالأسلحة والخبراء العسكريين وبتشجيع البعثات التبشيرية التي كانت تعمل منذ وقت طويل في الحبشة بهمة. ونشاط ضد الإسلام وضد المسلمين. ودخل منليك في حروب مع السلطنات الإسلامية وانتصر على الرأس محمد علي فخيره بين القتل أو التنصر، فتنصر وتسمى ميخائيل(٢).

(١) Hamilton: Op. Cit PP. 200-201 and Holligs worth, L.W. Op. Cit. P. 35.

(٢) عابدين: بين الحبشة والعرب ص ٢١٧، وغيث: الإسلام والحبشة ص٢٣٢ وما بعدها وص٢٤٣.

ولم يكن قد بقي للسلطان السيد خليفة ـ الذي خلف برغش ـ من أملاكه سوى جزر زنجبار وبمبة ولامو وموانىء البنادر الخمس: قسمايو، وبراوه، ومقديشو ومركة ودار شيخ ـ وبالرغم من ذلك أُرغِمَ على التنازل عن الجزء الصغير المتبقي من أملاكه فأخذت إنجلترا جزر: لامو وباته، ومانده، وميناء قسمايو، وأخذت إيطاليا امتياز إدارة: براوة ومركة ومقديشو ودار شيخ بعد أن احتلت ـ بتشجيع من بريطانيا ومساعدتها ـ منطقة الارترية الإسلامية ثم استولت على ساحل الصومال الشمالي «ساحل البنادر»(١).

ودخلت بريطانيا وألمانيا في مفاوضات أسفرت عن معاهدة عقدت في يوليو سنة ١٨٩٠م (١٣٠٧هـ) وأعادت تقسيم أفريقية الشرقية على النحو التالي(٢):

١ ـ اعترفت ألمانيا بحق الحماية البريطانية على جزيرة زنجبار.

٢ ـ تنازلت ألمانيا عن حمايتها على سلطنة ويتو والشريط الساحلي الممتد بينها وبين قسمايو.

٣ ـ قبلت ألمانيا بامتداد خط الحدود الفاصل بين منطقتي النفوذ البريطانية والألمانية والذي يمتد غرباً حتى حدود دولة الكنغو المستقلة عبر بحيرة فيكتوريا.

٤ ـ تنازلت ألمانيا لبريطانيا عن منطقة توزيع المياه بين بحيرتي نياسا

---

(١) حراز: المرجع السابق: ص٤٩٢ وما بعدها، وأيضاً:
Hertslet, E.. Op. Cit. Vol; 1. P.359 and Vol. 3,1901-3

(٢) Coupland: The Exploitation in East Africa, PP. 484 - 5 and Hertslel, the Mapof Africa by Treaty, Vol., 3, PP. 899 - 909
ونقل عنهما حراز: المرجع السابق: ص ٥٩٣ ـ ٥٩٤.

وتنجانيقا فصار خط الحدود الجنوبي لمنطقة النفوذ الألمانية يمتد على طول نهر روفوما إلى الطرف الشمالي من بحيرة نياسا ومن هناك يسير في الاتجاه الشمالي الغربي إلى الطرف الجنوبي لبحيرة تنجانيقا في مقابل حصول ألمانيا على جزيرة مافيه.

٥ - تعهدت بريطانيا باعتبارها صاحبة النفوذ في بلاط زنجبار بتسهيل التوصل إلى اتفاق ودي بين زنجبار وألمانيا حتى يتنازل السلطان لألمانيا عن الشريط الساحلي بين نهري: أومبا وروفوما البالغ عرضه عشرة أميال والذي كانت شركة أفريقية الشرقية الألمانية تتولى إدارته بموجب امتياز مايو سنة ١٨٨٧م (١٣٠٤هـ) وذلك في نظير تعويض تدفعه ألمانيا للسلطان.

وقد اعترفت فرنسا بحماية بريطانيا على زنجبار في مقابل اعتراف بريطانيا بحماية فرنسا على جزيرة مدغشقر[١].

وضمت ألمانيا، بناء على ذلك (سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) الأراضي التي كانت تستأجرها الشركة الألمانية من سلطان زنجبار إلى محمية أفريقية الألمانية التي عرفت بعد الحرب العالمية الأولى باسم «مستعمرة تنجانيقا» وأعلنت بريطانيا حمايتها على جزيرتي بمبة وزنجبار (سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م)، وعلى أوغندة (١٣١١هـ/ ١٨٩٤م) وعلى أفريقية الشرقية البريطانية أو كينيا (١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م)، بعد أن ضمت إليها القسم الأوسط من ساحل افريقية الشرقي. وضم الايطاليون القسم الشمالي (ساحل البنادر) إلى مستعمرتهم بالصومال والارترية .واستقر البرتغاليون في مستعمرة موزمبيق، والفرنسيون في مدغشقر وجزر القمر[٢].

---

(١) حراز: افريقية الشرقية ص ٥٩٨.

(٢) المرجع السابق: هـ من المقدمة.

وبهذا تحول الحكم الاستعماري المسيحي لافريقية الشرقية الإسلامية من حكم غير مباشر تتولاه الشركات ذات البراءات والامتيازات إلى حكم مباشر يتولاه موظفون معينون من قبل حكوماتهم، عملوا بكل الوسائل على تحقيق هدف دول الغرب نحو الإسلام والمسلمين[١].

ولما ثار مسلمو الصومال بقيادة محمد بن عبدالله حسان «مهدي الصومال» (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م)؛ لما أنزله بهم الأوروبيون، تعاونت بريطانيا والحبشة وقضتا على هذه الثورة[٢].

وتولى الملك ليج ياسو امبراطوراً على الحبشة (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م)، واعتنق الإسلام؛ فتعاونت قوات إنجلترا وفرنسا وإيطاليا مع مطران الحبشة، وأقصوه عن عرش الحبشة، وولوا (زاوديتوبنت منليك) سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م، وجعلوا الرأس تفري (هيلاسلاسي) ولياً للعهد[٣]. وسجن ليج ياسو حتى قتل بأمر هيلاسلاسي (سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)[٤].

ولما هُزِمَتْ ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ضمت بريطانيا مستعمرة تنجانيقا إلى محميتها وأصبحت تسيطر على أفريقية الشرقية كلها. ولما أصبح هيلاسلاسي امبراطوراً للحبشة سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، اتبع خطة ظاهرها التسامح الديني وحقيقتها اضطهاد المسلمين بشتى الوسائل الخفية تنفيذاً للمخطط الصليبي الذي تنهجه دول الغرب المسيحية؛ إذ هي التي نصبته على عرش الحبشة، وهي التي تثيره ضد المسلمين وتمده بالمال والسلاح وتشد أزره بقواعدها العسكرية التي أقامتها في المناطق الإسلامية

---

(١) المرجع السابق: هـ من المقدمة.

(٢) عابدين: بين الحبشة والعرب: ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٣) Budge: Vol, 11, PP. 543-545, Trimingham, PP. 130-5.

(٤) فتحي غيث: الاسلام والحبشة: ص٢٥٩.

بالحبشة، فلأمريكا قواعد عسكرية ضخمة في الأرترية تستخدمها في الضغط على حريات المسلمين ومساعدة الإرساليات التبشيرية في تنصير المسلمين والوثنيين[1]، إذ بعد الحرب العالمية الثانية وتولِّي بريطانيا إدارة الأرترية ـ التي أجلت الطليان عنها ـ تعاونت دول أوروبا الغربية وقدمت الأرترية الإسلامية هدية للحبشة المسيحية. وأغدقت على الحبشة المساعدات العسكرية والمادية وشتى ضروب الحماية حتى يمكنها القضاء على الإسلام والمسلمين مما اضطر أكثر من مائة ألف مسلم إلى الهجرة إلى بلاد العرب والسودان[2].

وقد سيطرت دول الغرب على كل شيء في شرقي أفريقية حتى وسائل الاعلام ولذا بثت العداوة والفرقة بين العرب والافريقيين ـ بالرغم من اتحادهما في الدين ـ وأظهرت العرب بمظهر الغزاة المستعمرين وتجار الرقيق والاقطاعيين المستغلين، وأثاروا بذلك نعرة القومية العنصرية عند الافريقيين، مما تسبب في مذبحة زنجبار المروعة التي راح ضحيتها دماء عربية بريئة، وفي هتك أعراض المسلمات العربيات من الرعاع والسوقة؛ وفي الإطاحة بالحكومة العربية المسلمة، ووضع الاستعمار البريطاني حاكمًا مسيحياً هو جوليوس نيريري سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، على تانزانيا[3].

ومنذ بداية الستينات أخذ النفوذ الاستعماري الغربي في الزوال لظهور القوميات وزيادة اليقظة الفكرية عند الشعوب وعوامل أخرى، لكن دول الغرب كانت قد نجحت في تنصير بعض الوثنيين والعبيد وأيتام المسلمين، فسلمتهم زمام الحكم على أغلبية مسلمة ومكنتهم بالتعليم والاستحواذ على الاقتصاد والمال والسلاح من التحكم في المسلمين، بعد

(١) فتحي غيث: ص٣٠٠، وحديث شفهي مع طالب من الارترية بحقوق القاهرة في ٣/ ٤/ ١٩٧٠.
(٢) فتحي غيث: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤، والحديث السابق.
(٣) محمد بن ناصر العبودي: في أفريقية الخضراء: ٥٧٥ ـ ٥٧٦.

أن سلبت المسلمين ما بأيديهم وأخرتهم وأثارت بينهم العداوة والشقاق وجعلتهم فرقاً وأحزاباً يناصب كل منهم الآخرين العداء[1].

فسلمت تلك الدول الأرترية - وأغلب سكانها مسلمون - هدية لامبراطور الحبشة المسيحي، واستقرت فرنسا في جيبوتي، والبرتغال في موزمبيق، ونصبت على كينيا جومو كينياتا وعلى جزر القمر ومدغشقر حكاماً مسيحيين، يعملون بشتى الوسائل على محاربة الإسلام واضطهاد المسلمين[2].

ولم تقتصر أمم الغرب على اضطهاد المسلمين واستعمار بلادهم ونهب ثرواتهم وتأخيرهم بل غزت بلادهم بجيوش كثيفة من المبشرين، الذين حاربوا الإسلام بشتى السبل وحاولوا تنصير المسلمين وغيرهم بكافة الوسائل وشوهوا صورة الإسلام في أعين الجميع. وهو ما سأعرض له في الفصل الثاني من هذا الباب.

---

(١) المصدر السابق: ص ١١٦، ٣٢٥، ٦١٣ وصفحات أخرى:

Towards Freadom and Dignity (c) 1970 London Islamic Circle «Some facts about Moslem Population in Africa» By S.M. Husain PP. 35-36.

(٢) Ibid, p.38.



الفصل الثاني

جهود أمم الغرب المسيحيّة في محاربة الإسلام



تمهيد:

(أهداف المبشرين والمغرضين من المستشرقين)

كما بذلت جيوش أمم الغرب المسيحية جهوداً جبارة متواصلة على امتداد القرون للقضاء على المسلمين أو استعمار بلادهم وإذلالهم وتأخيرهم ونهب ثرواتهم؛ بذلت جيوش غربية مسيحية من نوع آخر جهوداً أكثر عنفاً واستمراراً، ولا تزال، للقضاء على الإسلام نفسه واقتلاعه من قلوب أتباعه وعقولهم وإعاقة غيرهم عن اتباعه[1].

وهذه الجيوش الأخيرة ثلاث فرق: فرقة المبشرين، وفرقة من المستشرقين، وفرقة من منافقي المسلمين سخرها هؤلاء وأولئك للقضاء على الإسلام، كقادة القاديانية والأحمدية والاسماعيلية وبعض المتشيعين للثقافة الغربية المسيحية ممن ينتمون إلى الإسلام بالاسم[2].

وقد عملت تلك الفرق على تذليل الصعاب أمام الجيوش الحربية المسيحية في شرقي أفريقية ومهدت لها الطريق. والتقت مصلحة الاستعمار مع أهداف تلك الفرق فمكن لها واعتمد عليها في بسط نفوذه في العالم

(١، ٢) محمد حسين هيكل: حياة محمد: ص ٩ ـ ١٢ (ط٩ سنة ١٩٦٥م)، ومحمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار: ص ٥٠٧ ـ ٨ (ط٤).

الإسلامي كافة وفي شرقي أفريقية على وجه الخصوص[١].

وقد صرح اليسوعيون بنواياهم، إذ قالوا: «ألم نكن نحن ورثة الصليبيين؟ أولم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيري والتمدين المسيحي، ولنعيد، في ظل العلم الفرنسي وباسم الكنيسة، مملكة المسيح؟»[٢].

جهود المبشرين للقضاء على الإسلام في شرقي أفريقية:

وسائل المبشرين:

إن الذين يعملون في حقل التبشير لا بد أن يدرسوا مناهج خاصة مبنية على تفهم روح الشعوب التي سيعملون بينها، وعاداتها ولغاتها وحضاراتها، ولذا وجدت مدارس خاصة لهذه المهمة منذ زمن بعيد في روما وباريس وطليطلة وغيرها، ثم في جوا بالهند، أضافت إلى مناهجها تدريباً عسكرياً للتبشير بالقوة، وشمل التدريس رهباناً وراهبات عملن في حقل التبشير، حتى اللواتي يظن أنهن قد نذرن أنفسهن لخدمة المرضى وتعليم الجاهلين ومواساة المساكين لسن سوى مبشرات، يشهد بذلك الواقع وما ذكره اليسوعيون في كتابهم المئوي الذي أصدروه في بيروت سنة ١٩٣١م، فقد جاء فيه:

«إن الأخوات لسن راهبات معلمات فقط، ولكنهن أيضاً راهبات مبشرات وفي كل مكان يوجدن فيه يعملن إلى جانب عملهن التعليمي أعمالاً تبشيرية»[٣].

---

(١) المرجعين السابقين: نفس الصفحات.

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص١١٧ (ط بيروت سنة ١٩٥٣م).

(٣) نقلاً عن مصطفى خالدي وعمر فروخ: المرجع السابق: ص ٤٢ - ٤٣.

ولقد ألفت لهم المراجع التي ترشدهم إلى طرق التبشير بين غير المسيحيين، منها على سبيل المثال لا الحصر، كتاب «طرق أو مناهج العمل التبشيري بين المسلمين Methods of Mission Work Among Moslems» الذي أصدره عدد كبير من كبار المبشرين والمستشرقين سنة ١٩٠٦م، وقد توفر كل واحد منهم على منهج معين، وهذه المناهج كما يلي:

١ - «اتصالات المبشرين بالمسلمين والوثنيين» من ، ص٢٣

٢ - «كيف نصل ونعلم المسلمين الأميين؟» من، ص٢٩.

٣ - «العمل بين المسلمين البسطاء»، من ص٤١.

٤ - «العمل بين المسلمين المثقفين، في القاهرة»، من ص٥٩.

أ - بين مدرسي المدارس الحكومية والأجنبية (التبشيرية).

ب - بين أساتذة جامعة الأزهر والجامعات الشرقية.

٥ - «كتب للمسلمين»، من ص٧٩.

٦ - «التبشير الطبي، أو البعثات الطبية»، من ص١٠١.

٧ - «العمل بين النساء»، من ص ١١٠.

٨ - «متنصرين مرتدين»، من ص١٢٨.

٩ - «شروط المعمودية»، من ص١٣٨.

١٠ - «كيف نكسب الشعوب الإسلامية، مثل الأتراك»، من ص١٥٨.

١١ - «تقديم العقائد المسيحية»، من ص١٧٣.

١٢ - «المجادلة في كل الظروف وفي جميع الأعمال»، من ص١٩٢.

١٣ - الاحتياج إلى الدعاء والتحايا»، من ص٢٠٥.

١٤ - «عادات مبشرين للمسلمين»، من ص٢١١.

١٥ - «حركة الطلبة والإسلام»، من ص٢٣١.

ولقد ركزوا اهتمامهم على لغة المحبة التي يفهمها كل الناس، أي اقناع الناس بأنهم يحبونهم ولذا فهم يعلمونهم دروساً كثيرة نافعة، وذكروا

أن من أكثر العوامل مساعدة استخدام الفانوس السحري، والتركيز على التعليم وانشاء المدارس الراقية واجتذاب أطفال المسلمين إليها[1].

واستخدم المبشرون جميع الطرق في سبيل التبشير واستغلوا جميع الظروف والمناسبات ليوصلوا تصويرهم المشوه للإسلام ونبيه إلى أجيال المسلمين جيلاً بعد جيل، وإلى غير المسلمين ليعوقوهم عن الدخول في الإسلام، فأنشأوا المدارس والكليات والجامعات والأندية الرياضية، وعقدوا الندوات وألفوا الكتب ونشروها، واستخدموا الصحافة ووجهوها لخدمة أغراضهم، وأسسوا المستشفيات وأقاموا المخيمات وأنشأوا دور النشر والطباعة، بل انهم مجمعون على أن جميع الوسائل يجب أن تستغل لخدمة التبشير حتى نقل الكتب من لغة إلى أخرى وأعمال السير المختلفة، وعمدوا إلى الرشوة يفسدون بها ضمائر الذين يستميلونهم[2].

ويكشف المنشور الذي أصدرته الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٠٩م رداً على احتجاج الطلبة المسلمين لاجبارهم على الدخول يومياً إلى الكنيسة ـ يكشف عن طابع هذه المؤسسة وأمثالها، فقد جاء في المادة الرابعة منه ما يلي:

«إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي، هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية، وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه. ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء. وكل هذا قد فعله هؤلاء، ليوجدوا تعليمًا يكون الإنجيل من مواده. فتعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ. . . وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يُطلب منه»[3].

---

(١) Methods of Mission work among moslems, PP. 30-31.

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار: ص ٤٣ و٤٥.
ومحمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث: ص٥١٩.

(٣) نقلاً عن مصطفى خالدي: المرجع السابق: ص١٠٨.

وقد أعلن مجلس أمناء الكلية في هذه المناسبة: «أن الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني، ولا لبث الأخلاق الحميدة، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي، وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به»[1].

ويسير المبشرون والمستشرقون في تحقيق هدفهم وفق خطط مدروسة بدقة يعقدون من أجلها المؤتمرات الدورية لتنسيق عملهم وتنظيمه، وقد عملوا فيها الدراسات وألقوا الاقتراحات والتوصيات ليحققوا من عملهم الثمرة المرجوة.

من ذلك تقرير مؤتمر «لكنو» عن «الإسلام والارساليات Islam and Missions, Report of Lucknow Conference. الذي جاء فيه: ص٨٢» المهم هو العمل الطبي والمدارس، لأن المسلمين يفهمون أن العلم الطبيعي عند الأوروبيين أكثر تقدماً منه عند الشرقيين.

والمسلمون يفهمون أهمية السكة الحديد والبواخر والتلغراف، ويطلبون التدريس الأوروبي، وفي ذلك نرى أهمية لاهوتية». ومن يذهب لتلقي العلم في جامعات الغرب المسيحي يحاضرونه عن المسيحية، ويعقدون له المقارنات بينها وبين الإسلام، ويفعلون ذلك أيضاً مع الطلاب المسلمين الذين يدرسون في الجامعات والمدارس التي أسستها أمم الغرب في بلاد المسلمين[2].

المبشرون والارساليات التبشيرية المسيحية في شرقي أفريقية:

كانت كنيسة الاسكندرية المرقصية هي التي توجه الحياة الروحية لمسيحيي الحبشة، بل هي إلتي نشرت المسيحية في الحبشة. وكانت مصر

(١) نقلاً عن: المرجع السابق: ص١٠٩.

(٢) مصطفى خالدي: التبشير والاستعمار: ص ٤٣ و٤٥ و١٠٨ - ١٠٩، ومجلة العربي عدد ربيع الثاني سنة ١٣٩٢هـ (بريد القراء).

تابعة للدولة الرومانية الشرقية. وحاولت بيزنطة أن تحول دون انتشار الإسلام في الحبشة بشتى الوسائل منذ ظهوره، فأرسلت الرهبان لنشر المسيحية والوقوف في وجه الإسلام، بل حرضت حكومة الحبشة أن تهاجم الدولة الإسلامية في الحجاز وأن تستولي على الحرمين[١].

وقام الأب دانيال (Daniel) أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ثم الرهبان المصريون بجهود جبارة لنشر المسيحية وإعاقة انتشار الإسلام. ويرجع الفضل إلى المطران المصري (الأب سلامة Salama الملقب بالمترجم) في وضع بذور المكتبة الدينية بالحبشة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)[٢].

ولما تولى يكونو أملاك (سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) أقطع كنيسة الحبشة ثلث أملاك الدولة، وأعان المطران على ادخال الوثنيين في المسيحية، وحارب المسلمين حروباً كثيرة وفرض عليهم الجزية[٣]. ونزح إلى الحبشة آنذاك جماعة من الرهبان الدومينكان. وبذل المبشر تكلا هيمانوت Takla Haymanot (ت بعد سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م) جهوداً كبيرة لنشر المسيحية في الحبشة وإصلاح الحياة الدينية والاجتماعية للمسيحيين الأحباش[٤].

ولقد أرسل البابا نيقولاي الثاني إلى يجبأصيون سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) خطاباً مع جان دومينكو الراهب يغريه بالتحول إلى كنيسة روما[٥]. ثم أرسل البابا نيقولاي الرابع راهباً دومينكانيا، يدعى وليم آدم (سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م) طاف بفارس وعدن وشرقي أفريقية والحبشة. وأرسل البابا يوحنا الثاني والعشرون سفارة من الرهبان الدومينكان إلى

(١) القلقشندي: جـ٥ ص٣٠٨ ـ ٣٠٩، وسعيد عاشور: ص٨ وما بعدها.
(٢) فتحي غيث: الإسلام والحبشة: ص ٦٢، ٦٤، وسعيد عاشور: ص ١٠ ـ ١١.
(٣) Budge: Op. Cit; Vol; 1, p. 285
(٤) سعيد عاشور: المرجع السابق ص١٨، Trimingham: Op. Cit. P.65
(٥) زاهر رياض: العصر الأول من الأسرة السليمانية: ص ٢٢.

الحبشة (سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م). وأرسل ملك فرنسا إليها سفارة أخرى من الرهبان الدومينكان (سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م) وإن كانت السفارتان الأخيرتان قد وقعتا في قبضة المماليك في مصر[١]. على أن هذا لا يمنع وصول طوائف أخرى من المبشرين الذين بشروا بالمسيحية وأثاروا ملوك الحبشة لاضطهاد المسلمين ووقف انتشار الإسلام، مثلما فعل المبشر أوسطاطيوس Ewostatewos (ت بعد سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) فقد بنى الأديرة ونشر المسيحية[٢].

وقد وافق ملك الحبشة زرء يعقوب (٨٣٧ - ٨٧٢هـ/ ١٤٣٤ - ١٤٦٨م)، على ربط كنيسة الحبشة بكنيسة روما في نظير مساعدة البابا روحياً ومساعدة الدول الغربية المسيحية مادياً، وأرسل راهبين من دير الأحباش بالقدس حضرا مجمع فلورنسة الديني الذي تقرر فيه أن تتعاون دول الغرب المسيحية مع دولة الحبشة روحياً وعسكرياً واقتصادياً ضد المسلمين بعد أن فشلت الغارة الصليبية عليهم، وسمح للأحباش ببناء دير لهم ملحقاً بكنيسة روما، وحضر إلى الحبشة كثير من الرهبان المصريين والسريان[٣].

ولقد وضع هنري الملاح - الأستاذ الأعظم لجماعة رهبان المسيح - خطة استراتيجية كبرى لتطويق العالم الإسلامي وضربه من الخلف والقضاء على المسلمين أو تنصيرهم؛ وبدأ منذئذ تبشير بالمسيحية واسع النطاق؛ إذ كان سلطان البرتغاليين في الشرق قائماً على مراسيم الآباء: كاليكسيتوس الثالث ونيقولاس الخامس والاسكندر السادس، والتي تقسم الأراضي المكتشفة آنذاك بين البرتغال وأسبانيا، وتفرض على ملكي

---

(١) سعيد عاشور: ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) Trimingham: P.66.

(٣) Budge: Op. Cit; Vol. 1., PP. 311, 319-20 and Trimingham: Islam in Ethiopia, P. 76- note 2.

الدولتين عبء نشر الديانة المسيحية فيها، مما جعل الملك البرتغالي وموظفيه يظهرون نحو التنصير حمية وحماساً، بل أخذ الملك على عاتقه رعاية مصالح الكنيسة في البلاد المكتشفة حديثاً، ودفع كل نفقات تـأسيس الكنائس والنظام الكنسي بالشرق. بل أصدر تعليمات إلى نائبه بالشرق الإسلامي أن يتخذ أقصى أنواع الإجراءات لاستئصال شأفة الكفرة، ومنح المتنصرين امتيازات خاصة مما ترتب عليه اضطهادات دينية قاسية ومحاكم للتفتيش، فأُلقي في النار كل من أبى التنصر من المسلمين[١].

ولم يكن إكراه البرتغاليين وإجبارهم لسكان شـرقي أفريقيـة على اعتناق المذهب الكاثوليكي ليقف عند حد المسلمين والوثنيين، بل تعداه إلى اليعاقبة الأحباش[٢].

ومنذ استقر البرتغاليون في شرقي أفريقية في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) عملوا بكل الوسائل على أن يقضوا على الإسلام وحضارته، وأن ينصروا المسلمين، فقد ألف «سان فرنسوا اكزافييه» أول طائفة دينية أخذت على عاتقها نشر العقيدة الكاثوليكية، وأنشأ لها مراكز دينية بالساحل الشرقي لافريقية. وألف «سان دومينيك» طائفة ثانية واتخذ لها مراكز في موزمبيق، ثم أعقبتها طائفة (الأوجستان)، واتخذت في منبسى مركزاً لها، ثم طائفة (الآباء اليسوعيين)، الذين انتشروا في أنحاء العالم، وأنشأوا مراكز عديدة في موزمبيق وعلى ضفاف نهر (كواما)، وهم أول من سعى لمد نفوذهم داخل القارة بالطرق السلمية من جهة الشرق، فأنشأ الأب (جونسالف دي سلفيرا) ـ من طائفة الجزويت البرتغاليين ـ عدة مراكز في مملكة «مونوموتابا»(*)، واستـطاع أن ينصر شخص الحـاكم ووالدتـه

(١) بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية ص ٣٩٤ وما بعدها.

(٢) Trimingham: Op. Cit. P.98.

(*) وكانت تقع هذه المملكة في موقع روديسيا الحالية تقريباً.

وبعض أفراد حاشيته (٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م) لكن الحاكم سرعان ما ارتد، وقتل من أغراه بالتنصر، بل وقتل كل الذين تنصروا[١].

وبمجرد أن وطد البرتغاليون سيطرتهم على منبسى توالت طوائف المبشرين من الجزويت والدومينكان، وبنوا الكثير من الكنائس في مدن كثيرة على امتداد الساحل وفي الحبشة[٢]، فقد كان بمدينة (صيونة) ـ على صغر حجمها ـ أربع كنائس، وكان سكانها ثلاثين برتغالياً متزوجين ومسلحين، ولدى كل منهم ما بين ثلاثين وخمسين عبداً. وقد نصر البرتغاليون بعض هؤلاء العبيد، وإن كان هذا التنصير شكلياً فقط كما ذكر المؤرخ (ريزند)[٣]. وكان في كل من (امبازا في جزيرة باته) وجزيرة (زنجبار) كنيسة، يتولى شؤونها قس من طائفة (سان أوجستان)، بل كان شيخ زنجبار مكلفاً بحماية الديانة الكاثوليكية فيها[٤].

وكانت بموزمبيق إدارة للشؤون الدينية تابعة لمركز (جوا) الرئيسي، امتد نفوذها حتى شمل جميع أنحاء أفريقية الشرقية كلها، بما فيها الحبشة. وأنشئت بأرجائها الكنائس والأديرة العديدة ومراكز التبشير المختلفة لتحويل المسلمين والوثنيين إلى الديانة الكاثوليكية[٥]، وأرسلت البرتغال أعداداً كبيرة من القساوسة الجزويت للاضطلاع بتلك المهمة[٦].

ولكي يطبع البرتغاليون الساحل الشرقي لافريقية بالمسيحية أخذوا يوسف بن الحسن بن أحمد ـ ابن حاكم مالندة الموالي لهم ـ ، وأرسلوه إلى

(١) جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية: ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) جمال زكريا قاسم: استقرار العرب في ساحل شرق أفريقية، بحث بحوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر) ص٣٢٧.

(٣) نقلاً عن جيان: المرجع السابق: ص٣٣١.

(٤) جيان: المرجع السابق: ص ٣٤٢ و ٣٤٤.

(٥) جيان: المرجع السابق: ص ٣٣٦.

(٦) Trimingham: Op. Cit. PP. 98-99.

(جوا) وعهدوا بتربيته إلى طائفة الأغسطين الذين نصروه، وسموه بـ «دون جيرونيمو»، وسلموه السلطنة في (منبسى) بعد أن قتلوا أباه، لكنه سرعان ما أظهر الإسلام وقتلهم جميعاً[1].

وفي (١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م) استطاع عرب عُمان أن يطردوا البرتغاليين من شرقي أفريقية، وأن يؤسسوا سلطنة زنجبار، لكن كلاً من بريطانيا وألمانيا استطاعتا أن تخضعا تلك السلطنة لسلطانيهما، متذرعتين بمحاربة تجارة الرقيق، وعمل المبشرون الانجليز والألمان بل الأوروبيون بعامة، على كشف القارة الافريقية لفتحها للتبشير بالمسيحية ولوقف انتشار الإسلام، وللاستحواذ على ثرواتها، وسلكوا في توغلهم طرق القوافل العربية، واستعانوا بأدلاء من العرب والسواحلية المسلمين[2]، ذلك أن القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) قد شهد تسابق أمم الغرب المسيحية على استعمار بلاد المسلمين ونهب ثرواتهم واخضاعهم لنفوذها كما شهد نهضة في الكنائس البروتستنتية والكاثوليكية، وحماساً شديداً لنشر المسيحية في العالم كله، وغلب على ذلك الطابع الجماعي؛ فنشأت جمعيات تبشيرية لتنظيم العمل وتعضيده في الكنائس البروتستنتية، كما قامت جماعات الرهبان بتعضيد من الهيئات الكنسية الكاثوليكية بنفس النظام[3].

وكانت جمعية الكنيسة التبشيرية التي أسست في لندن سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م باسم جمعية الارساليات إلى أفريقية والشرق، هي أولى الهيئات البروتستنتية الإنجليزية، التي اهتمت بالتبشير في أفريقية الشرقية والوسطى، فأنشأت أول مركز تبشيري لها في (راباي) بالقرب من منبسى

---

(١) جمال زكريا قاسم: استقرار العرب: المرجع السابق: ص٣٢٧.

(٢) حراز: أفريقية الشرقية: ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) يوسف عبده: الكنيسة والحركات القومية: ص١٧.

(١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م)، بعد طرد البرتغاليين من المنطقة، إذ كان كرابف المبشر الألماني قد رأس بعثة تبشيرية إلى الحبشة، وحاول (فرستراتد: Frustrated)، وهو يبشر بالمسيحية بين قبائل الجالا في مملكة شوة، أن يحصل على تصريح له من المركز الرئيسي ليعمل بين نفس القبائل من قاعدة في الجنوب الشرقي في (منبسى)، وأرسل (ريبمان) (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م)، ثم ايرهارد (١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م)، ليلحقا بكرابف في راباي، لكن هؤلاء المبشرين الثلاثة الألمان - رواد الجمعية الأوائل - لم يحرزوا تقدماً بين قبائل الجالا ولا قبائل الوانيكا الذين جاوروهم في (راباي)[١].

وكان (لورد ابردين) - وزير خارجية بريطانيا - قد أعطى (كرابف) خطاب توصية إلى سلطان زنجبار، السيد سعيد بن سلطان، فرحب به وأعطاه خطابات توصية إلى ولاته بالساحل الشرقي، يدعوهم إلى تقديم المساعدة إلى «هذا الرجل الطيب الذي جاء يدعو لله»، مما ترتب عليه أن استعان كرابف بقاضي (لامو) المسلم، في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السواحلية، وأن نزل بأرض قبيلة (وانيكا) الوثنية - فيما وراء منبسى - التي كانت تدين بالولاء لسلطان زنجبار[٢].

ولقد اتخذ (كرابف) وزميلاه من (راباي) قاعدة للتوغل داخل القارة لاقامة مراكز للتبشير بها، وعملوا على دراسة اللغات الافريقية، ووضعوا معاجم للسواحلية والنياسا والوانيكا في محاربة الإسلام والقضاء على نفوذ العرب المسلمين داخل القارة، بخاصة (كرابف) الذي بذل جهوداً كبيرة للإطاحة بنفوذ التجار العرب في مملكة (أوسمبارا) الأفريقية، إذ كان ملكها (كيموري) يرحب بهم في عاصمته (فوجا)؛ ويستعين بمستشارين منهم في

---

(١) Stock, E: History of Church Missionary Society, Vol. 1, P. 71 and Oliver, R: The Missionary Factor in East Africa, PP. 5-6.

(٢) Krapf, L. Travels, Researchés and Missionary Labours, PP. 127 — 132.

بلاطه؛ فأخذ كرابف يحرضه على طردهم والاستعانة برجال دين مسيحيين محلهم[1].

وأرسلت جمعية الكنيسة التبشيرية ستة مبشرين ألمان سنة ١٨٥١م، إلى مركز (راباي) بصحبة كرابف عند عودته إلى منبسى. وبالرغم من ذلك لم يحرز مركز (راباي) التبشيري نجاحاً يذكر في جذب الأفريقيين إلى المسيحية[2].

ولما زار (بارتل فرير) زنجبار سنة ١٨٧٣م، أوعز إلى جمعية الكنيسة التبشيرية؛ فأنشأت مستعمرة للرقيق المحررين، في السهل الساحلي المقابل لمنبسى، أطلق عليها «فرير تاون: Freretown»، نسبة إلى بارتل فرير. وبدأت تلك المستعمرة أعمالها، تحت إشراف المبشر بريس W.S.Price، منذ (١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م)، وراح مبشروها يشجعون العبيد على الهرب من سادتهم والاحتماء بالمستعمرة التي كانت ترحب بهم، وتمنحهم حماية الجمعية، ثم تنصرهم وتهيئهم للعمل في مزارع الأوروبيين، كما كانت تستقبل الأرقاء المصادرين من الداوات العربية على أيدي البحارة الانجليز، فتعلن تحررهم على الفور، ثم تنصرهم وتدربهم على العمل اليدوي، ثم ترسلهم بعد ذلك إلى المستعمرات البريطانية[3] ولم تلبث جمعية الكنيسة أن مدت نشاطها إلى مملكة بوغندة أيضاً.

وكانت جمعية لندن التبشيرية قد أرسلت أكثر المبشرين الأوروبيين حماساً ونشاطاً «دافيد ليفنجستون» الطبيب الاسكتلندي (١٢٢٨ ـ ١٢٩١هـ/ ١٨١٣ ـ ١٨٧٤م)، إلى جنوبي أفريقية (١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م) فزار مركز (كورمان) التبشيري التابع لها والذي أنشأه المبشر

---

(١) حراز: أفريقية والاستعمار الأوروبي: ص ١٤٤ ـ ١٤٥، .Oliver, R: OP. Cit., PP. 6 - 8

(٢) Oliver: Ibied, P. 8.

(٣) Stock, E. History of the church Missionary Society Vol; 3, P.19.

(موفات) ببتشوانا لاند منذ ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م تقريباً، وتجول شمالاً لمدة عامين، اقتنع خلالها بأن نجاح التبشير ليس بعدد المتنصرين المشكوك في هدايتهم، بل بإخضاع أفريقية لنفوذ المسيحية والتمكين للسيطرة الأوروبية على شعوبها والاستحواذ على ثرواتها وتجارتها؛ فكرس جهوده لهذا الغرض، وظل يطالب مجلس الشيوخ البريطاني للعمل من أجل ذلك ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م، فقوبل باستجابة وحماس شديدين في بريطانيا؛ لأن آراءه كانت تجمع بين الكسب المادي وبين نشر المسيحية والقضاء على الإسلام(١).

وقد أقام ليفنجستون أول مركز تبشيري له في وادي مايوتسا ـ أحد منابع نهر لمبوبو بعيداً عن كورمان شمالاً بشرق بحوالى مائتي ميل تقريباً ـ وأحضر اليه زوجه (ماري) ابنة المبشر (موفات)، ثم انتقل إلى (تشونوان) التي تبعد أربعين ميلاً شمالاً (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م)، حيث أسس مركزاً تبشيرياً جديداً، عمل فيه مع زوجه على جمع الأطفال الأفريقيين وتربيتهم على مبادىء المسيحية، إلا أن قبائل (البوير) الفارين من سطوة الحكم الإنجليزي في (ناتال)، نهبت مركزه التبشيري واسترقت الأطفال الموجودين فيه. فأخذ يتجول شمالاً للبحث عن مكان آمن ليعمل فيه، وليكشف مجاهل القارة للمبشرين، فاخترق صحراء كلهاري حتى وصل بحيرة (نجامى) ونهر الزمبيزي، وأخذ يبحث عن مكان صحي ببلاد الماكو لولو سنة ١٨٥٠م، ليقيم فيه مركزاً تبشيرياً، لكن مرض زوجه وأولاده جعله يرحلهم عن طريق الكاب الى انجلترا سنة ١٢٦٨ هـ/ ١٨٥٢م، وعاد هو الى نهر الزمبيزي، حيث وصل الى بلاد الماكولولو، ثم اخترق القارة الأفريقية من لواندة على الساحل الغربي الى كليماني على الساحل الشرقي. وذلك في الفترة من عشرين من سبتمبر سنة ١٨٥٤ م حتى عشرين من مايو ١٨٥٦ م (١٢٧٢ هـ)(٢).

---

(١) Oliver, R. The Missionary Factor in East Africa, PP. 10-13.

(٢) The Combridge History of the British Empire, Vol. 2 P.628.

ولما عاد ليفنجستون إلى انجلترا في ١٢ من ديسمبر سنة ١٨٥٦م، (١٢٧٣هـ) استقبل هناك استقبال الأبطال من جميع الهيئات العلمية والجامعات والصحافة والرأي العام أيضاً، وألقى خطاباً في جامعة (كمبريدج) أعلن فيه أنه سيعود إلى أفريقية ليفتح طريقاً للتجارة وللمسيحية إلى وسط القارة أو يهلك، وانتهز فرصة موجة الحماس الذي غمر بريطانيا - والذي أثاره نشر مؤلفه «رحلات تبشيرية وأبحاث في جنوبي أفريقية»(*) - فدعا بني وطنه إلى مساعدة الشعوب الأفريقية المتأخرة والمنكوبة؛ فاستجابت لدعوته الحكومة والشعب معاً، إذ حصلت حكومة (لورد بلمرستون) الأولى (١٢٧١ - ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٥ - ٥٨م) على موافقة مجلس العموم (١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م) على تخصيص مبلغ خمسة آلاف جنيه، لتمويل وتجهيز حملة بقيادة (ليفنجستون)، لاستكشاف أفريقية الشرقية الوسطى، ثم عينته الحكومة البريطانية قنصلاً لها في ساحل افريقية الشرقي والأقاليم المستقلة في الداخل ووصل مصب نهر الزمبيزي في ١٤ من يوليو سنة ١٨٥٨م/ (١٢٧٤هـ)، ليقود حملة الزمبيزي، التي كانت تضم ستة مساعدين منهم الدكتور (جون كيرك) - بوصفه طبيباً وعالماً من علماء النبات، والذي عين قنصلاً عاماً لبريطانيا في زنجبار فيما بعد ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م - وشقيق ليفنجستون «تشارلز» وحاول ليفنجستون وزملاؤه الصعود في النهر ملاحة للبحث عن مكان صحي في المرتفعات الداخلية، يقيمون فيه محطة مركزية للمبشرين وللتجار الأوروبيين، لكنه لم يجد، فقضى عام ١٨٥٩م (من منتصف سنة ١٢٧٥ - منتصف ١٢٧٦هـ تقريباً) في استكشاف نهر شيري - أحد روافد الزمبيزي - ومرتفعات شيري وبحيرتي شيروه ونياسا، فأعجب بمناخ مرتفعات شيري المعتدل، وكتب إلى الحكومة البريطانية يحثها على إنشاء مستعمرة بريطانية فيها، وحض

(*) «Missionary Travels and Researches in South Africa» «London 1857».

المبشرين والتجار الأوروبيين على المجيء إليها، فكانت الاستجابة السريعة لدعوته هي إرسال الأسقف (مـاكينزي) (١٢٤٠ - ١٢٧٩هـ/ ١٨٢٥ - ١٨٦٢م) ونفر من المبشرين التابعين «لإرسـالية الجـامعات إلى افـريقية الوسطى»، ليقيموا مركزاً للتبشير بالمسيحية في الجهـات التي اكتشفها ـ، ووصـل ماكينـزي وزملاؤه في ينـاير سنـة ١٨٦١م (١٢٧٧هـ) أفريقيـة الشرقية، وأنشأوا في يولية أول مركز للتبشير يخص الإرسالية في (موجومرو) جنوبي بحيرة (شيروه)[1].

واستقبـل ليفنجستون زوجـه ماري، عنـد مصب الزمبيـزي، في الثلاثين من يناير سنة ١٨٦٢م (١٢٧٨هـ) وكانت قد حضرت مع سيدات إرسالية الجامعات ومعهن اجزاء «ليدي نياسا» زورق بخاري قد عمل لليفنجستون في بريطانيا ـ وعندما بلغت سيـدات الإرساليـة مصب نهر (رور) ـ أحد فروع نهر شيري ـ أذهلهن نبأ وفاة الأسقف ماكينزي ومبشر معه، بالملاريا، ثم انسحب مركز إرسالية الجامعات التبشيرية من منطقة نياسا إلى زنجبار أوائل عام ١٨٦٣م[2] (١٢٧٩هـ).

وفي الوقت الذي كان ليفنجستون يقوم فيه بـاستكشاف حـوض الزمبيزي خلال رحلته الثانية (١٢٧٦ - ١٢٨١هـ/ ١٨٥٨ - ٦٤م) كانت هناك بعثات كشفية أخرى تعمل في منطقتي: تنجانيقا وأوغنده، وكانت أولاها بقيادة الكابتن (ريتشارد فرنسيس بورتـون) (١٢٣٦ - ١٣٠٧هـ/ ١٨٢١ - ٩٠م) ـ أحد ضباط جيش بريطانيا بالهند، وكان قـد زار مكة والمدينة متخفياً في زي تاجر هندي مسلم خلال موسم الحج ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م ـ واصطحب معه ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤، الملازم (جون هاننج سبيك ١٢٤٤ - ١٢٨١هـ/ ١٨٢٧ - ٦٤م)، وقد حاولا التـوغل من (بـربرة)

(١، ٢) حراز: أفريقية الشرقية: ص ١٤٩ - ١٥٣،

Oliver, R. The Missionary Factor in East Africa PP. 11-13.

لاستكشاف بلاد الصومال سنة ١٨٥٥ لكن الصوماليين شنوا عليهما هجوماً جرحا فيه، ولاذا بالفرار.

وقررت الجمعية الجغرافية الملكية بلندن ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م، ارسال حملة كشفية للبحث عن البحيرات العظمى، ووقع اختيارها على (بورتون) ليتولى رئاستها، وعلى (سبيك) مرافقاً له، وزودتهما بالمال والعتاد بمساعدة وزارة الخارجية وشركة الهند الشرقية والجمعية الجغرافية[1]. فوصلا إلى زنجبار عام ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٦م، وأذن لهما (سلطانها ماجد بن سعيد) ليقوما بتلك الرحلة، بل وزودهما بخطابات توصية إلى العرب المقيمين بالمراكز التجارية الداخلية فقاما برحلة قصيرة، زارا فيها (كيموري) في عاصمة (فوجا)، ثم عادا إلى زنجبار، وبدآ رحلتهما من (باجامويو) في ٢٧ من يونيه سنة ١٨٥٧م (١٢٧٣ هـ) متوجهين غرباً، عبر طريق القوافل العربية حتى وصلا إلى (طابورة) في ٢٧ من نوفمبر. ولما علما من عرب طابورة وجود ثلاث بحيرات عظمى في أفريقية الشرقية هي: فكتوريا، وتنجانيقا، ونياسا - استأنفا رحلتهما غرباً حتى وصلا إلى (أوجيجي) على بحيرة تنجانيقا، في فبراير سنة ١٨٥٨م (١٢٧٤ هـ)، ثم عادا إلى طابورة، حيث طلب (بورتون) من (سبيك) أن يتحقق مما رواه لهما عرب طابورة، عن وجود بحيرة أعظم وأكبر من بحيرة (تنجانيقا) جهة الشمال. فسافر شمالا حتى رآها، في يوليه سنة ١٨٥٨م (١٢٧٤ هـ). وأسماها بحيرة (فيكتوريا). ثم عاد إلى طابورة، وأبلغ (بورتون) - الذي كان مشغولا بجمع معلومات تفصيلية عن المنطقة وسكانها - عنها. ثم عادا إلى عدن، حيث سافر (سبيك) إلى انجلترا، وأبلغ (موشيزون) رئيس الجمعية الجغرافية الملكية - نبأ اكتشافه بحيرة فيكتوريا. لكن سرعان ما كلف الأخير (سبيك) بقيادة حملة ثانية للتأكد من أن النيل ينبع منها.

---

(١) Coupland, R.: The Exploitation of East Africa, P. 106.

وأسهمت وزارة الخارجية البريطانية وشركة الهند الشرقية والجمعية الجغرافية الملكية بالمال والأسلحة والذخائر اللازمة للحملة[1].

ووصل (سبيك) بصحبة صديقه (جيمس أغسطس جرانت) (١٢٤٢ - ١٣٠٩ هـ/ ١٨٢٧ - ٩٢م) الى زنجبار في أغسطس سنة ١٨٦٠ م (١٢٧٧ هـ)، حيث غادرا الساحل إلى الداخل عبر طريق القوافل العربية المؤدي إلى طابورة ثم سارا شمالا حتى دخلا مملكة (راكارا جوي) فاستقبلهما ملكها (رومانيكا) وأسرع بإبلاغ (متيزا) كاباكا بوغنده عن وصول رحالين أوروبيين إلى مملكته، فأرسل الأخير رسالة عاجلة يدعوهما لزيارة بلاده. فذهب (سبيك) إليه وحده متتبعاً الشاطىء الغربي لبحيرة فيكتوريا، حتى وصل (باندا) عاصمة (متيزا) في ١٩ من فبراير سنة ١٨٦٢م (١٢٧٨ هـ)، ثم أرسل (متيزا) حمالين من عنده لاحضار (جرانت) على محفة لمرضه، في شهر مايو، وبذلك كان (سبيك)، و(جرانت) أول أوروبيين دخلا مملكة بوغنده[2].

ومنذ وصل سبيك إلى باندا ظل يحدث متيزا عن المسيحية ومبادئها، لكن متيزا لم يستجب لدعوته، لأنه كان قد درس القرآن وعرف كثيراً عن مبادىء الإسلام من التجار المسلمين ولذلك عمل سبيك على تقويض نفوذ العرب المسلمين ومحاربة الإسلام، في تلك المملكة، بإرسال المبشرين إليها، واتخاذها نقطة بداية لنشاط تبشيري واسع النطاق في أفريقية الوسطى. وراح - بعد عودته الى انجلترا (١٢٨٠ هـ) سنة ١٨٦٤م يروج لمشروع إنشاء مستعمرة تبشيرية في الممالك الاستوائية، فكتب في ١٨ من فبراير سنة ١٨٦٤م (١٢٨٠ هـ) - موجها أنظار هيئات التبشير البروتستنتية إلى تلك الممالك قائلاً: «إلى هذه الأقاليم، وعلى وجه الخصوص، في ممالك: أونيورو، وكاراجوي، وأوغنده. يجب على جميع ارساليات الكنيسة

(١، ٢) حراز: أفريقية الشرقية: ص ١٥٣ وما بعدها.

أن تـوجه بصفـة خاصـة انتباههـا، لأنها سوف تجـد ملوك (داهومـا)، المنحدرين من سلالة الأحباش المسيحيين القدامى، أقوياء بما فيه الكفاية لحمايتها، ولسوف تجد أيضاً خصوبة في التربة تكفي لسد حاجتها، وشعباً ثرياً لدرجة تسمح له بالاستغناء عن الـوقت الذي يقضيـه أطفالـه في التعليم»[1].

ولقد أثرت كتابات سبيك تأثيراً كبيراً، فكلفت الجمعية الجغرافية الملكية - بإيعاز من حكومة بريطانيا - ليفنجستون بالعودة إلى أفريقية، ليعمل قنصلاً لبريطانيا في وسط أفريقية، من حدود مصر وأثيوبيا حتى حدود أفريقية الشرقية البرتغالية، وزود بسلطات رسمية للتعامل مع الزعماء المحليين في تلك المنطقة وكلف بقيادة حملة ليعرف المزيد عن منطقة منابع النيل[2].

ولما وصل ليفنجستون زنجبار في ٢٠ من يناير سنة ١٨٦٦م (١٢٨٢ هـ) أخذ يعد العدة لرحلته الأخيرة إلى داخل القارة، ثم بدأ رحلته هذه في ٦ من أبريل من (مكنداني)، فبلغ الشاطىء الشرقي لبحيرة نياسا، في أغسطس، حيث لف حولها من الجنوب ثم قصد الطرف الجنوبي لبحيرة تنجانيقا. ولما وصلها اتجه صوب الغرب، حتى وصل نهر الكنغو الأعلى، ثم رجع إلى أوجيجي، ثم رجع إلى (نيا نجوى) على نهر الكنغو الأعلى، ثم عاد الى (أوجيجي) في ١٣ من أكتوبر سنة ١٨٧١م (١٢٨٨ هـ)، حيث قابله فيها - بعد قليل - (هنري مورتون ستانلي) ١٢٥٧ هـ ١٣٢٢ هـ/ ١٨٤١ - ١٩٠٤م)، المحرر بصحيفة (نيويورك هيرالد) والذي أرسلته الصحيفة، في حملة للبحث عنه.

وكان ستانلي قد اشترك بحملة في الحرب الدائرة بين قبيلة (أينا مويزي) الافريقية وبين التجار العرب المسلمين في المنطقة، ثم وصل بها

(١) نقلاً عن حراز: أفريقية الشرقية ص ١٦٠.

(٢) Coupland, R.: The Exploitation of East Africa, PP 122-5.

في ١٠ من نوفمبر إلى (أوجيجي). حيث قابل ليفنجستون، وأبلغه أن الرأي العام الأوروبي يتتبع بشغف زائد أخبار جولاته في أفريقية، وأن الجمعية الجغرافية تبدي اهتماماً بالمناطق المحيطة ببحيرة تنجانيقا، وسلمه الرسائل التي كان يحملها له من الوطن، وكميات وافرة من الدواء والزاد والعتاد، ثم اكتشفا معاً الطرف الشمالي لبحيرة تنجانيقا، ثم عادا إلى طابورة، حيث عاد (ستانلي) إلى الساحل وذهب (ليفنجستون) لاسكتشاف منطقة توزيع المياه بين أعالي النيل والكنغو، حيث مات في الطريق ثم نقل جثمانه إلى زنجبار، ومنها إلى لندن حيث دفن بمقبرة العظماء (بوستمبر أبي)[١].

ولم يلبث (ستانلي) أن قاد حملة كشفية أخرى إلى وسط أفريقية استغرقت سنتين وتسعة أشهر، ولما وصل إلى زنجبار، غادرها - في ١١ من نوفمبر سنة ١٨٧٤م (١٢٩١ هـ) - إلى باجامويو، حيث اتجه منها إلى بحيرة فيكتوريا، فوصل إليها في فبراير سنة ١٨٧٥م (١٢٩٢ هـ). وزار (متيزا) كاباكا بوغندة في أبريل سنة ١٨٧٥م (١٢٩٢ هـ) في عاصمة (روباجا) حيث شرح له مبادىء المسيحية وحاول استمالته اليها، وخوفه من ازدياد نفوذ مصر في أعالي النيل، وأنها ستحتل بلاده، وترك معه صبياً يدعى (النجتون) ليلقنه مبادىء المسيحية، وصار هذا الصبي يحدث الكاباكا عن قوة الانجليز وسطوتهم، وأنهم الملاذ والحمى له من قوة مصر التي تسعى لضم بلاده اليها، مما جعل (متيزا) يرحب بقدوم المبشرين الإنجليز إلى مملكته، لا رغبة في تنصير رعاياه، بل ليحصل منهم على الأسلحة النارية التي يستطيع بها مقاومة الزحف المصري، وليستخدمهم وسطاء لدى حكومة بريطانيا عند الحاجة إليها، ولهذا سرعان ما أرسلت جمعية الكنيسة التبشيرية كلًا من (سيرجولد سمث، وويلسون) إلى بوغندة

---

(١) Coupland, R.: The Exploitation of East Africa, PP. 122-5.

حيث أقاما مقراً للارسالية بجوار قصر الكاباكا، الذي فتحه لهما لالقاء مواعظهما الدينية له ولأفراد حاشيته. ولكنه لما لم يعطياه أسلحة نارية، أمرهما بنقل مقر الارسالية إلى (نانتي) على بعد ميلين من القصر، ولم يسمح لهما بمزاولة أي نشاط تبشيري، بل ومنع الطعام عنهما[١].

ولقد عملت انجلترا بكل الوسائل على ابعاد نفوذ مصر عن شرقي أفريقية ووسطها لأنها ستعين على انتشار الإسلام وتسانده، وجندت لذلك الضباط الإنجليز الذين استعان بهم خديوي مصر إسماعيل في فتح تلك الجهات، كغوردون وغيره، حتى يتسنى للنفوذ المسيحي أن ينتشر ويتمكن هناك. بل أن (جون كيرك) - قنصل بريطانيا العام في زنجبار آنذاك - عمل بكل الوسائل من أجل ذلك، وأرسل إلى هنري رايت. . . يخبره عن اعتناق (متيزا) للمسيحية بفضل جهود رجال الإرسالية السالفة الذكر، ثم قال: «وإذا اعتنق متيزا المسيحية وعمل على انتشارها بين شعبه، فإن هذه الخطوة تبدو الفرصة الوحيدة والأخيرة لنا لإنقاذ أفريقية الوسطى من نفوذ الإسلام الذي يقطع علينا سبيل الرجاء. ولهذا السبب، إن لم يكن لغيره، يجب إبعاد المصريين عن المنطقة»[٢].

ومن أجل ذلك أيضاً عمل في شرقي أفريقية خمس إرساليات بروتستنتية إنجليزية[٣]:

الأولى: جمعية الكنيسة التبشيرية، التي سبق الكلام عنها، ولم تقصر نشاطها على مركز راباي التبشيري، ومستعمرة (فريرتون) للعبيد المحررين، بل مدت نشاطها إلى مملكة بوغندة أيضاً.

---

(١) حراز: أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي: ص ٣٦٠ - ٣٦٣.

(٢) نقلاً عن حراز: المرجع السابق: ص ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٣) أنظر: حراز: المرجع السابق: ص١٧٣ وما بعدها (بتصرف).

Coupland: Op. Cit. PP. 335-54.

الثانية: جمعية لندن التبشيرية، والتي عمل ليفنجستون في خدمتها، وقد قصرت نشاطها على المنطقة الممتدة بين الساحل وبين بحيرة تنجانيقا. وأرسلت أربع حملات متتالية، لاسكتشاف المنطقة واختيار الأماكن التي تصلح لإقامة مراكز للتبشير، وذلك فيما بين سنتي ١٨٧٩ و ١٨٨٤م. وقد نجح (ادوارد هور) قائد الحملة الأولى في الإقامة بأوجيجي، ثم أنشأت الجمعية مركزاً تبشيرياً لها في (أورامبو) عاصمة مملكة (أونيا مويزي) الأفريقية، والتي تبعد عن طابورة بخمسين ميلا، إلى الشمال الغربي من طابورة، ونقلت محطة (أوجيجي) سنة (١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٥ م) إلى مكان صحي، في جزيرة (كافالا) ببحيرة تنجانيقا.

الثالثة: إرسالية الجامعات في أفريقية الوسطى، وقامت بنشاط في منطقة نياسا، وانسحبت من مرتفعات (شيري) إلى زنجبار في أوائل عام ١٨٦٣م / ١٢٧٩ هـ كما ذكرت، وحاولت أن تمد نشاطها إلى المنطقة الساحلية المواجهة لزنجبار، غير أنها لم تنجح في اقامة محطة دائمة هناك إلا بعد أن تعين (ادوارد ستير سنة ١٢٤٣ - ١٢٩٩ هـ/ ١٨٢٨ - ٨٢م) أسقفاً للارسالية في زنجبار عام ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٥م، فقد قرر أن تقام المحطة عند (ماساس) التي تبعد عن (لندي) بضعة أميال صوب الداخل. وأقيمت المحطة في العام التالي، ونزل بها خمسة وستون من العبيد المحررين، تحت اشراف المبشر وليم برسفال جونسون (١٢٧٠ - ١٣٤٧ هـ/ ١٨٥٤ - ١٩٢٨م) وتوغل جونسون من ماساس غرباً حتى استقرت الإرسالية في منطقة بحيرة نياسا، عام ١٨٨٥ (١٣٠٢ - ١٣٠٣ هـ) واتخذت من جزيرة (ليكوما) محطة وقاعدة لها على الشاطىء الشرقي لبحيرة نياسا. وصار مبشروها يجوبون مياه البحيرة في زورق بخاري وضع تحت تصرفهم.

الرابعة: إرسالية الكنائس الحرة المتحدة الاسكتلندية، وقد اتخذت

مسرح نشاطها التبشيري على الشواطىء الغربية لبحيرة نياسا، إذ عرض المبشر جيمس ستيورات (١٢٤٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٣١ - ١٩٠٥م) - الذي عمل مع ليفنجستون أثناء حملة الزمبيري، سنة ١٨٦٢م (١٢٧٨ - ١٢٧٩ هـ) - على ارسالية الكنائس أن تقيم محطة تبشيرية «ذات طابع صناعي وتعليمي» في أفريقية الوسطى، تمجيدا لذكرى ليفنجستون - واختير أول موقع لها عند الطرف الجنوبي لبحيرة نياسا، وأخذت تمد نشاطها تدريجياً على طول الشاطىء الغربي، حتى اتخذت مقرها بالقرب من طرفها الشمالي، حيث أقامت مركزاً تبشيرياً ومدرسة ومستشفى ومؤسسة صناعية لتعليم الأفريقيين وسائل الزراعة والصناعة اليدوية وفقاً للأساليب الحديثة. وتولى إدارة تلك المنشآت جميعها المبشر والطبيب الشاب (روبرت لوز)[١].

الخامسة: إرسالية كنيسة اسكتلندة الرسمية، وقد أقامت محطة تبشيرية تابعة لها في مرتفعات (شيري) - وهي المنطقة التي كان ليفنجستون يحض المبشرين على العمل فيها - ،وغلب على هذه المحطة (الطابع الصناعي والتعليمي كغيرها من المحطات التبشيرية الاسكتلندية)[٢].

ولقد ساهم المبشرون الألمان في الحركة الكشفية والتبشيرية بالمذهب البروتستنتي في أفريقية الشرقية أيضاً - بالرغم من أن نشاطهم الأساسي كان موجها الى غربي أفريقية، ولم تؤسس جمعيات التبشير الألمانية مراكز لها في لامو ودار السلام إلا عام ١٨٨٧م (١٣٠٤ - ١٣٠٥ هـ). إذ من المعروف أن الرواد الثلاثة الأول في الحركة التبشرية والكشفية كانوا مبشرين ألمان - وهم كرابف وريبمان وايرهارد - وإن كانوا يعملون لحساب جمعية الكنيسة التبشيرية الإنجليزية. كما أرسلت هذه الجمعية أيضاً ستة مبشرين ألمان مع كرابف عند عودته إلى منبسى (١٢٦٧ هـ/ ١٨٥١م) وحضر

(٢،١) حراز: أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي: ص ١٧٥ (بتصرف).

الرحالة الألماني (ألبرخت روشر) إلى زنجبار (١٢٧٤ هـ/ ١٨٥٨م) مزوداً بتوصية من وزير الخارجية البريطانية (لورد كلارندون)، مما يدل على تكاتف دول الغرب المسيحية ضد المسلمين. وتوافد المبشرون الألمان على الحبشة وشرق أفريقية منذئذ، وانتشروا في كل مكان(١).

ولم يقتصر تبشير الغرب المسيحي في افريقية الشرقية على التبشير بالمذهب البروتستنتي بل بشر بالمذهب الكاثوليكي أيضاً، فقد ترتب على سقوط الرأس (سابا جاديس) ـ حاكم إقليم تيجري بالحبشة، والذي كان يعطف على الإرساليات البروتستنتية في أوائل العقد الثالث من القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجري) ـ أن فتح الباب على مصراعيه لتدخل كاثوليكي مختلط بالمطامع السياسية، إذ وفد المبشرون الفرنسيسكان الفرنسيون على الحبشة أفواجا، وقاموا بتأسيس الإرساليات الكاثوليكية، كما توافد عليها بعثات فرنسية أخرى، لدراسة إمكانياتها الاقتصادية ولغات أهلها وطبائعهم وعاداتهم وكل ما يخص حياتهم، مثل بعثات: «كومب» و«تايسيه» «والأخوان» دابادي (أنطونيو وأرنولد)» و«فيرا» و«جالينيه» وغيرهم(٢).

وقد ظهر المبشرون الكاثوليك في زنجبار سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م، وبعد ثلاث سنوات أنشأت جمعية الروح المقدس، مركزاً تبشيرياً لها في زنجبار، عرف بمركز الآباء السود، وفي سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، أنشأ آباء الروح المقدس مستعمرة للعبيد المحررين عند باجاموبو، وصار مبشروها يعملون على شراء العبيد وعتقهم بعد تنصيرهم مما أدى إلى انتعاش تجارة الرقيق آنذاك(٣).

---

(١) Coupland: The Exploitation of East Africa, PP 109-110. and Oliver: Op. Cit. p.8.

(٢) حراز: التوسع الإيطالي في شرق أفريقية، وتأسيس مستعمرتي أريتريا والصومال ص: ٤٩ (ط جامعة القاهرة سنة ١٩٦٠) (بتصرف).

(٣) Oliver, R.: The Missionary Factor in East Africa, P 20.

ولقد أصدر البابا (ليو الثالث عشر) في ٢٤ من فبراير سنة ١٨٧٨ ميلادية (١٢٩٥هـ) مرسوماً بإنشاء أسقفيتين لتتوليا التبشير بالعقيدة الكاثوليكية في أفريقيا الشرقية، وتختص إحداهما بالتبشير في منطقة بحيرة فيكتوريا، وتختص الثانية بالتبشير في منطقة بحيرة تنجانيقا، وتكونان تابعتين لأسقفية الآباء البيض في الجزائر برئاسة ليفجري[1]، ولهذا وصل أول فوج من الآباء البيض زنجبار التي سرعان ما غادرها إلى باجاموبو، حيث اتجه منها في شهر يونية سنة ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ)، إلى طابورة التي كانت أول محطة نزل بها. وكان هذا الفوج يتألف من عشرة مبشرين. اتجه نصفهم إلى الشمال الغربي جنوبي بحيرة فيكتوريا، واندفع نصفهم الآخر إلى بحيرة تنجانيقا[2]، حيث عمل المبشرون كل في المنطقة التي حددت له.

وساهم المبشرون الايطاليون في نشر المذهب الكاثوليكي في شرقي أفريقية بنصيب منذ أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي، وحضر إلى الحبشة مبشر عازاري إيطالي، يدعى جيزبي (يوسف) سابيتو (١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م) فنزل بمصوع، واستقر بمملكة تيجري، إذ سمح له الرأس (أوبي) - الذي خلف (سابا جاديس) في حكم هذه المملكة - بالنزول في مدينة عدوة حيث انضم إلى الأسقف الحبشي يعقوب، والأب «مونتيوري» في التبشير بالمذهب الكاثوليكي، وظلوا عدة سنوات. تركهم بعدها سابيتو، إذ ذهب إلى مصر ثم رجع ثانية إلى الحبشة سنة (١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م) وبصحبته مبشر عازاري إيطالي آخر، يدعى (جيوفاني: يوحنا ستيلا) حيث استقرا بالمنطقة الجبلية الواقعة بين البحر الأحمر ووادي بركة، والمتصلة بهضبة الحماسين الحبشية، حيث تعيش قبائل

(١) Attawater, D.: The White Fathers in Africa, P. 19.

(٢) Oliver, D.: Op. Cit. P. 48.

الحبب والمنسا في وادي أنسيبا(*)، والماريا والبوغوص غربيه. وبعد بضعة أعوام أصبح ستيلا الواعظ والحكم لسكان إقليم بوغوص[1].

وفي سنة ١٨٥٢م (٦٨ - ١٢٦٩هـ) استطاع المبشر الإيطالي «لورنزو جوجليلمو ماسايا (ماساجا)» أن يصل إلى بلاد الجالا - بعد رحلة مضنية، عبر مصر والسودان - حيث قام منذ وصوله وحتى سنة ١٨٦٣م، بتأسيس «محطات دينية ومراكز للدعاية الكاثوليكية» في هذه البلاد في «جودرو» و«لاجامارا» و«أفالو» و«جبرا»، وفي مناطق متعددة من أراضي الكافا. وجاب هذا المبشر جميع هذه البلاد ودرس أحوالها من النواحي الجغرافية والانشوجرافية واللغوية. وكان من نتيجة هذا النشاط التبشيري في شرقي أفريقية، أن تمتع المبشرون الإيطاليون بنفوذ كبير على السكان الوطنيين والزعماء السياسيين على السواء، مما جعل حكومة بلادهم تتطلع إلى استعمار تلك الأنحاء[2].

وعندما تم لإيطاليا استعمار أرترية والصومال الإيطالي انتشرت الإرساليات الإيطالية في تلك الأنحاء، وفي جميع أرجاء الحبشة وشرقي أفريقية، وأنشأت المدارس والمستشفيات والملاجىء، وعمل المبشرون الإيطاليون على نشر المذهب الكاثوليكي بين المسلمين والوثنيين معاً[3].

وقد نشط مبشرو الغرب المسيحي، واستخدموا كل الوسائل لجذب السكان إليهم وتنصيرهم، فدأبوا لسنين طويلة على إغراء العبيد على الهرب من سادتهم العرب والاحتماء بمستعمرة (فريرتون) التي أنشأتها جمعية الكنيسة التبشيرية بالقرب من منبسى، لإيواء العبيد المحررين وتنصيرهم وإعدادهم للخدمة في بيوت الأوروبيين ومزارعهم. وراح المبشرون يقيمون

(*) أحد فروع بركة.

(١، ٢، ٣) حراز: التوسع الإيطالي في شرقي أفريقية: ص ٤٩ - ٩٢

شعائر التنصير جهراً وعلى نطاق واسع، خصوصاً بعد أن وفر لهم ازدياد النفوذ البريطاني في سلطنة زنجبار ـ الحماية الكافية، وبعد أن وجدوا تساهلاً من حكومة زنجبار فباتوا يقيمون شعائر التنصير جهراً في سوق منبسى وغيره من الأماكن العامة. بل ان راهبات جمعية الكنيسة التبشيرية أكثرن من زيارة النساء العربيات والسواحليات في بيوتهن بغية تبشيرهن بالمسيحية[1].

وعندما قتل المبشران (سيرجولد سمث وأنيل) بجزيرة (أوكروى) جنوب بحيرة فيكتوريا سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، ثار الرأي العام الأوروبي المسيحي، وتوافدت جيوش المبشرين تباعاً على شرقي أفريقية وأوغندة، ومعهم خطابات توصية للعرب النازلين بالداخل من كل من سلطان زنجبار وكيرك قنصل بريطانيا العام في زنجبار[2].

فجاء إلى أوغندة عن طريق شرقي أفريقية المبشر (ماكي)، وعمل (ماكي روبلسون) على توطيد صلتهما بالكاباكا، وبكل من توسما فيه الرغبة في التنصر وتعلم القراءة والكتابة بالانجليزية من زعماء البلاد. وعلى أواخر عام ١٨٧٨م، إزداد عدد الباغندة الراغبين في تعلم القراءة والكتابة، بل أعلن (متيزا) في عيد الميلاد، أنه لن يعترض على ذهاب رعاياه إلى المبشرين بقصد التعلم[3].

ووصل فوج ثان من مبشري جمعية الكنيسة التبشيرية، عن طريق النيل إلى (روباجا) عاصمة أوغندة، في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٩م (١٢٩٦هـ). وكان هذا الفوج يتألف من (بيرسون وليتشفيلد والطبيب فلكين). وقد اجتازوا السودان بفضل المساعدات الكبيرة والحرس المصري

---

(١) Hamilton, Q : Prices of Zinj. The Rulers of Zinzibar, p.198.

(٢) Mackey: Mackey of Uganda, P. 112.

(٣) حراز: أفريقية الشرقية: ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

الكافي ـ الذي أمدهم به الضابط الانجليزي (غوردون) الحاكم العام للسودان من قبل حكومة مصر ـ بل إن غوردون أرسل إلى جميع رؤساء المحطات بالسودان الجنوبي أن يعاملوهم بكل احترام[١].

ووصل فوج آخر من مبشري جمعية الآباء البيض الفرنسية بالجزائر، من الجنوب إلى (عنتيب) في ١٧ من فبراير سنة ١٨٧٩م (١٢٩٦هـ) وكان يتكون من (لوردل، وأمانز)، ثم الأب (ليفنهاك) وآخرين معه[٢]. وهذه الجمعية كان قد أنشأها (ليفجري) أساساً لمناهضة الإسلام بالشمال الأفريقي، وكان يحلم بإقامة مملكة مسيحية بأواسط أفريقية تعيد أمجاد البابوية في العصور الوسطى[٣].

وبالرغم من المتاعب التي تعرض لها المبشرون الإنجليز من الكاباكا ومن رجال حاشيته، وعدم استجابته للمطالب التي تقدموا بها إليه، إلا أنهم استطاعوا إدخال الرعب في قلبه من التوسع المصري الإسلامي في أعالي النيل، وأقنعوه بضرورة محالفة بريطانيا للاحتماء بها مما جعله يرسل سفارة إلى بريطانيا بصحبة اثنين من المبشرين الإنجليز، ويتساهل مع المبشرين الإنجليز في تحقيق بعض مطالبهم التي رفضها من قبل. فأقطعهم بعض الأراضي ليتعيشوا على خيراتها، وسمح لهم بالاختلاط بالشعب، مما جعلهم يقبلون على تعلم لغة البلاد المحلية، ويترجمون بعض أجزاء من العهد الجديد إلى هذه اللغة[٤].

وكان غوردون قد عمل بإيعاذ من بريطانيا المسيحية على إبعاد النفوذ المصري الإسلامي عن إقليم البحيرات وأوغندة، محتجاً بأن مصر لم تعد

---

(١) حراز: المرجع السابق: نفس المكان.

(٢) Oliver, R.: The Missionary Factor in East Africa, PP. 45-7

(٣) محمد عبد المنعم يونس: أوغندة: ص١٠٤.

(٤) Thomas and Scott: Uganda, P. 19.

قادرة على الإنفاق على سياستها التوسعية وبأن تلك المناطق غير صحية، كما أن (كيرك) كان قد أبلغ (متيزا) بأن بريطانيا سوف تتدخل إذا اعتدت مصر على بلاده[1].

وأخذ مبشرون آخرون يفدون على أوغندة، وأحرز المبشرون البوتستنت والكاثوليك بعض النجاح في تنصير بعض الوثنيين، لكن موقفهم ساء في أخريات أيام (متيزا) بل ازداد سوءاً بموته وتولي ابنه (موانجا) عرش بوغندة في ١٠ من اكتوبر سنة ١٨٨٤م (١٣٠١هـ) فقد أظهر عداءه الشديد للمبشرين وقبض على ثلاثة صبية من أتباع الإرسالية البروتستنتية، وأحرقهم أحياء، بعد ثلاثة أشهر من ارتقائه العرش. وفي أكتوبر سنة ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) أمر باغتيال الأسقف (جيمس هاننجتون) أثناء عبوره إقليم (بوسوجا) قادماً من الساحل إلى بوغندة، لكن (هولمود) ـ قنصل بريطانيا العام في زنجبار من سنة ١٢٩٧ ـ ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨٨م ـ كتب رسالة إلى (موانجا) لكي يعامل المبشرين بالحسنى وبعث بها مع التاجر العربي سليمان بن زهير سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م[2].

وسرعان ما اتحد المسلمون والنصارى، وأطاحوا بموانجا، ونصبوا بدله (كيواوا) الابن الأكبر لمتيزا، وذلك في ١٠ من سبتمبر سنة ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) لكنه هضم المسلمين حقهم وصار ألعوبة في يد الزعيم الكاثوليكي (نيو نيتونو) الذي أصبح رئيساً للوزارة فثار المسلمون واستولوا على السلطة في ٢٢ من أكتوبر سنة ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) وأخرجوا المبشرين والمسيحيين جميعاً إلى مملكة (أنكولي) حيث عاشوا جميعاً في المنفى، كما طردوا المبشرين البروتستنت والكاثوليك إلى جنوب بحيرة فيكتوريا[3].

---

(١) Loc. Cit

(٢، ٣) Thomas and Scott: Uganda, PP. 23-4

ونصب المسلمون عليهم كاباكا هو (كاليما) بن متيزا. لكن (لوجارد) ممثل الاستعمار البريطاني قضى على القوة الإسلامية، وناصر المبشرين وهيأ لهم كل الوسائل لتنصير الباغندة؛ مما أتاح الفرصة للإرساليات التبشيرية لتنشىء لها مراكز في جميع أنحاء البلاد، وتوالى وفود المبشرين البروتستنت والكاثوليك على أوغندة وغيرها، وزاولت ولا تزال تزاول إرساليات الكنيسة الإنجلكانية نشاطها بصفة خاصة في أوغندة، وبونيورو، وتورو، وبوسوجا، وبوكيدي، والجون. وفي مقدمة هذه الإرساليات جمعية الإرساليات البريطانية. وقد أنشأت عدة مدارس خرَّجت كثيراً من الافريقيين الذين يقومون بمختلف الأعمال الكتابية والترجمة[١].

ويمثل الكنيسة الكاثوليكية جمعية الآباء البيض الفرنسية، وإرسالية (مل هل: Mill Hill) البريطانية. وقد باشرت جميعة الآباء البيض مهمتها في جهات: (بونيورو) ثم تورو وفي معظم بوغندة جنباً إلى جنب مع الإرساليات البروتستنتية وأنشأت أربعة عشر مركزاً في سنة ١٩٠٠ م، معظمها في أوغندة، وجزر سيسي ومركزين في تورو، وواحد في بونيورو. ويقوم القسس في هذه المراكز باستخراج الكحول من الموز لاستخدامه في أغراض المستشفيات والصيدليات، كما يستخرجون زيت السمسم للمصابيح. أما إرسالية (مل هل) البريطانية الكاثوليكية فهي ممثلة بوضوح في بوسوجا وبغض الجهات الشرقية من أوغندة، وفي مونجو[٢].

ودخلت أمريكا ميدان التبشير في شرقي أفريقية بجيوش كثيفة من المبشرين، وبإمكانات غير محدودة، كما دخلت كل من أسبانيا والبرتغال والسويد والنرويج ذلك الميدان أيضاً، بالإضافة إلى إرساليات الدول التي سبق الكلام عنها[٢]. وأنشأت هذه الإرساليات المسيحية الغربية آلاف

---

(١) محمد عبد المنعم بونس: اوغندة: ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) محمد بن ناصر العبودي: في أفريقية الخضراء: ص١٩٢.

المدارس والمستشفيات والملاجىء في الحبشة والارترية والصومال وتانزانيا وكينيا وموزمبيق وأوغندة، فقد وصل عدد المدارس الكنسية في الحبشة وحدها سنة ١٩٥٣م - ثلاثة آلاف مدرسة تعلم اللغة الأمهرية والترتيل الديني وتفسير الكتاب المقدس[١]، ومعظم مدرسيها من القسس والرهبان. وقد تضاعف عدد تلك المدارس في الحبشة وغيرها من دول شرقي أفريقية منذئذ.

وساعدت الحكومات المحلية المسيحية التي نصبتها أمم الغرب - التي كانت تستعمر تلك البلاد - ساعدت المبشرين والإرساليات التبشيرية على القيام بمهمتهم وأعطتهم الحرية وسخرت إمكاناتها لهم، إذ منحتهم الأراضي والاقطاعات، وساعدتهم في إنشاء المدارس والمستشفيات والملاجىء، للتأثير في ناشئة المسلمين من الفقراء والأيتام بتغيير دينهم أو زعزعة عقيدتهم على الأقل[٢].

ويوجد نشاط صهيوني كبير يستخدم سلاح الدعاية والاغراء، فيوزع آلاف المصاحف المحرفة والكتب التي تشوه حقيقة الإسلام وتاريخه وتراثه والتي تصور العرب المسلمين على أنهم مجرد غزاة مستعمرين وتجار رقيق مستعبدين، وتعرض الأفلام السينمائية التي تصور العرب المسلمين هذا التصوير السابق لتستثير النعرة القومية عند الافريقيين. وكان من نتيجة ذلك مذبحة زنجبار المروعة سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، والتي راح ضحيتها آلاف الأرواح من العرب المسلمين دون ذنب أو جريرة، والتي أوجدت حساسية تجاه العرب حتى الآن[٣].

وتغدق إسرائيل على حكومات شرقي أفريقية والحبشة آلاف المنح

---

(١) Murad Kamel: Das Land des Negus, P. 73.

(٢) محمد بن ناصر العبودي: المرجع السابق: ص ١١٢، ١١٤.

(٣) محمد بن ناصر العبودي: المرجع السابق: ص ١٩٣، ٣٢٥ - ٣٢٦، ٥٧٥ - ٥٧٦.

الدراسية والدورات التدريبية، وترسل كثيرين من خبرائها المدنيين والعسكريين إلى تلك الدول الأفريقية على هيئة مساعدات فنية. كما يتعمد تجارها مضايقة تجار المسلمين هناك وزحزحتهم عن الميدان الاقتصادي الذي ظلوا يمسكون بعنانه مئات السنين. وتشجعهم على ذلك حكومات شرقي افريقية المسيحية[1].

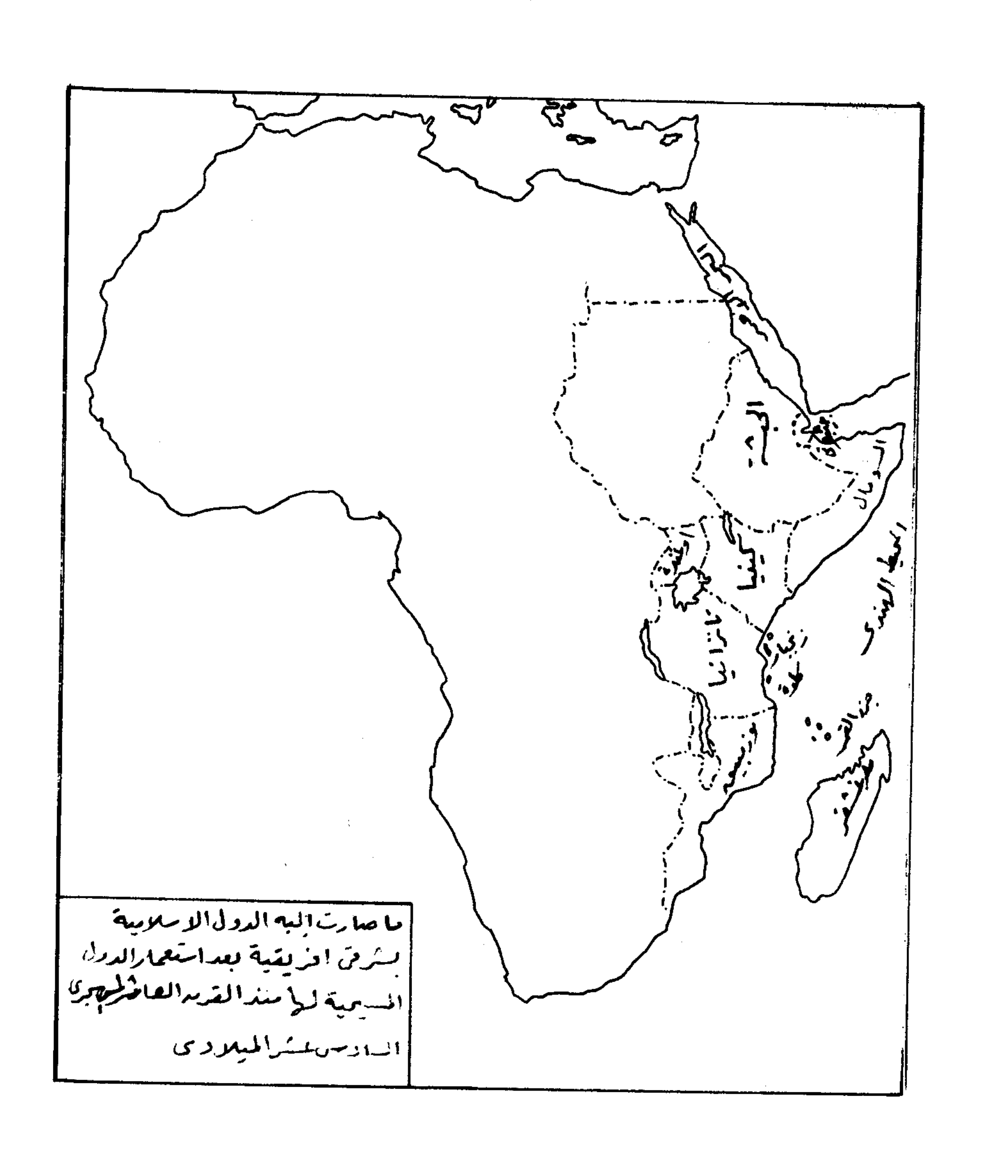
ويوجد نشاط معاد للإسلام يتمثل في الدعوات المغرضة التي يقوم بها قادة القاديانية والإسماعيلية والذين يزعمون أنهم مسلمون، وبعض المتفرنجين من منافقي المسلمين. ويوجد للقاديانية والإسماعيلية مراكز في دول شرقي أفريقية، لكنها لم تحقق نجاحاً يذكر حتى الآن[2]، بالرغم من إغداق المساعدات عليها من قبل حكومات الغرب المسيحية.

لعله قد وضح - إذن من هذه الدراسة - ان الإسلام قد انتشر في معظم أنحاء شرقي أفريقية، وأن معظم سكانها كانوا قد اعتنقوا الإسلام وأفادوا من حضارته، وأصبحت دولهم الإسلامية صاحبة الكلمة والسلطان في تلك الأنحاء إلى أن استعمرتها أمم الغرب المسيحية، وناهضت الإسلام واضطهدت المسلمين، فتغيرت الصورة وساءت الحال.

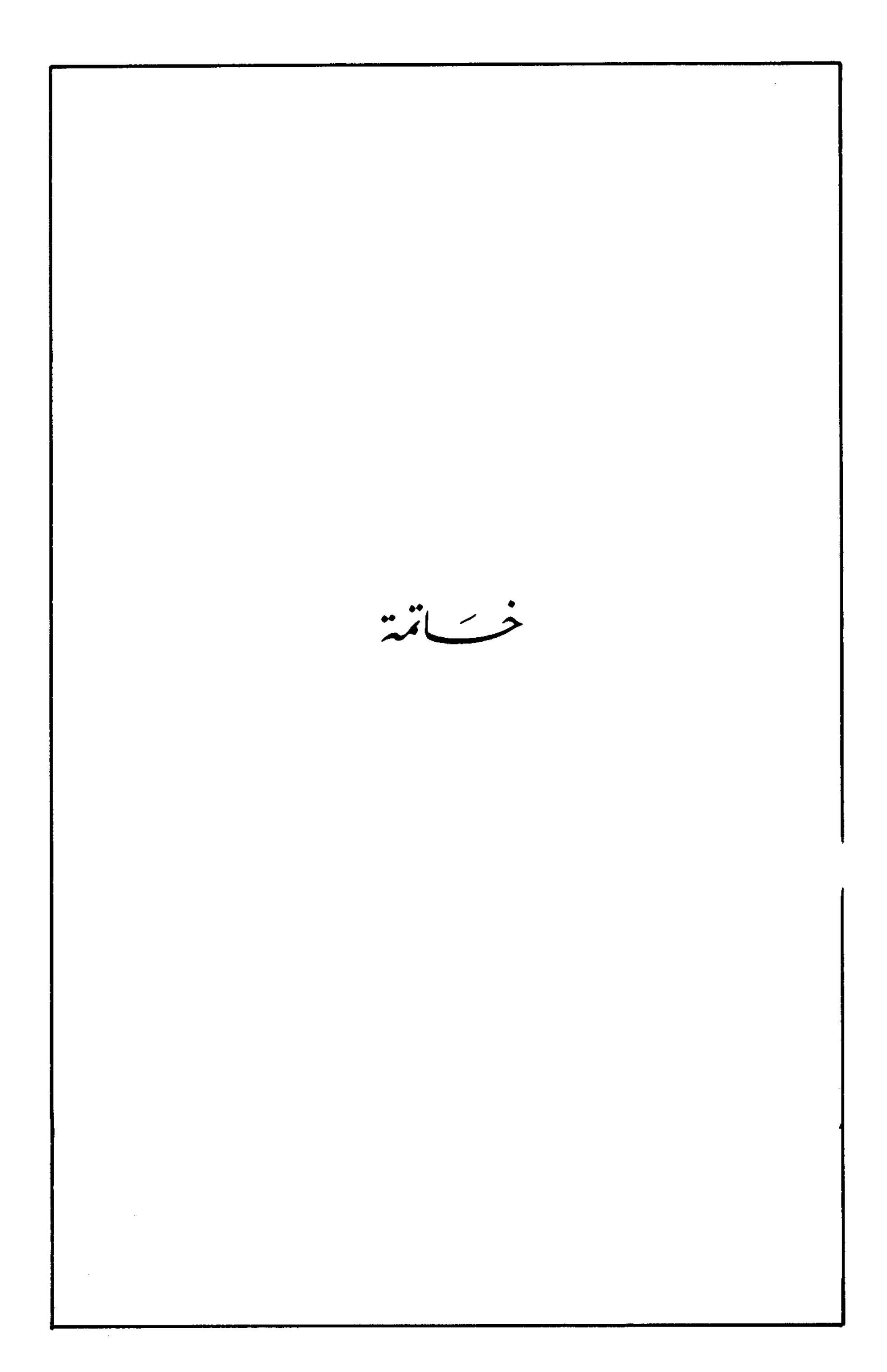
وهو ما سأعرض له في نتائج البحث في الخاتمة.

---

(١) العبودي: المرجع السابق: ص ١١٧، ١٤٨، ٣٢٥، ٦٥٥.
(٢) العبودي: المرجع السابق: ص٣٢٦.



ما صارت إليه الدول الإسلامية بشرق افريقية بعد استعمار الدول المسيحية لها منذ القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى



خَاتمة



أبانت تلك الدراسة كثيراً من النتائج التي ألخص أهمها في هذه الخاتمة:

أولاً:

١ - سكان شرقي أفريقية هم نتاج اختلاط العرب بالزنوج والحاميين والبجة، فقد توافد العرب تجاراً ومهاجرين على الحبشة بخاصة وشرقي أفريقية بعامة قبل الإسلام بوقت طويل، واستوطنوا تلك الجهات واختلطوا بسكانها وتصاهروا معهم ونشروا حضارتهم السبئية ولغتهم السامية، وكونوا دولة أكسوم في الحبشة وإمارات عربية على ساحل أفريقية الشرقي منذ القرن الأول الميلادي بل قبله.

ووفد على الحبشة بعض اليهود قبل الميلاد ونشروا اليهودية بين الأحباش، ثم جاءت المسيحية إلى الحبشة في القرن الرابع الميلادي، وتحول إليها كثير من الأحباش. وارتبطت كنيسة الحبشة بكنيسة الإسكندرية منذ ذلك القرن وظلت حتى القرن العشرين.

٢ - وبدأ الإسلام ينتشر في عهد الرسول ﷺ في الحبشة على يد الصحابة الذين هاجروا إليها والأحباش الذين زاروا النبي ﷺ بمكة واعتنقوا الإسلام بل ذكرت معظم الروايات التاريخية الإسلامية أن النجاشي

المعاصر للرسول قد اعتنق الإسلام. واستمر الإسلام في انتشاره في الحبشة وشرقي أفريقية منذ ذلك الوقت على يد التجار والمهاجرين المسلمين الذين توافدوا على تلك الجهات منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) فقد عقد عبدالله بن أبي سرح معاهدة مع البجة سنة (٣١ هـ/٦٥٠م) تبيح للمسلمين حرية التجارة والتعامل في أوطان البجة مما أتاح للإسلام أن ينتشر بينهم منذ ذلك الوقت. وهاجر جماعة من أهل الشام وجماعة من أزد عمان ونزلوا بساحل الصومال الجنوبي سنة (٦٥هـ/ ٦٨٤م). ثم توافدت جماعات من التجار والمهاجرين المسلمين وأسست مدناً لها على الساحل والجزر المواجهة له مثل: ماليندة وزنجبار ومنبسى ولامو وباته وكلوة.

ولم يلبث الجيش الإسلامي أن احتل أرخبيل الدهلك سنة (٨٣هـ/ ٧٠٢م) وهاجر بعض الشيعة سنة (١٢٢هـ/ ٧٣٩م) إلى الصومال وبعضهم وصل إلى جزيرة مدغشقر سنة (١٣٢هـ/ ٧٥٠م). واضطر من استقر منهم بساحل الصومال إلى التوغل في الداخل عندما وفد عليهم جماعة من الأحساء من قبيلة الحارث العُمانية في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وفي نفس القرن أو بعده وفد جماعة من الفرس ونزلوا على امتداد الساحل وبالجزر المواجهة له.

وهكذا اختلط المسلمون الوافدون بسكان تلك الجهات ونشروا الإسلام بينهم وتصاهروا معهم.

٣ ـ وقد نشروا الإسلام بينهم بالدعوة والموعظة الحسنة دون إكراه أو اضطهاد بل انهم هم الذين اعتنقوه إعجاباً به وبمعتنقيه.

٤ ـ وقد كون هؤلاء المسلمون وأولئك الذين اعتنقوا الإسلام من الافريقيين دولاً إسلامية ذات نظم سياسية وتقاليد إدارية راقيتين، نشأت أولاها

وهي إمارة لامو (سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م).

وكانت تلك الإمارات الإسلامية صغيرة في بداية عهدها لكن بعضها ضم إليه غيره حتى وجدنا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ثلاث دول إسلامية كبرى تقتسم الحبشة وشرقي أفريقية؛ دولة الإمام أحمد بن إبراهيم وكانت تسيطر على الحبشة كلها تقريباً وأغلب رعاياها مسلمون ودولة بني نبهان وكانت تسيطر على معظم شرقي أفريقية، ودولة كلوة الشيرازية وكانت تسيطر على باقي شرقي أفريقية جنوباً.

(٥) وكانت هذه الدول الإسلامية على درجة عالية من المستوى الحضاري الذي أذهل رحالة البرتغال في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ومن قبلهم الرحالة العربي ابن بطوطة الذي زارها سنة (٧٣١هـ/ ١٣٣١م).

٦ ـ لكن الصليبيين تمكنوا من الدوران حول أفريقية بعد أن أثاروا مسيحيي الأحباش ضد المسلمين وتحالفوا معهم، إذ تمكنت جماعة رهبان المسيح بقيادة هنري الملاح ثم دي غاما والتي كانت تضم فرسان أوروبا المسيحية أن تطوف حول أفريقية وأن تضرب العالم الإسلامي من الخلف منذ سنة ١٤٩٨، فانقضت على ممالك المسلمين بشرقي أفريقية، وأخذت تستعمرها واحدة تلو الأخرى، وتفتك بالمسلمين، وتبعها جيش البرتغال، ثم الإنجليز والألمان والفرنسيين والطليان، وعمل هؤلاء جميعاً على تنفيذ المخطط الصليبي بإخضاع المسلمين لنفوذ أمم الغرب المسيحية حتى يتم تحويلهم إلى المسيحية أو القضاء عليهم بنهب ثرواتهم وتمزيق وحدتهم وإثارة الخلافات بينهم وخلق العداوة فيما بينهم وتأخيرهم وإذلالهم وإبادتهم كلما أمكن ذلك.

ومن أجل ذلك بثوا جيوشاً من مبشريهم، وأنشأوا المدارس والمستشفيات والملاجىء والأندية والمخيمات وعملوا على تنصير المسلمين بكل الوسائل، ووقفوا في وجه الإسلام وأذلوا المسلمين.

وخلال أربعة قرون من استعمار أمم الغرب المسيحية لدول شرقي أفريقية الإسلامية، استطاعت أمم الغرب ومبشروها تنصير بعض الوثنيين وأيتام المسلمين والعبيد، وأقصوا المسلمين عن حكم بلادهم وإدارتها، ونصبوا على عرشها وإدارتها أقلية مسيحية مكنوا لها بالمال والسلاح، ومكنوها من التسلط على حياة المسلمين وأرزاقهم وتعليمهم وعلاجهم ـ بعد أن سلبوا المسلمين ما بأيديهم وأخروهم.

واقتسمت أمم الغرب المسيحية ممالك المسلمين هناك فيما بينهم، فاحتل البرتغاليون موزمبيق وعملوا على طمس معالمها العربية الإسلامية، وكان الألمان والانجليز قد اقتسموا أفريقية الشرقية بينهم إلا أن بريطانيا قد انفردت بها كلها بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، واقتسمت إيطاليا وانجلترا وفرنسا باقي البلاد الإسلامية في الصومال والحبشة بعد أن مكنت مسيحيي الحبشة من تكوين امبراطورية مسيحية عملوا على تقويتها وتوسعها على حساب ممالك المسلمين فأعطوها الأرترية وعدل وسنهيث.

ومنذ بداية الستينات أخذ النفوذ الإستعماري الغربي المسيحي في الزوال عن مسلمي شرقي أفريقية؛ لظهور القوميات وزيادة اليقظة الفكرية عند الشعوب الأفريقية وعوامل أخرى، إلا أن أمم الغرب المسيحية سلمت زمام الحكم للأقلية المسيحية ـ كما أسلفت ـ بعد أن مكنت لها ومكنتها من كل شيء، وأخرت المسلمين وسلبتهم كل شيء، وأثارت بينهم العداوة وتركتهم شيعاً وأحزاباً يناصب كل فريق منهم الآخرين العداء.

فنصبت جوليوس نيريري على تنزانيا، وأغلب سكانها مسلمون، ونصبت على جزر مدغشقر والقمر حكاماً مسيحيين بالرغم من أن جميع سكانها مسلمين تقريباً، ونصبت حاكمًا مسيحياً على أوغندة، وعزلت الحاكم المسلم وحاربته، وإن كان الانقلاب الأخير أعاد السلطة للمسلمين فتولى عيدي أمين السلطة مدة ثم أقصوه عنها ونصبت على كينيا جومو كينياتا وهو مسيحي. وهكذا..

وفوق ذلك ربطت تلك الحكومات المسيحية بها، وأقامت قواعد عسكرية في بلدان المسلمين لتردع أي حركة يقوم بها المسلمون، ولتكون ردءاً لتلك الحكومات المسيحية، وحالفت اليهود وساعدتهم في محاربة المسلمين والقضاء على الإسلام في تلك الأنحاء بالدعاية والقوة.

وتعمل تلك الحكومات في الوقت الحاضر على كبت حريات المسلمين، ومساندة المبشرين في تنصير المسلمين وجعل الجيش والشرطة والمال والعلم وكل مرافق الحياة في أيدي المسيحيين.

ثانياً: حاضر المسلمين في شرقي أفريقية:

وبالرغم من الجهود المضنية التي بذلتها أمم الغرب المسيحية في محاربة الإسلام ولا تزال منذ أكثر من أربعة قرون، وبالرغم من إقصاء المسلمين عن حكم وإدارة بلادهم وتأخيرهم وإذلالهم وسلبهم كل شيء، فلم تستطع أمم الغرب المسيحية تنصير المسلمين أو القضاء عليهم تماماً، سوى بعض الأيتام والعبيد.

والأرقام التي سأوردها عن عدد المسلمين هناك تشهد بذلك(١).

الدولة	عدد سكانها بالمليون	عدد المسلمين فيها	نسبتهم المئوية	وضعهم الحالي
الأرترية	٣,٠٠٠,٠٠٠	٢,٢٥٠,٠٠٠	٧٥ ٪	تحت الحكم الحبشي المسيحي المحتل
جيبوتي (الصومال الفرنسي)	١٠٠,٠٠٠	٠٩٥,٠٠٠	٩٥ ٪	تحت الاستعمار الفرنسي المسيحي
الحبشة	٢٠,٠٠٠,٠٠٠	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٦٠ ٪	تحت حكم المسيحيين الأحباش
الصومال	٢,٥٠٠,٠٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠	١٠٠٪	تحت حكم المسلمين
كينيا	٩,٣٠٠,٠٠٠	٢,٧٩٠,٠٠٠	٣٠ ٪	تحت الحكم المسيحي
أوغندة	٨,٥٠٠,٠٠٠	٢,١٢٥,٠٠٠	٢٥ ٪	تحت الحكم الإسلامي
تانزانيا	١٠,٢٠٠,٠٠٠	٦,٩٣٦,٠٠٠	٦٨ ٪	تحت الحكم المسيحي
موزامبيق	٦,٤٠٠,٠٠٠	٢,١٣٤,٠٠٠	٣٣ ٪	تحت الاستعمار البرتغالي المسيحي
مدغشقر	٦,٣٠٠,٠٠٠	١,٢٦٠,٠٠٠	٢٠ ٪	تحت الحكم المسيحي
جزر القمر	٠,١٣٤,٠٠٠	٠,١٣٤,٠٠٠	١٠٠ ٪	تحت الحكم المسيحي

(١) عن كل من:
Nigerian Journal of Islam, Vol. 1, No. 2. Jan-June 1971 and towards freedom and Dignity (C) 1970 London Islamic Circle «The Muslim Population» In Africa by S.M Hussain.

ثالثاً: مستقبل الإسلام في شرقي أفريقية:

وبالنسبة لمستقبل المسلمين في تلك الأنحاء، فإن المستقبل للإسلام بالرغم من الصورة القاتمة التي يرسمها له أعداؤه من المبشرين والمستشرقين وأجهزة الدعاية المسيحية لحكومات شرقي أفريقية، إذ بعد أن خف ضغط الغرب المسيحي عن تلك الدول، رأينا الأكثرية المسلمة تطيح بسلطة القلة الغاشمة كما حدث في انقلاب أوغندة الأخير الذي قام به المسلمون بقيادة عيدي أمين، وكما يحاوله المسلمون في أرترية وكينيا وغيرهما، والشواهد كلها تؤكد أن الناس لا زالوا يتحـولون إلى الإسـلام سواء وثنيـين أو مسيحيين، بل زاد تحولهم إليه وتمسكهم به نتيجة لتعرضهم لاضطهاد أمم الغرب المسيحية وحكوماتها العميلة..

وبعد، فهذا جهد متواضع قد قمت به لأكشف به جانباً من الحقائق عن ماضي الإسلام وحاضره ومستقبله في هذه المنطقة من العالم بقدر ما سمحت لي به المراجع التي استطعت الوصول إليهـا. وإن كنت أشعر بنقص وقصور لعدم تمكني من قراءة واقع المسلمين هناك والوصول إلى ما عساه يكون من مراجع ومخطوطات عن تاريخ الإسلام ودوله هناك. وآمل أن أوفق مستقبلاً في تحقيق ما فاتني وبالله التوفيق.



المراجـع

١ ـ مصادر عامة

- القرآن الكريم.
- صحيح البخاري ٩ ج مكتبة صبيح.
- صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ج، الإمام محيي الدين النووي، المطبعة المصرية.
- سنن النسائي ٨ج الإمام النسائي ط الحلي سنة ١٩٦٤م.
- سنن أبي داود.
- سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ٥ج، الإمام أبي عيسى محمد الترمذي مطبعة المدني سنة ١٩٦٤م.
- فيض القدير في شرح الجامع الصغير ٥ج. محمد رؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٣٨م.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس جزآن إسماعيل محمد الحجلوني مكتبة القدس سنة ١٣٥١هـ.
- الترغيب والترهيب من الحديث ٤ ج، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، صبيح سنة ١٣٥٢ هـ.
- لسان العرب، لمحمد بن بكر بن منظور ٢٠ جزءاً ط دار الكاتب العربي.
- دائرة المعارف الإسلامية (المجلد السابع) (مادة حبشي).

٢ ـ مصادر تاريخية وجغرافية: «مرتبة هجائياً»

- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، لتقي الدين المقريزي (ط مصر سنة ١٨٩٥م).
- البداية والنهاية في التاريخ: لعماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير (ط القاهرة سنة ١٣٥١هـ).

ـ البرق اليماني في الفتح العثماني: لقطب الدين النهروالي (ط القاهرة سنة ١٩٦٧م).
ـ تاريخ الأمم والملوك: لابن جرير الطبري (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم). (ط دار المعارف من سنة ١٩٦١م).
ـ تاريخ الجبرتي: الجبرتي.
ـ تاريخ النوبة والفنج: لمحمد أبو بكر مكي (مخطوط مصور بمكتبة آداب الاسكندرية رقم ٢٣١٩ب ذي الحجة سنة ١٢٩٦هـ).
ـ تاريخ اليعقوبي: (اليعقوبي ط دار الفكر، نشر المكتبة المرتضوية بالنجف سنة ١٣٥٨هـ).
ـ تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن: لعبد الواسع بن يحيى الواسعي (ط القاهرة سنة ١٣٤٦هـ).
ـ التبر المسبوك في ذيل السلوك: للسخاوي.
ـ تحفة الاعيان في أخبار أهل عمان: للسالمي، جزآن (ط بيروت).
ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لمحيى الدين بن عبد الظاهر.
ـ التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري.
ـ التنبيه والاشراف للمسعودي (تحقيق عبدالله إسماعيل الصاوي).
ـ ثلاث أزهار في معرفة البحار: لأحمد بن ماجد (تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، ط ١٩٥٧م).
ـ خبر لامو: لنشيبو فرج بن حمد الباقري ترجمة Hichens بعنوان:
Bantu Studies 12 (1938) Univ. Witwaterstand Press 1939.
ـ دليل البحر الأرتري: Periplus Maris Erytheai وهو مجهول المؤلف (ترجمه إلى الإنجليزية Schoff) بعنوان:
The Periplus of The Erythrean Sea, London 1921.
ـ الرحلة: لابن بطوطة (ط بيروت سنة ١٩٥٩م).
ـ رحلة ابن جبير.
ـ رحلة السيرافي (٢٣٧هـ/ ٨٥١م) لأبي زيد السيرافي (تحقيق علي البصري ط بغداد سنة ١٩٦١م).
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ٣ج: لتقي الدين المقريزي (تحقيق ونشر محمد مصطفى زيادة).
ـ السلوى في أخبار كلوة: لمحيى الدين الزنجباري نشرها:
Arthor Strong in Journal of The Royal Asiatic Soceity (1895).

- سيرة النبي ﷺ ٤ج: لابن هشام (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط القاهرة سنة ١٩٦٤م).
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: لمحمد بن مخلوف (ط القاهرة سنة ١٣٤٩هـ).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤ج: للقلقشندي (ط دار الكتب سنة ١٩٣٩م).
- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة عن نزهة المشتاق، للإدريسي ط لندن سنة (١٨٩٤م).
- صورة الأرض: لابن حوقل النصيبي (ط بيروت سنة ١٩٦٤م).
- العبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون.
- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني: ليحيى بن الحسين (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٧ تاريخ).
- فتوح البلدان: لأحمد بن يحيى البلاذري (نشره صلاح الدين المنجد ١٩٥٦م).
- فتوح الحبشة لعرب فقيه : (نشر رينيه باسية ط باريس سنة ١٨٩٧م).
- الكامل في التاريخ: لابن الأثير (ط مصر سنة ١٣٤٩هـ).
- كتاب الخطط المقريزية: لتقي الدين المقريزي (ط مصر سنة ١٣٢٤هـ).
- كتاب عجائب الهند: بره وبحره وجزايره لبزرك بن شهريار الرامهرمزي (ط. ليدن سنة ١٨٨٦م).
- كتاب الفوائد: لابن سعيد الغرناطي.
- المختصر في أخبار البشر: لأبي الفداء (ط مصر سنة ١٢٨٦هـ).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: للمسعودي ٣ج (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد سنة ١٩٦٤).
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: لابن فضل الله العمري.
- المسالك والممالك: للاصطخري (تحقيق محمد جابر ط وزارة الثقافة ١٩٦١م).
- المفاخر العلية: لابن عباد (مخطوط طرف الدكتور عبد الحليم محمود).
- معجم البلدان: لياقوت الحموي، عشر مجلدات، (ط مصر سنة ١٣٢٤هـ).
- نتائج البحوث الأثرية في أفريقية، وقد ضمنها بازل دافدسن كتابه المترجم بعنوان أفريقيا تحت أضواء جديدة (ط بيروت سنة ١٩٦١م).
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ط دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٨هـ).

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: للادريسي (مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٧٤ بلدان تيمور).
- وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية: لمسيوجيان (نقله إلى اللغة العربية ملخصاً الأمير يوسف كمال سنة ١٩٢٧م).

٣ - الرسائل الجامعية والبحوث:

١ - الرسائل:

- شرق أفريقية عند الكتاب العرب (رسالة ماجستير لم تنشر بعد بمكتبة كلية بنات عين شمس) للسيدة هيام عبد الرحمن.
- العصر الأول من الأسرة السليمانية بالحبشة ومظاهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه خاص (رسالة دكتوراه لم تنشر بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ١٢٩) د. زاهر رياض.
- مظاهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة في العصور الوسطى (رسالة ماجستير لم تنشر بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ١٢٧) زاهر رياض.
- الكنيسة والحركات القومية في شرق أفريقية (رسالة دكتوراه لم تنشر بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٦٢٣) د. يوسف عبده يوسف.

٢ - البحوث:

- استقرار العرب في ساحل شرق أفريقية، بحث للدكتور جمال زكريا قاسم، نشره بحوليات آداب عين شمس (المجلد العاشر).
- الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، بحث للدكتور إبراهيم علي طرخان، نشره بالمجلة التاريخية المصرية، مايو سنة ١٩٥٢.
- بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، بحث للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، نشره بالمجلة التاريخية المصرية (العدد ١٤ لسنة ٦٦/ ١٩٦٧م).
- التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، بحث نشره الدكتور صبحي لبيب بالمجلة التاريخية المصرية مايو سنة ١٩٥٢.
- الرهبنة في الحبشة، بحث للأستاذ مراد كامل، نشره بمجلة رسالة مارمينا (العدد الثالث، مايو سنة ١٩٤٨م).

- المصادر العربية لتاريخ شرق أفريقية، بحث للدكتور جمال زكريا قاسم، نشره بالمجلة التاريخية المصرية (المجلد الرابع عشر سنة ١٩٦٨م).

٤ - المراجع والدوريات:

١ - المراجع العربية:

- ابن عبد الحكم، الدكتور إبراهيم أحمد العدوي (ط سنة ١٩٦٣م).
- أبو الحسن الشاذلي: الدكتور عبد الحليم محمود (ط وزارة الثقافة بالقاهرة سنة ١٩٦٧م).
- أحاديث شفهية: الشيخ محمد الحافظ التجاني، شيخ الطريقة التجانية.
- أطلس التاريخ الإسلامي: هاري وهازارد (ترجمة إبراهيم خورشيد ط ١٩٥٣م).
- استعمار أفريقية: الدكتور زاهر رياض (ط الثقافة والارشاد القومي بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ).
- الإسلام: الدكتور أحمد شلبي (ط الرابعة سنة ١٩٦٨م).
- الإسلام في أثيوبيا: الدكتور زاهر رياض (ط أولى).
- الإسلام والثقافة العربية في أفريقية: الدكتور حسن أحمد محمود (ط القاهرة ١٩٥٨م).
- الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الإستعمار وشبهات التعريب: أنور الجندي (ط أولى).
- الإسلام والحبشة عبر التاريخ: المهندس فتحي غيث (ط أولى).
- الإسلام والحضارة العربية: الأستاذ محمد كرد علي (ط٣ سنة ١٩٦٨م).
- الإسلام والمسلمون في شرقي أفريقية: الدكتور عبد الرحمن زكي (ط أولى).
- آسيا والسيطرة الغربية: ك.م. بانيكار (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) (ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢م).
- أفريقيا تحت أضواء جديدة: بازل دافدسن (ترجمة جمال محمد أحمد سنة ١٩٦١م).
- أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي: الدكتور السيد رجب حراز (ط القاهرة سنة ١٩٦٨م).
- انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى: الدكتور حسن إبراهيم (ط القاهرة سنة ١٩٥٧م).

- أوغندة: محمد عبد المنعم يونس (ط دار القلم رقم ١١).
- بين الحبشة والعرب: الدكتور عبد المجيد عابدين (ط القاهرة ١٩٤٧م).
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: الدكتور أحمد شلبي، الجزء الأول (ط الثالثة سنة ١٩٦٤م) والجزء الثالث (ط الثانية سنة ١٩٦٢م) والجزء الرابع (ط أولى سنة ١٩٦٣م).
- تاريخ الصومال في العصور الوسطى والحديثة: جامع عمر عيسى (ط أولى).
- التبشير والاستعمار في البلاد العربية: للدكتور مصطفى خالدي وعمر فروخ (ط بيروت سنة ١٩٥٣ م).
- التوسع الإيطالي في شرق أفريقية وبناء مستعمرتي أرترية والصومال (ط جامعة القاهرة سنة ١٩٦٠م). السيد رجب حراز.
- جغرافية الإسلام في أفريقية: الدكتور عبد العزيز كامل (ط أولى).
- الجمهورية الصومالية: عبد المنعم عبد الحليم (ط الألف كتاب سنة ١٩٦٠م).
- الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان: الحفني القنائي (ط أولى).
- الحركة الصليبية: للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (ط أولى).
- الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري: آدم متز (ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ط سنة ١٩٤٩م).
- حقوق الإنسان في الاسلام: الدكتور علي عبد الواحد وافي (ط الرابعة سنة ١٩٦٧م).
- حياة محمد ﷺ: الدكتور محمد حسين هيكل (ط التاسعة سنة ١٩٦٥م).
- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية: الدكتور محمد ضياء الدين الريس (ط الثانية سنة ١٩٦١).
- الخلافة والدولة في العصر العباسي: الدكتور محمد حلمي محمد أحمد (ط أولى سنة ١٩٥٩م).
- الدعوة إلى الإسلام: توماس أرنولد: ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين (ط ثالثة سنة ١٩٧٠م).
- دولة بو سعيد في عمان وشرق أفريقية: الدكتور جمال زكريا قاسم (ط الأولى).
- الديانات في أفريقية السوداء: هوبير ديشان (ترجمة أحمد صادق حمدي، ط الألف كتاب رقم ٥٢ سنة ١٩٥٦م).
- زنجبار: للدكتورين صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم (ط أولى).

- الشعوب والسلالات الأفريقية: الدكتور محمد عوض محمد (ط القاهرة يونية ١٩٦٥م).
- العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الحديثة: الدكتور جورج فضلو حوراني (ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر).
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوروبي: الدكتور محمد البهي (الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٤هـ).
- قصة الكنيسة المصرية: إيزيس حبيب المصري (ط الأولى).
- القواعد الأساسية لدراسة اللغة الفارسية: الدكتور إبراهيم الشواربي (ط الرابعة سنة ١٩٦٤م).
- المسيحية: الدكتور أحمد شلبي (ط الرابعة).
- المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري: الدكتور أحمد دراج (ط القاهرة سنة ١٩٦١م).
- نظرات في الإسلام: الدكتور محمد عبدالله دراز (ط سنة ١٩٥٧م).
- النظريات السياسية الإسلامية: الدكتور محمد ضياء الدين الريس (ط الثالثة سنة ١٩٦٠م).
- النيل: إميل لودفيغ تعريب عادل زعيتر، (ط دار المعارف سنة ١٩٥١م).
- في أفريقية الخضراء: محمد بن ناصر العبودي (ط بيروت سنة ١٩٦٤م).
- في الدين والاخلاق والقومية: الدكتور محمد عبدالله دراز (ط سنة ١٩٦٧م).
- الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) الدكتور شوقي عطاالله الجمل (ط الجمعية المصرية للدراسات التاريخية).

٢ ـ الدوريات:

- بعض المدن العربية بشرق أفريقية، محاضرة للدكتور عبد الرحمن زكي نشرت بمجلة الجمعية الجغرافية (محاضرات سنة ١٩٦٤م).
- زيلع، مقال للدكتور زاهر رياض، بمجلة نهضة أفريقية، السنة الأولى العدد الحادي عشر (سبتمبر سنة ١٩٥٨م).
- عوامل انتشار الإسلام في شرق افريقية، مقال للأستاذ عبد السلام شحاته بمجلة نهضة أفريقية (٥/ ٥٩) أكتوبر سنة ١٩٦٢م.

- المؤثرات العربية في شرق أفريقية، محاضرة للدكتور محمود طه أبو العلا، نشرت بمجلة الجمعية الجغرافية (محاضرات سنة ١٩٦٠م).
- بريد القراء، بمجلة العربي (عدد ربيع الثاني سنة ١٣٩٢هـ).

٥ - المراجع الأجنبية مرتبة هجائياً بحسب أسماء مؤلفيها:

- Alan Morchead: The Blue Nile.
- Arthor Strong: A History of Kilwa (J.R.A.S. 1895).
- Attwater, D.: The White Fathers in Africa (London, 1957).
- Becker, H. Islam studien 11 (Hildeshcim 1967).
- Budge, Sir Wallis: A History of Ethiopia, 2 Vols (London 1928).
Coupland, Roland: East Africa and its Invaders from the Earlest times to the Death of Seyyed said in 1850 (London 1956-61).
- Coupland, Roland: The Exploitation of East Africa (1856-1890) The Slave Trade and The Scramble (london 1939).
- Gray, Sir James: The British in Mombasa (1924-26 London 1957)
— Hamilton G: Princes of Zinj. The Rulers of Zanzibar (London 1957).
- Harries: Islam in East Africa.
- Hertslet, E.: The Map of Africa by Treaty 3 Vols. (London 1909).
- Hichens, W.: Bantu Studies 12 (1938) London 1939.
- Hichens: W. : Islam To-Day (London 1942).
- Hollingsworth, L.W.: Zanzibar under the Foreign office (1890-1913) (London 1953).
- James Kritzech and W.H. Lewis: Islam in Africa (Canada 1969).
Krapf J.L.: Travels, Researches and Missionary Labours during an Eighteen year's Residence in East Africa. (London 1860).
— Livingstone, D.: Missionary Travels and Researches in South Afi-ca (London 1857).
- Mackay: Mackay of Uganda by his sister (London 1890).
- Mac Macheal, H.: A History of The Arabs in the Sudan, Vol 1. (London 1922).
- Morad Kamel: Das land Des Negus (1953).
- Parrinder, G.: Religion in Africa (London 1969).

- Plowden, W.C.: Travels in Abbyssinia and the Galla Country (London 1868).
- Qeddes: Church History of Ethiopia.
- Rit D. Julius: Tanganika and its future.
- Roland Oliver: The Missionary Factors in East Africa (London 1952).
- Runsman: Crusades 3 Vols.
- Stock, E.: History of The Church Missionary Society: 4 Vols. (London 1899-1916).
- Thomas, H.B. and Scott, R.: Uganda; (Oxford 1949).
- Trimingham, Spencer: Islam in Ethiopia (London 1952).
- Trimingham, Spencer: Islam in East Africa (London 1964).
- Trimingham, Spencer: The influence of Islam upon Africa (London 1968).
- Ullendorff, E.: The Ethiopians (Oxford 1960).

٦ ـ المعارف العامة والدوريات :

- The Combridge History of the British Empire Vol. 2 (London 1857).
- Encylopeadia Britannica, 20 Vols (London 1957).
— Enc. De L'Islam, Vol IV (1934) «Tanzania»: Parole et Mission (Jan, 1971) by Franz.
- «Some Facts about Muslems in Africa» by Housain: Toward; Freedom and Dignity (C) 1970. London Islamic Circle.
- Methods of Mission Work Among Moslems (1906) group of athors.
- Mohammedanism in Africa (the Nineteenth Century; Dec. 1887).
- «Some Facts about Muslems in Africa» by Housain Nigerian Journal of Islam. Vol. 1: No 2. Jan-June 1971.